ـ معركة أسطاوالي ـ

تمثل هزيمة أسطاوالي بداية لمرحلة حالكة من تاريخ الشعب الجزائري. فالمحن التي نجمت عنها والمآسي التي ألمت بربوع البلاد من أقصاه إلى أقصاه، من جرائها والتي كادت أن تؤديه وتطمره في جب الزمن فلن يصبح له ذكر إلا في زمرة الشعوب المنقرضة.

لقد كتب الكثير عن هذه المعركة من طرف الفرنسيين. فالأدبيات حولها متعددة المشارب : تقارير رسمية، شهادات عامة كتبها أطراف كان لهم دور فيها أو شهادات جزئية عن فصل من فصولها ؛ معالجة تقييمية أو إستعراض تاريخي لوقائعها. كما تعرض لها بعض الجزائريين من الذين عاصروها بطريقة تقييمية مقتضبة، تفتقر إلى التفاصيل وإلى رصد كل الوقائع الجزئية التي تتصل بها بصفة مباشرة وغير مباشرة. رغم هذا فلا يزال هناك نقص كبير في المعلومات حولها من الطرف الجزائري مما جعل الصورة تبقى دائما مهزوزة وعملية تقييمها تكون تقريبية وغير مرضية.

لقد تجنبت الأجيال من الجزائريين الخوض في عمق أسباب هزيمة أسطاوالي والآليات التي أدت إليها واكتفى بتقديم أسباب سطحية شلت كل محاولة وإدراك عقلاني مستوعب للدرس وشرح للمأساة وأسبابها.

فالجيل الذي عاصر هذه المحنة والجيل الذي يليه حملوا المسؤولية في ذلك للداي حسين الذي لم يحسن التصرف ولم يقم بعمل مايجب عمله وهذا الأخير يبرر نفسه من التهمة ويحمل المسؤولية لقائد الجيش، إبراهيم آغا، صهره. أما الجيل الذي نشأ في كنف المدارس الأهلية فهو يحمل المسؤولية ((المستعمرين الأتراك)) فهزيمة أسطاوالي هي في نظر بعضهم قد استبدلت فقط، محتلين قدامى بمحتلين جدد.

إن هذه الذهنية تمثل إستلابا خطيرا للشخصية، عكس ما هو ملاحظ بالنسبة لموقف الجيلين الأولين الذى هو أقرب إلى الحقيقة فلتأمل أكثر حول موقفيهما يستوجب طرح الاشكالية : هل أن هزيمة أسطاوالي كانت شيئا لامفر منه. للظروف التي جرت فيها هذه المعركة والملابسات التي أحاطت به قد تمكننا من تلمس بعض الأسباب التي أدت إليها.

1 ـ نظام الدفاع الجزائري

إن محاولة تلمس بعض الأسباب العميقة التي تسببت في هذه الهزيمة تقود بالضرورة إلى الاستفسار عن نوع العقيدة العسكرية السائدة لدى الجزائريين وطبيعة السياسة الدفاعية التي اعتمدوها لمواجهة أي خطر خارجي.

لقد عاشت البلاد في حالة من **الاستقرار والثقة بالنفس ضد أي خطر** خارجي قرابة ثلاثة قرون وتأكدت هذه الثقة بالنفس بسبب **فشل المحاولات العديدة التي قامت** بها بعض الدول الأوروبية والتي آخرها الحملة الاسبانية الفاشلة، ضد الجزائر عام 1775. لقد أدى هذا إلى نمو شعور بالاعتقاد في قدرة مواجهة أية محاولة تستهدف النيل من البلاد مهما كان مصدرها ومهما كانت الامكانيات التي عيشت من أجل ذلك. لقد كان معروف منذ وقت طويل أن نظام الدفاع الجزائري كان يشوبه نقص خطير ممثل في مدفعيته الشديدة واعتماده أساسا على منطقة متيجة التي تشكل القاعدة الأساسية للدفاع عن كامل التراب الوطني.

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

فلم يكن يعنى بتوزيع التحصينات والقوات توزيعا يتلائم وإحتياجات الدفاع وإذا كان لهذه السياسة مايبررها في الماضي، عندما اثبتت جدواها في كون حكومة البلاد قد استطاعت مواجهة الخطر الخارجي ضد أية نقطة من التراب الوطني وتصفيته إنطلاقا من العاصمة، فإنه على ضوء المعطيات الجديدة والتي تتمثل على الخصوص، في نمو قوات البحريات الأوروبية في المتوسط وتهديدها لمواصلات البحرية الجزائرية حتى الساحلية منها، مايدفع بالضرورة إلى إعادة النظام في السياسة الدفاعية وفق متطلبات هذه الوضعية الجديدة وذلك بالتركيز على تكوين جيش عصرى قادر على حماية البلاد. فليس هناك مايوحى بالاعتقاد بوجود شعور لدى المسؤولين بهذه الضرورة. فالجيش الجزائري بقي على نظامه القديم. فالقوات الدائمة الممثلة في عساكر الأوجاق الذين يتم تجنيد معظمهم في الأقاليم التركية للأمبراطورية العثمانية والبعض منهم يجندون محليا، هي من الضآلة وقلة العدد مايجعلها غير قادرة على حفظ الأمن الداخلي في حالة إضطراب الأوضاع. فعند نزول الفرنسيين بسيدي فرج لم يكن عدد أفراد عساكر الأوجاق يتجاوز سبعة آلاف جندي بمن فيهم أفراد الحاميات الموزعين على مختلف مدن البلاد. حقيقة لم يسبق في الماضي أن شكل هؤلاء العساكر القوة الرئيسية في مواجهة أي غزو أجنبي، بل كانت السلطات تعتمد أساسا في مثل هذه الظروف على تعبئة المتطوعين تعبئة مؤقتة تنتهى بزوال الخطر واندحار العدو، فيعود بعدها كل واحد إلى منزله. هذا النظام استمر على ماهو عليه دون أي تغيير يذكر. فهزيمة المماليك على يدنا بليون في معركة الأهرام لايبدو بكونها استوعبت من طرف المسؤولين الجزائريين ولا أستفيد من درسها، كما لاتبدو بكونها فهمت بأنها في إحدى جوانبها تمثل صداما بين عقيدتين عسكريتين إحداهما قديمة وأخرى عصرية متطورة، ومجابهة بين عقلية تواكلية تعتمد أساسا على قدرة الفرد وشجاعته الشخصية وبين ذهنية تعتبر العمل المنظم والمستمر أساسا في تحقيق الهدف.

وبالفعل فلم يحدث أي تطوير للنظام العسكري القديم المركب بطريقة بسيطة للغاية. فالوحدة الصغرى المكونة من الخباء يقودها ضابطان : قائد الوحدة ونائبه وصف ضابط يدعى بولداش. وثلاثة أخبية يكونون وحدة المائة تحت قيادة ضابط يدعى بولوك باشي. ووحدات المائة تشكل بدورها المحلة والتي هي ليست وحدة نظامية قائمة بذاتها وإنما يتم تشكيلها بضم عدد من وحدات المائة مع بعضها البعض لغرض القيام بمهمة محددة ثم تحل بعد الانتهاء من هذه المهمة ويتولى قيادة الحلمة إما الآغا نفسه الذي هو قائد الجيش أو نائبه.

ويبدو أنه على عهد يحي آغا الذي عين في هذه الوظيفة منذ بدأ عهد الداي حسين واستمر فيها حتى سنة 1829، أدخلت عدد من التحسينات على هذا النظام والتي تمثلت في التدريبات اليومية على الرمي وعلى مختلف فنون القتال الأخرى كما اعتنى بالمسائل المتعلقة بالنظام و الانضباط غير أن هذه التجديدات لم تستمر بعده وهي كما يلاحظ لم تمس جوهر النظام العسكرى نفسه. أما بالنسبة للفرق المتطوعة التي تعبىء في الملمات فهاته لم تكن تخضع لأي نظام من أي نوع. فكل مجموعة تقاتل تحت قيادة المسؤول الذي عبأها، فشيخ القبيلة يتبع قائده وهذا الأخير يأتمر بأوامر الباي أو خليفته وجميعهم تحت أمرة الآغا. وهكذا نلاحظ أن الجيش في مجموعه نظاميا ومتطوعا، يشكو نقصا شديدا من جوانب كثيرة عشية المجابهة مع فرنسا.

2 ـ الاستعدادات :

إن الانزال الفرنسي عند سيدي فرج لم يكن مفاجئة لأحد. فسلطات البلاد كانت تدرك منذ وقت بعيد أن أية محاولة تستهدف غزو الجزائر، ستكون بالتأكيد في منطقة غرب العاصمة، وبالذات عند شاطيء سيدي فرج الذي يتوفر على شروط جد ملائمة للانزال إلى جانب قربه من العاصمة، فالأوروبيون إستوعبوا فشل المحاولات التي قام بها الاسبان في شرق العاصمة والضابط الجاسوس بوطان الذي أرسله نابليون لأستطلاع وإستكشاف أحسن نقطة لانزال حملة ضد العاصمة، أبعد منذ الوهلة الأولى فكرة الانزال عند أية نقطة شرق العاصمة على إعتبار أن سبب فشل الحملات الاسبانية يعود إلى سوء إختيار المكان المناسب لأنزالها. وحدد هذا الضابط منطقة سيدي فرج على أنها النقطة التي تتوفر على أحسن الشروط لمثل هذه العملية كما اعتنى كذلك بدراسة طريقة الاقتراب والتقدم نحو العاصمة في أحسن الظروف. لم يبق هذا التقرير سرا مكتوما. لقد عرف محتواه لأن بوتان تم أسره من طرف الانجليز أثناء عودته من مهمته التجسسية وتعرفوا على الغاية منها وأطلعوا حكومة الجزائر بذلك قبل سقوط نابليون.

وإلى جانب هذا فإن المعارضة الليبرالية في فرنسا قامت منذ بدا الاستعدادات بطولون بنشر كل شيء يخص هذه العملية : عدد القوات البرية المعبأة، تجهيزاتها وتسليحها، عدد وحدات الأسطول التي يحملها وحتى المكان المتوقع للانزال وأكد الداي نفسه أن ماكان يتم من إستعدادات بفرنسا كان يصله أولا بأول.

لم يقم الداي بتعبئة جميع الامكانات البشرية المتاحة لدرء هذا الخطر. فتعليماته لباي قسنطينة كانت تحثه على اليقظة والحذر والاستعداد لمواجهة أية محاولة قد يقوم بها الفرنسيون ضد مدينة عنابة. فلم يطلب منه جمع قواته والقدوم بها إلى الجزائر. أما بالنسبة لباي وهران فقد طلب منه إرسال جزء من القوات والاحتفاظ بالباقي معبئة درءا للطوارىء. وكان يخشى أن يقوم الفرنسيون بمحاولة ضد مدينة وهران أو مدينة أرزيو، ويحتمل أن يكون الداي قد إعتقد أنه بالامكان التصدي للحملة الفرنسية في القيام بتعبئة جزئية تتم في بايليك التيطري وفي دار السلطان ـ أي منطقة متيجة ـ مع عساكر الأوجاق. لقد أمر إبراهيم آغا بإتخاذ الاجراءات الملائمة لمجابهة الموقف وزوده بالمعلومات التي كانت تحت يده كما أمده، بخطة العمليات الفرنسية وبمكان نزولهم.

وبخصوص التسليح فقد وردت إشارات تفيد بكون السلطات قد جمعت كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة وخاصة المدافع. والشيء المؤكد أن القلاع والحصون الموجودة في الميناء وفي ضواحي العاصمة كانت ذات مستوى عالي من التسليح. لقد بلغ عدد المدافع الرابضة بها حوالي ألفي مدفع من مختلف العيارات. لقد أكد هذا المستوى الرفيع في التسلح والتحكم في الرمي المدفعي فشل المحاولات التي قام بها الأسطول الانجليزي عام 1824 لقصف العاصمة كما أكد العسكريون الفرنسيون الذين أوفدوا في مهمات إستطلاعية إلى الجزائر قبل القطيعة إستحالة النيل منها عن طريق البحر بسبب كثافة نيران المدفعية الموجودة في الحصون من جهة ودقة رمي المدفعيين الجزائريين من جهة ثانية كماأن البنادق حسب التي كانت في حوزة الجيش الجزائري كانت حسب الفرنسيين، أطول مدى وأدق من البنادق التي كانت في حوزة الجيش الفرنسي.

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ويلاحظ هذا، أن منطقة سيدي فرج لم تحظ بأي إهتمام خاص من طرف السلطات، بل إكتفي فقط بوضع عدد من المدافع الخفيفة بها تحسبا للطواريء وقد تم هذا العمل على عهد يحي آغا.

فعشية نزول القوات الفرنسية لم يكن هناك أي إستعداد خاص عند سيدي فرج، سواء على مستوى القوات البرية أم المدفعية، كما لم يتم إقامة أية تحصينات بها. والغريب في الأمر أن مكان التجمع الذي حدد للقوات المتطوعة كان بالحراش ومكان تواجد قوات خليفة باي الغرب كان عند عين الرباط في الناحية الشرقية للعاصمة ويتطلب الأمر مسيرة نصف يوم، سيرا حثيثا للانتقال من هذين المكانيين إلى ميدان العمليات.

ويؤكد حمدان خوجة أنه لم يكن لدى الآغا إبراهيم صبيحة الانزال (14 جوان) أكثر من ثلاثمائة فارس، أما الحاج الشريف الزهار فيقول أنه لم يكن معه سوى سبعين فارسا فعندما وقع الصدام بين الفرقة الأولى، التي قامت بهجوم سريع ضد البطاريتين اللتين كانتا تقصفان القوات النازلة قصفا مركزا لم تجد أمامها قوات شأن للدفاع عنها لقد أغرقت مرابض المدافع إغراقا بجحافل أفرادها وكان البعض منها قد أتلف من جراء القصف المنصب عليها من طرف مدفعية الأسطول. لقد تمكن الفرنسيون من تحصين رأس الجسر بعيدا عن كل مضايقة تقريبا في الوقت الذي كانت قوات خليفة باي الغرب مستمرة في مواقعها عند عين الرباط.

سجل شهود عيان من الجزائريين، صورا للاهمال والاستخفاف بالخطر يدعوا إلى الدهشة دافعها على مايبدو من هاته الشهادات نقص الكفاءة وإنعدام المقدرة والمؤهلات اللازمة لدى الشخص الذي تحمل مسؤولية الدفاع عن مقدرات البلاد في هذا الظرف العصيب إبراهيم آغا وهذه الشهادات تؤكد أن الداي وفر له جميع الامكانيات للقيام بمهمته ولكنه لم يحسن إستخدامها فردود فعل الداي ضد صهره الهزيمة والمرارة التي كان يحس بها نحوه، حيث اتهمه هو وزمرة معه بالخيانة تحمل على الاعتقاد بكونه قد ضلل وأن لم تكن لديه صورة حقيقية عن خطورة الوضع كما كان متمثلا. لن يستفيد التاريخ بتبرأة هذا وتحميل ذالك مسؤولية ماحدث وربما كان لدى إبراهيم آغا نفسه، مايقوله لرفع التهمة عنه فبعض الاشارات تفيد بأنه حتى يوم 16 جوان كان لايزال يطلب المدافع والامدادات وأنه بعد أربع وعشرين ساعة فقط، أي قبل أن يصل إليه ماكان يطلبه، حدد موعد للهجوم ليوم السبت 19 جوان غير أن التاريخ سيستفيد بدون شك عندما يتسائل : لماذا حدث هذا ؟ فميز أن القوى العددي بين الطرفين وخطة العمليات وطريقة إدارة المعركة هي عناصر جثمت بكل ثقلها في تحديد مصير هذه المجابهة الحاسمة.

إن ميزان القوى العددي بين الطرفين عشية المجابهة كان في إختلال شديد لصالح الفرنسيين فعدد القوات الفرنسية كان سبعة وثلاثون ألف جندي يسندهم إثنان وسبعون مدفع لميدان والتي جربت لأول مرة في ميدان المعركة وأعطت نتائج جد مرضية، بالنسبة للفرنسيين إلى جانب مدفعية الأسطول الضخمة (1870 فوهة مدفع). أما السلاح الفردي الذي كان يتمثل في البنادق والسيوف فليس هناك تمييز يذكر لصالح أحد الطرفين. أما القوات الجزائرية فيلاحظ بهذا الخصوص أن المصادر الفرنسية تتعمد المبالغة بخصوصها لأسباب معلومة حين تجعل عدد هذه القوات يتراوح بين 50 إلى 60 ألف جندي ولكن في الحقيقة أن عدد الجيش المتواجد في معسكر أسطاوالي عشية المعركة كان أقل من ذلك بكثير.

فمنذ بداية القرن، أكد بوطان في تقريره أن الجزائريين لن يستطيعوا تعبئة أكثر من ستين ألف جندي، وهذا لتقدير وضع في ظرف كانت فيه الجزائر في وضعية إقتصادية ومالية أفضل مما أصبحت عليه فيما بعد وإلى جانب هـا، فالداي لم يقم بإعلان التعبئة العامة بل إكتفى بإستدعاء جزء من قوات بايلك التيطرى والتي لم تتجاوز ستة آلاف جندي، وباي التيطري لم يأت معه بأكثر من ألف فارس كما يؤكد ذلك حمدان بن عثمان خوجة. كما لم يطلب إرسال أي فرد من قوات بايلك الشرق. فالقوات التي كانت مع الحاج أحمد باي هي عبارة عن حرسه الخاص لايتجاوز عددهم الأربعمائة فارس، أما عساكر الأوجاق فلم يكن يوجد منهم في معسكر أسطاوالي عشية المعركة أكثر من ألفي جندي والباقي كانوا موزعين على الحصون أو تركوافي الاحتياط عند سيدي خلف، لقد تم تعبأة عناصر من سكان متيجة كما جاءت جماعات متطوعة من قبيلة فليسة ومن جهات أخرى المحيطة بإقليم متيجة، وتشير المصادر الجزائرية المتوفرة أنه لم يتم القيام بأي عمل من شأنه تشجيع هؤلاء المتطوعين على البقاء تحت السلاح، لقد أهمل شأنهم وترك معظمهم بدون مؤونة ولا علف لخيولهم مما أجبرهم في النهاية على العودة إلى منازلهم، ويشير الآغا إبراهيم من جهة أخرى أن عدد القوات الفرنسية كان ضخما جدا بالمقارنة مع القوات التي كانت تحت قيادته وطالب في رسالة للداي أن تستدعي قوات بايلك الشرق. وعندما تم الاستيلاء على معسكر أسطاوالي فإن عدد الخيام التي كانت منصوبة لم تتجاوز الأربعمائة خيمة عند بعض المصادر الفرنسية ومائتين وسبعين خيمة عند البعض الآخر ـ ولم يكن لأفراد الجيش المنهزم الوقت الكافي للعودة إلى المعسكر وحمل خيامهم معهم بل ترك كل شيء على ماكان عليه عند بدأ المعركة حتى الأمتعة الخفيفة والمراسلات بقيت في أماكنها ـ ومن المعروف أن الخيمة تأوي ثلاثين جنديا في المعدل وليس كل الخيام مخصصة لايواء الجنود فالبعض منها كانت بمثابة مخازن والبعض الآخر يستخدم كمقرات للمصالح الادارية والصحية للجيش.

واعتبارا لهذه المؤشرات فإنه من الصعب التصور أن عدد القوات الجزائرية عشية المعركة كان يتجاوز الخمسة عشر ألف جندي وهناك ملاحظ فرنسي (بليسي دي رينو) كان في المعسكر المقابل كتب من جهته مؤكدا أن عدد القوات الجزائرية المتواجدة عند أسطاوالي لايمكن أن تتجاوز العشرين ألف جندي على أقل تقديرا. أكد الجنود الجزائريون الذين غادروا العاصمة بعد الهزيمة من جهتهم أنهم انكسروا في المعركة بسبب كثرة العدد وأنهم أغرقوا إغراقا وسط بحر من البشر. ويلاحظ من جهة أنه لم تترك قوات في الاحتياط بالمعسكر بل وقع الهجوم على المواقع الفرنسية بجميع القوات التي تجمعت في أسطاوالي حتى أنه لم يتصد للهجوم الفرنسي ضد المعسكر سوى البطاريتين الرابضتين أمامه وكانت هي كل مالدى الجيش من المدفعية في هذه المعركة.

أما خطة المعركة، فقد تم وضعها بحضور كل من إبراهيم آغا الحاج أحمد باي ومصطفى بو مزراق باي التيطري وخليفة باي الغرب. في البداية قبل الانزال ساد الاعتقاد في إمكانية منع الفرنسيين من النزول إلى الشاطيء ولكنه تبين أنه لم يهيء لذلك تهيئة ملائمة فليس هناك مدفع واحد من عيار ثقيل لمجابهة مدافع سفن الأسطول القوية، كما اتضح أن أي نوع من التحصينات تقام على جناح السرعة سوف لن [illegible] أمام القصف المدفعي الكثيف. ويلاحظ أن هناك خلاف وقع [illegible] إبراهيم آغا الحاج [illegible] ل طريقة التصدى للعدو ففي

رأي هذا الأخير أنه يجب تجنب الصدام المباشر معه في هذه المرحلة وأنه يكفي مضايقته والضغط عليه وترك السبيل له للتقدم، إذا أراد محو العاصمة والتي هي هدفه وملاحقته من الخلف والعمل على قطع خطوط مواصلاته وعزله عن قاعدة تموينه في سيدي فرج أما إذا حاول الصدام، فلايجوز أن تعطى له الفرصة لذلك بل يجب جره بعيدا عن قاعدته وتمديد خطوط مواصلاته إلى مكان يتم إختياره بعناية وضربه هناك عندما تتجمع القوات الكافية لذلك. أما إبراهيم آغا فقد كان يرى إتباع خطة مثل هاته تعنى الهروب أمام العدو وهذا لايجوز وأن الواجب يقضى بالوقوف في وجهه والتصدي له مهما كان الأمر.

ويبدو أن باي التيطري وخليفة باي الغرب قد دعما وجهة نظر الآغا ولذلك فقد وضعت خطة إرتكزت على القيام بالهجوم على جناحي العدو والتي تمثل جبهته شكل هلال وسطه شبه جزيرة سيدي فرج، بهدف تغليفه وعزله عن قاعدته وعن البحر ومركز الهجوم الرئيسي تقوم به ميمنة الجيش تحت قيادة إبراهيم آغا نفسه. فالخطة جيدة كما تبدو على الورق لكننا فوق ماهو ممكن تحقيقه بالامكانيات المتوفرة بشريا وتسليحا إلى جانب هذا، فإدارة المعركة تشكو نقصا ذريعا بل لم تكن موجودة أصلا وهذا مايفسر تبخر الجيش بتلك السرعة حتى قبل أن تتأكد الهزيمة وتفرض نفسها في ميدان القتال.

3 ـ سير المعركة :

إنطلقت القوات الجزائرية من مواقعها عند معسكر أسطاوالي صبيحة يوم السبت 19 جوان، مستغلة في تقدمها نحو مواقع العدو ضباب الصباح الذي غطى المنطقة مما منع مدفعية الأسطول من التدخل. لم تفاجيء القوات الفرنسية بهذا الهجوم لقد كانت تتوقعه فالمعلومات التي استقتها من الجواسيس أكدت لها أن الهجوم الجزائري سيكون في هذا اليوم.

يمكن أن نميز في سير المعركة بين فترتين فالفترة الأولى التي إبتدأت في الصباح الباكر واستمرت حتى حدود الساعة العاشرة ففي هذه المرحلة كان الهجوم الجزائري شديد وعنيف حيث تمكن من السيطرة على المواقع الأمامية لتحصينات العدو وركز هجومه على جناحيه وخاصة ضد ميسرته، ولفترة من الوقت كان الوضع حرج للغاية بالنسبة للفرنسيين في الوقت الذي شعر فيه الجزائريون بكونهم على قاب قوسين من النصر ولقد بعث إبراهيم آغا ببشائر إلى العاصمة قبل أوان النصر. وأمام هذا الوضع الخطير الذي أصبحت عليه القوات الفرنسية قرر القائد العام دي بورمون أن يراهن الكل بالكل أما النصر وأما الهزيمة الساحقة. لقد أدرك أن مركز الثقل في الهجوم الجزائري يقع على ميسرة الجيش الفرنسي ومواقف الضعف فيه تكمن في الوسط والميمنة، ويعلم من جهة أخرى أن المهاجمين ليست لهم قوات في الاحتياط يستطيعون الرمي بها في أية نقطة حرجة عند الضرورة لقد أعطى أوامره لفرقتي بروتوزين ولو فيرد والمتواجدتين في الوسط وعلى يمين الجبهة الفرنسية بالقيام بهجوم مضاد وتطويره بحيث يصبح المعسكر الجزائري عند اسطاوالي هدفا له.

وبالفعل انبترت الجبهة في هذين القطاعين وأصبحت ميمنة الجيش الجزائري التي تمثل مركز الثقل في الهجوم مهددة بالتغليف والحصار مما أدى إلى إنفلات زمام الموقف من بين أيدي إبراهيم آغا. فعمت الفوضى واشتد الاضطراب وتحول الجيش إلى غوغاء وحشود مذعورة لاتقوى على شيء. لقد تقدم الفرنسيون نحو المعسكر الذي كانت تحميه بطاريتين

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

فقط . إستبسل المدفعيون الجزائريون في الدفاع عن المعسكر استبسالا شديدا في محاولة منهم لوقف تقدم العدو برغم كونهم محاطين من كل جانب ومع ذلك فإنهم لم يتزحزحوا قيد أنملة عن مواقعهم إلى أن استشهدوا عن آخرهم لقد تمكن الفرنسيون من السيطرة على المعسكر دون مقاومة . إذ لم يكن هناك أحد به للدفاع عنه فالمنهزمون كانت وجهتهم نحو مدينة الجزائر وليس نحو المعسكر.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ـ مصادر وبيبليوغرافيا مختصرة ـ

1 ـ المحفوظات Archives

تحتفظ مصلحة التاريخ لهيئة الأركان العامة للجيش الفرنسي بأرصدة غنية بالمعلومات عن الجزائر فالتي تخص معركة أسطاوالي نجدها في مجموعة لفائف وعلب 2 . H ـ 3 . H ـ 4 . H وفي المجموعة الفرعية 1 . H لفائف وعلب 5 . 1 H ـ 6 . 1 H ـ 7 . 1 H ـ 8 . H 1 ـ 9 . 1 H ـ 9 . 1 H ـ 10 . 1 H

2 ـ روايات جزائرية عن المعركة مرتبة حسب مكانة أصحابها ـ الحديث الذي أدلى به الداي حسين لمجلة Revue de Paris مجلد 30 عام 1831 .

ـ مذكرات أحمد باي . . . ترجمة وتقديم محمد العربي الزبيرى الجزائر 1973 .
ـ حمدان خوجة، المرآة ترجمة وتقديم د. محمد العربي الزبيرى الجزائر 1975 .
ـ مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار. تحقيق أحمد توفيق المدني الجزائر 1980 .

ـ روايات فرنسية مرتبة حسب مواقع أصحابها في سلسم المسؤولية أو قربهم من مركز القرار.

4 ـ بيبليوغرافيا :

– Bourmont (de), pièces officielles publiées par Bartillat, in. relation de la compagne d'Afrique en 1830, Paris, 1837.
– Desprez, journal d'un officier de l'Armée d'Afrique Paris, 1831.
– Berthezen, dix huit mois à Alger... Montpellier, 1834.
– Fernel, compagne d'Afrique en 1830. Paris, 1837.
– Pellissier de Raymand, les annales algériennes Paris, 2° Ed. 1854 T.I
– Azan p. L'expédition d'Alger. Paris, 1930.
– Esquer, les commencements d'un empire, la prise d'Alger (1830) Paris, 1929.
– Gautherot, la conquête d'Alger 1830. Paris 1929.
– Rousset c. la conquête d'Alger. Paris 1879.
– Rozet, relation de la guerre d'Afrique pendant les années 1830 – 1831. Paris, 1832.

الأستاذ حارش محمد الهادي

معاهدة تحالف وتجارة بين قرطاجة وماتساليا *

هذه المعاهدة التي يمكن أن تذكر من وجهة نظر البعض كنموذج للديبلوماسية في القديم. عثر على نصها منقوشا على حجر منشطر إلى شطرين يتطابقان تماما، أحدهما يشكل مستطيلا من 0,55 م طولا على 0,40 م عرضا بسمك 0,10 م، والآخر في شكل مثلث قاعدته 0,25 م بإرتفاع 0,35 م، وقد عثر على النص في مارسيليا في شهر جوان 1845 م، أثناء تحطيم إحدى الدور في المدينة القديمة، غير بعيدة عن كنيسة « ماجور » التي يقال أنها كانت معبدا ل « ديان » (1) ويعد نص هذه المعاهدة من أطول النقوش البونيقية التي وصلتنا أن لم نقل أطولها، يحتوي على 21 سطرا كاملا، بها أكثر من 1200 حرف يمكن أن يؤرخ بسنة 389 ق م، إعتمادا على ماورد فيه من إشارات (2).

وقد إعتبر الفرنسيون العثور على هذا النقش حدثا هاما، وأسرعوا إلى التوصية بنقله من متحف مارسيليا إلى متحف اللوفر. حتى يصان ويحفظ ويكون في متناول المختصين لدراسته، ورغم أن المعاهدة كما سنرى فيما بعد يمكن أن نقول أنها فرضت على ماتساليا (مارسيليا) التي تبدو من خلال بنود المعاهدة، أنها لم تكن تلك القوة التي يخشاها القرطاجيون، بل كانت طوع القرطاجيين (السطر الرابع مثلا من المعاهدة)، مع ذلك قلنا حظي هذا النقش بعناية كبيرة، حتى التوصية بنقله إلى متحف اللوفر ووضعه في إطار ذهبي، هذا عند الأمم التي تحترم نفسها باحترام تاريخها كيفما كان حتى يكون عبرة، أما عندنا نحن الذين نتنكر لمراحل بأكملها من تاريخنا، بل نتنكر للتاريخ بأكمله، وكأننا مقطوعين من شجرة، فحدث ولا حرج، فكم من نقش يسرق، وكم من نقش يحطم عبر أنحاء البلاد...

ـ كم من بناية ينقل حجرها يستخدم في البنايات الخاصة، وكم من معلم تاريخي أصبح ملكا خاصا ؟ ولا أحد يحرك ساكنا ؟

إذا استمر الحال هكذا، فنحن أمة محكوم علينا بالموت والفناء، ونحن نموت فعلا ببطء ان لم نسرع لتدارك الوضع فقد أصبحنا نتباهى بالآخرين، بل ونذوب في الآخرين وهي علامة الفناء. بعد هذا الاسترسال الذي دفعتني إليه معاناتنا كمؤرخين أو على الأقل كأناس يدرسون ويدرسون التاريخ أعود إلى ترجمة نص المعاهدة حتى يكون في متناول المهتمين بالدراسات البونيقية.

---

* ماتساليا : مارسيليا حاليا بفرنسا وبها عثر على النقش الذي يحمل نص المعاهدة.

1) ـ ديان : آلهة الصيد والطبيعة عند الرومان.

2) ـ حول هذا الموضوع أنظر :

Nicoly limbery ; de sporte, le traité de Marseille,
Inscription phenico : puinique trouvée à Marseille en 1845 contenant un traité
d'alliance et de commerce entre Marseille et Carthage, Alger (1846), PP. 12 – 14.

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

* **السطر الأول** : برغبة وإرادة شعب ومجلس الشيوخ لما تسالوم (1)، أعلن في حرم المعبد عن الظلم الذي ارتكبه الملك بعل ناصر (2) (Balhanasr)، ونتيجة لذلك نتداول، وهذه المعاهدة تنشر بهدف الاتباط بأواصر الصداقة مع الذين يعبدون « بيلوس » (3) (Belus) وتقديم القرابين لابن بعل للحصول على الفلاح.

* **السطر الثاني** : تم الاتفاق على أن تراعى الوصايا والالتزام بغسل الأيدي بدم إبن بعل ناصر (المدعو) علام هذا الوعد يتبع بيمين رسمي، اليمين الذي يؤكد فيه القرطاجيين (4) (carthadouth) الذين عاهدوا الماتساليين.

* **السطر الثالث** : وعندما يقدم هذا العهد وهذه المعاهدة يضبطان من جديد وأنتم (الماتساليين). لاتخافوا ولاتخشوا أن بقي أبديا بين أعينكم على هذا الحجر الذي ينظم الضرائب، الحقوق والاعتبارات التي يجب مراعاتها تجاه الرجال المتميزين من أمتنا، العدالة والأمانة والاستقامة التي رسخها الذي يطوفون حول العالم لكسب صداقة الأمم بحكمتهم.

* **السطر الرابع** : هكذا تتكون الضريبة من القمح الجيد الأصفر موضوع في أكياس كالذهب حتى يسهل لاحقا صبه في أومرس (5) (Omrs)، ثم عوض الذي تعطونه لنا نرسل لكم في نفس الأكياس قمحا قديما نتنا، الموجود في مخازننا لأعطائه للفقراء، هذا التبادل وهذا التعويض سيكونان مرضيان لكم بالتأكيد، وستكنون لنا تقديرا في أعماق قلوبكم.

* **السطر الخامس** : وكعلامة على صلاحية هذه المعاهدة، وختم صدقها وإخلاصها ووضعها موضوع التنفيذ تقام أبراج كبرى بمنارات تشعل أعلاه، هذه الأنوار تكون أكثر إرتفاعا في الليل، وحتى يمكن التمييز بين المدن الثانوية والعاصمة، لانشعل الأبراج ليلا، إلا في المدن التي توجد بها المخازن المستخدمة لتموين المخازن الكبرى في ماتساليا.

* **السطر السادس** : ألا يخزن الشعب وألا يجبر على جلب حبوب الضرائب للمخازن ولا إستخدام العنف إتجاه الذين عليهم القيام بالنقل، لكن ينقل بالعربات حتى تجرها الحيوانات، وحتى وسيلة النقل هذه تلتمس كخطوة إن دعت الضرورة، وحتى بالالتماس عندما يكون الذين كان عليهم القيام بها في السير، والا تطلب هذه الخدمة من الفقراء ولا إستخدام معوناتهم إلا في حالة إستعمالها بمزاياها، التي تحدد حسب عرف أجرة النقل بوضع شرط تقسيم الأيام المحددة بين الذين اختيروا، وتقسيم الأيام كلها بين الأشخاص المكلفين بالنقل دون أنهار سخرية نموهم ولا إحتقار.

---

1) ماتسالوم (Matsaloum) : نسبة إلى ماتسالا = ماساليا = مارسيليا (OUM) علامة الجمع.

2) بيلوس : في الأصل بعلها ناصر (هـ) تستخدم في الفينيقية كأداة تعريف.

3) Carthadouth : اسم مركب قرطا (cartha) = يساوي مدينة حدوث (Hadouth) حديثة.

4) من المكاييل عند العبرانيين.

5) من المكاييل عند العبرانيين.

* **السطر السابع** : هذه العناية تعلمكم ألا تدوسو الشعب تحت أقدامكم لأسباب تافهة الـذين يرفضـون بتهـور دفع الضرائب للدولة (1). أيام الأسد (2)، المشكلة من الذرة البيضـاء المغـربلة إذا مروا بعد هذا من الغضب إلى الفعل إتجاه الجباة عندئذ على هؤلاء التصرف معهم كأتبـاع يعكـرون النـظام العـام يعتـدون بأسرارهم على القوانين القائمة ويكشفون أنفسهم كأعداء للعامة وأن صار بعل ـ الناصر.

* **السـطر الثامن** : نلتزم بالاطاحة بالملك بعل ـ الناصر وأن نستعبده وأن نعطي لشعب (ماتساليا) كامل الحرية في إنتخاب رئيس مواطن غني ممتاز في أخلاقه، والذي يخضع لأوامر هدربعل (Hadr Bal) وبذلك ينتهي كل شيء.

* **السطر التاسع** : والذي سيعين محل بعل ـ الناصر يترأس ويتكلم الأول في المجلس هذا الأخـير هو مال ـ هانـار (Mal Hanar) يأخذ السلطة ويقدم بعدها بإسم مجلس الشيوخ والشعب مائة تور قربان لتموز.

* **السطر العاشر** : وبإتمام وإكمال هذه المعاهدة وهذا الحدث الجديد في السلطة، يقدم مال ـ هانار مائة أضحية تنظم بمرسوم خاص على شرف هذا النقش، لأننا أزلنا عنكم العديد من قرون الألم والشقاق الجائر من طرف سلالة برنوس (Bernous) وتجاره وضباطه.

* **السطر الحادي عشر** : هكذا تنتصرون على الطاغية والاستبداد وحتى لايتمكن أبدا من الأضرار بكم مستقبلا تحصنون عاصمتكم وتحجلونها منيعة بأسوارها العالية المبنية بالأحجار وهذا حتى ترد ثرات سكان الريف والهجومات الكبرى للغاليين.

* **السطر الثاني عشر** : هذه الأسوار تضعكم في مأمن وعقاراتكم الثمينة وزمردكم (3)، وكل ماتحبونه أكثر وتنقذون أيضا الكهنوت وتسترون ملككم وتدخلونه حرم معبد الصائبية (4) (Sabeisme) في الليل فقط، أخيرا تجدون ملجأ في كل الكوارث والمصائب التي يمكن أن تعرضكم وأن تكدر هدؤكم وتضر بعملياتكم التجارية والتي تمس مباشرة عملياتنا بموجب هذه المعاهدة.

* **السطر الثالث عشر** : وتشترون من حلفائكم كل الأشياء الهامة لأن هذا يعد القاعدة الأساسية لمعاهدة التحالف مثل الأدوات الضرورية للأشغال العمومية ألات الحرب، المواد الأولية التي تستخدم في السبك ونحت الماعون (5)، والأواني، أخيرا جمع العناصر الضرورية للفنون والعلوم والحرف.

* **السطر الرابع عشر** : وتسمحون لمسافري بلاد آرام (6) (Aram) بالسفر عندكم وهذا بإخلاص وصدق حسب الوعد وعدتمونا به أمام بعل لأنهم يظهرون الولاء لكم.

---

1) يقصد سكان ماتساليا الذين يرفضون دفع الضرائب.
2) أيام الأسد : هي أيام شهر يوليو (جويلية).
3) زمرد : حجر كريم.
4) الصائبية : عبادة الشمس والنار.
5) الماعون : كل ما انتفع به من الأدوات المنزلية.
6) آرام : ملاك سوريا عند العبرانيين.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

* **السـطر الخـامس عشر** : لأننا كرماء معكم، نقدر المعاهدة التي عقدناها معكم وحتى نحفظها ثابتة دون تغيير بأمركم ببناء قلعة وعرة في عاصمتكم على حسابنا وتكون تحت حيازتنا وفيها نضع قائدا من أمتنا هاهو هذا المعتمد يلتفت نحوهم (الماتساليين) قائلا : سأكون حاميكم ودعما لكم في مصائبكم والقلعة تربك من قريب ومن بعيد كبرياء بعل ـ الناصر هذه القلعة ترعب أعداءكم وأنتم تفرض عليكم بعض الاعتبارات والتحلي بالحذر.

* **السطر السادس عشر** : تكونون بشوشين ومتسامحين معهم (المسافرين)، عاملوا الخائفين من الموت والخطر واسهروا على المتألمين والمرضى، غذو الجائعين ووفروا لهم مايحتاجوه.

* **السطر السابع عشر** : ها هو المذبح تسمعون من الآن خوار المائة حيوان المعدة لتنحر كأضاحي وهذا تبعا لوصايا المرسوم حتى نتمكن من إعلانه للعالم دون خشية.

* **السطر الثامن عشر** : أكملوا إذن العهد، إرتموا ياإخوة يا أصدقاء برماحكم عليها (الثيران) قطعوا جلودها واجعلوا دماءها تسيل أمام الآلهة القوية نار قال وتانت (Nargalet et tanat).

* **السطر التاسع عشر** : الآلهة تؤيدكم لتأدية الأضحية الكبرى بعل ـ بيلوس المبتكر وملكوم (1) ينتظرونكم. الكهنة حاضرون ومستعدون.

* **السطر العشرين** : هكذا ساندوا بإخلاص لمدة مائة سنة حجر السماق الذي تركه لكم شعب قرطاجة.

* **السطر الواحد والعشرين** : وبالموافقة الاجتماعية لمجلس الشيوخ والارادة العامة للأباء والأمهات والاخوة تم عقد التحالف برضاء عام لمدة مائة سنة بإفتخار الجميع بكونهم حلفاء القرطاجيين.

انتهى النص.
محمد الهادي حارش.
الجزائر 1993/09/28.

---

1) ملكوم : MÖLOCHI

تاريخ الأداب المغاربية القديمة

نتعرض تحت هذا العنوان إلى دراسة الأداب الليبية القديمة الوثنية منها والمسيحية، وهذا ليس حبا أو حنينا لهذه أو تلك، بقدر ما يعود إلى محاولة التعريف بهذه الأداب التي كانت تحتل مكانة الصدارة في الأداب القديمة، ويكفي لأدراك ذلك أن نقول أن ضمن سادة الفكر المسيحي الستة نجد منهم خمسة مغاربة (1)، وهو مايقودنا فعلا لمحاولة إستجلاء ذلك، وإبراز مشاركة أسلافنا في بناء الفكر البشري، حتى لايترسخ في أذهان أبناء المنطقة السلبية التي يحاول الفكر الاستعماري ترسيخها في أذهاننا.

وسأتعرض في هذه الدراسة إلى ثلاثة من كبار المفكرين الوثنيين « فلوروس، فرونتينينوس، أبوليوس »، ولثلاثة من المفكرين المسيحيين، ترتوليانوس، القديس كبريانوس، والقديس أغسطينوس » وأبدأ بفلوروس باعتباره أقدم هؤلاء.

I ـ فلوروس. « 100 ـ 175 م »

1) ـ مولده ونشأته :

ينحدر فلورس (Annius Publius Florus) من عائلة ثرية، مما مكنه من تلقى تعليم متين في مسقط رأسه قرطاجة لينتقل بعدها إلى روما، حيث تقدم في الألعاب الكابتولية، لنيل جائزة الشعر، التي لم يسعفه الحظ لنيلها نتيجة تدخل الامبراطور دوميسيانوس رغم إستحقاقها، مما أثر على فلوروس الذي تألم كثيرا. فغادر روما متنقلا دون توقف، ودون العودة إلى أهله وفي هذا كتب يقول : « منذ هذا اليوم، الذي رأيت فيه الأوسمة تنزع من يدي والتاج من فوق رأسي، تزعزعت، كان هذا الحكم فاجعة لي، لقد هزني وسحقني لدرجة أنني نسيت حتى مسقط رأسي وأصلي وأعز أقاربي... وتشردت هناك وهناك عبر العالم » (2).

أثناء هذه الاسفار زار فلوروس بلدانا كثيرة، منها صقلية، كريت، جزر الكيكلاد، "Cyclades"، رودس و مصبات النيل. رجع بعدها إلى أوروبا متوجها نحو الغرب مرورا بإيطاليا. إجتاز جبال الألب وبقي بعض الوقت في غالة، ثم جبال البرانس، ودخل إلى إسبانيا التي بقي في مدينتها طراس "Tarace" مدة خمس سنوات (3).

والسؤال الهام الذي يتباد إلى أذهاننا هو : هل بقي فلوروس في مدينة « طراس » أو رجع إلى ذويه في إفريقيا، وإذا لم يكن قد بلغنا أي خبر مؤكد، فلن نفاجيء أن وجدناه في روما

1) – Gostynski (L.) ; Aux Sommets de la pensée Humaine ; La litterature Antique de l'Afrique du Nord, ed. Chatr (A.), (Marrakech.S.D.), P.7.
2) – Monceaux (p) Les Africains, ed. Lecence Oudinet et Cie, (paris 1894) ; pp. 193 – 195.
3) – Ibid ; pp. 195 – 196.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

بعد خمسة عشر أو عشرين سنة بعد ذلك، وقد حقق أحلامه في عهد الامبراطور هادريانوس، وأصبح من أشهر خطباء العاصمة في عهده، فحضي برضاه، وتبادلا كل شيء حتى المقاطع الغنائية (1).

كتب له فلوروس ذات مرة مازحا : « أنا لم أرد أن أكون قصيرا، أذهب في نزهة عند البيرتونين "Brétons" وأختبيء عند الجرمان وأعرض نفسي إلى صقيع سكيثيا »، أجابه الامبراطور بنفس اللهجة : « لم أرد أن أكون فلوروسا، أجول في الحانات أختبيء في المقاهي الباذخة، وأعرض نفسي إلى وخز الناموس » (2). هذه اللهجة المازحة تبين لنا المكانة التي إحتلها فلوروس في عهد هذا الامبراطور، وكانت على إثرها مؤلفاته شهرة كبيرة.

2) ـ مؤلفاته :

ضاعت تقريبا كل مؤلفات فلوروس الأدبية، ولم يبق لنا منها غير كتاب « مختصر حروب السبعمائة سنة حسب تيتوس ليفيوس
"Abrégé de l'Histoire des Guerres de sept cents ans d'après titus-livirus".
الذي يعد من أعظم مؤلفاته. كتبه بلا شك في عهد هادريانوس. وعالج فيه فترتين، الأولى الحروب الخارجية وهي التوسعات الرومانية منذ أصولها الأولى حتى إخضاع جميع الشعوب، بينما تعرض في الثانية للتاريخ الداخلي. أسباب الانحطاط بدء من الكراكيين حتى إصلاحات أغسطس (3).

وقد أراد فلورس في هذا الكتاب أن يصور روما وفق نظرية المراحل الأربع : الطفولة "Infantia" تحت حكم الملوك، والثانية المراهقة "Adulescentia" حتى غزو إيطاليا، والثالثة الكهولة "Inventus" حتى أواخر الجمهورية، والرابعة الشيخوخة "Senectus" منذ الحكم الثلاثي الثاني (4).

فالشعب الروماني لدى فلوروس شبيه بمحارب، نجده في غضون طفولته قد درب نفسه للصراع ضد جيرانه، وتمتد مراهقته حتى أواخر غزو إيطاليا، بينما يمتد نضجه حتى فترة السلم الروماني في عهد أغسطس وأخيرا تبدأ شيخوخته حينئذ (5).

فالكتاب إذن عبارة عن مدح أو إطراء للامبراطورية الرومانية وليس حقيقية، فهو إنجاز أدبي أكثر منه علمي وكان يسميه هو نفسه « مختصر تيتوس ـ ليفيوس » وقد إعتمد على سالوستيوس ويوليوس قيصر، و hygin وحتى لوكانوس (6) لاكمال محتوى الكتاب (6).

1) – Monceaux (p). op. cit ; p. 197.
2) – Spartianus (Aclus) ; Hadiani 16. dans Histoire Auguste, trod. M. Nisard, ed. Didot (paris 1855).
3) – Monceaux (p) ; op. cit ; pp. 198 – 199.
4) – André (Jean–Marie) et Hus (Alain) ; l'Histoire à Rome, ed.P.U.F ; (paris 1974) ; p.156.
5) – Humbert (Jules) ; histoire illustrée de la litterature-latine ; ed.H.Didier et E.Privot (paris-toulouse 1932) ; p.338.
6) – Gostynski ; op. cit ; p. 15.

قلنا إذن أن الكتاب عبارة عن مدح وطار للامبراطورية الرومانية أكثر منه قصة حقيقية وفي هذا يقول القديس أغسطينوس (1) : « إن فلوروس إعتنى بمدح الامبراطورية الرومانية أكثر من عنايته برواية حروب الرومان ».

لكن مع ذلك إستطاع فلوروس بفضل مزاياه ومقدرته الأدبية أن يعطي حيوية لرواية الأحداث، وظل هذا الكتاب متداولا في العالم الروماني، يرددها الكتاب أمثال بلوتارخوس، ومن بعده أوروسيوس وجوردانوس. وتواصلت قراءته حتى في العصور الوسطى، وبل نقول أن مونتسكيو كان من المعجبين بكتابات فلوروس (2).

لم يهتم فلوروس بأتباع النظام الكرونولوجي بدقة. إعتمد على جمع حوادث الحملات العديدة المتتالية لتوضيح أكثر مدى تقدم الجيوش الرومانية في نفس الاتجاه، مع إهمال الهزائم والتركيز على الانتصارات، وتأخير قدر الامكان رواية الحروب الأهلية لأنها تعد في نظره ظل قبيح تشوه اللوحة الجميلة يبين لنا أن الصراعات الأخوية كانت نتيجة حتمية لداء يعاني منه جسم سليم وقوي، لكن به يعود الانتصار في النهاية (3).

وقد غلب على رواية فلوروس طابع التشخيص، نجد على سبيل المثال : « تتوقف للاستراحة » بعد الحرب البونية الأولى، « تخرج من قبرها » عندما يندثر نشاط حنبعل في كمبانيا، تشاهد من أعالي الجبال مهرجان حرب الكمرية « تضمد جرحها » بعد الحرب الأهلية (4).

أضف إلى ذلك أنه يمكن إعتبار موجزه كمحاولة غريبة لفلسفة التاريخ، فهذا الانشغال الفلسفي لتطور الشعب الروماني، دفعه إلى عرض على التوالي أسباب العظمة والانحطاط في جميع الأوقات الحاسمة وفي كل صفحات الكتاب يظهر قلقا لفهم وتسجيل تعاقب الأحداث، مع الاهتمام بربط الماضي بالحاضر وبالمستقبل (5). مثلا يرسم لنا في بضعة صفحات مختلف مراحل الخصومات القرنية بين العوام والنبلاء، ودور الكراكيين وممثلي العوام الآخرين من ذوي الشهرة، التفاوت بين البؤس في الداخل والعظمة في الخارج خلال العصر الأخير للجمهورية، الأسباب المتعددة لأختلال النظام الاجتماعي والحروب الأهلية (6).

التفاوت المحتوم وسرعة الانهيار قد سجلت بخطوط واضحة : خصومات الفوروم، لتصل إلى الفتن، ثم إلى الحروب ضد الحلفاء، ضد العبيد، ضد المصارعين، أخيرا إلى الحروب بين المواطنين، أكثر عنفا في كل مرة، حتى المعاناة من الحكم الثلاثي تؤدي إلى الديكتاتورية، « مع قيصر وبوبيوس » هذا الجنون إستولى على الكل، على روما، على

1) – Saint-Augustin : De Cuvitate Dei (2 vol)///19, trod.p.Labriolle J.Perret : ed classique Garnier, (paris 1946).
2) – Monceaux (p) ; op. cit ; p. 199.
3) – Monceaux (p) ; op. cit ; p. 201.
4) – Florus A ; Abrégé de l'Histoire Romaine, I.19.I.22.I.38.II.11.I.38. trod.E Ragon, ed. Panckouke, (paris 1843).
5) – Monceaux (p) ; op. cit ; p. 203.
6) – Florus A ; II. 1–3.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

إيطاليا، على كل الشعوب والأمم الأخرى التابعة للامبراطورية بأكملها، دمرت كل شيء كالطوفان أو الحريق. لم تعتبر فقط حرب أهلية، ولا حرب إجتماعية ولا حرب خارجية : بل هي حرب تجمع كل هذه الصفات، هي شيء أكثر من الحرب (1).

وقد نلاحظ أن فلوروس إعتنى كثيرا بالخطابات، وهو مايعطى للرواية أكثر عجلة، لم يتوقف عند تفاصيل الأحداث ولم يهتم إلا بالخطوط العريضة.

إذاكان يضع صورة شخص أو شعب، في بضعة كلمات مؤثرة مثال ذلك :

كما يبرز أيضا في وصفه للأحداث الرئيسية للحملات الكبرى، حرب بيروس وحملة حنبعل على إيطاليا أو سكيبيو على إفريقيا، غزو ميثريدات لبلاد الأغريق، فتح إسبانيا أو بلاد غالة، الحرب بين قيصر وبومبيوس (3).

3) ـ أسلوبه :

إذاكان فلوروس من حيث الموضوع مدين لتيتوس ليفيوس، فإنه مدين للمدرسة الحديثة من أمثال سالوستيوس، Senéque لوكانوس وتاكيتوس وله نفس الامتيازات الأدبية كأفارقة الأجيال اللاحقة.

إن الصيغ البليغة لم تكن نادرة، لكن عموما الجملة كانت قصيرة، مزخرفة مقطوعة، ذات عدة مظاهر، تكثر البطاق المبتكر التفاصيل. والعبارات الشعرية.

يقول فلوروس في هذا الصدد : « الحرب تبحر نحو إفريقيا، وتكتب بدمها، أن الرومان المنتصرون في نومانس، وجدوا المدينة مدمرة بكاملها، لهذا لم ينتصروا إلا بالاسم فقط، بحرق القرطاجيين كل ماعندهم، كانوا قد حرقوا غنائم روما، عندما يأمر مجلس الشيوخ الاسبان بالكف عن القتال، يستقبل هؤلاء هذا التكليف بمثابة أمر شبيه بأمر خاص بقطع الأيدي.

كثيرا ماكان فلوروس في نثره بمثابة شاعر : يسمى صقلية « ضحية روما »، يظهر حنبعل « مرتبط بأرض إيطاليا » أو ميثراديت تنقض على « جناح الامبراطورية المجرد من السلاح »، قيصر المغمور بالشرف هو جريمة « مرينة للموت »، رماد أموات قرطاجة وكزرنثة « المشتة بواسطة الرياح، تضرم الحريم وتشعل الحرب في العالم بأكمله » (4).

هذا اللون الأدبي محسوس في المقارنات، التي تكثر عند فلوروس وغالبا ماتكون موفقة، إذ نجده خاصة يقول على سبيل المثال : « توقف الغزو الروماني بعض الوقت في سيره إلى الأمام، بسبب مضيق مسينا »، مثله مثل الحريق الذي خرب الغابات في طريقه، ويتوقف فجأة بإصطدامه بنهر، « إن قرطاجة النصف المدمرة تكون لروما عقبة أكثر من أي وقت مضى، مثل هذه الحيوانات التي تكون قد لدغتها أكثر عنفا حين تموت »، إن غاليو بعد الألب لايقاومون في الصدمة الأولى « يذوبون شيئا فشيئا كذوبان ثلوج جبالهم »، وغاليو

1) – Florus A.II,13.
2) – Florus A,II,9.
3) – Monceaux (P) ; op. cit ; PP 206–207.
4) – Florus A ; I ; 18 ; 34 ; 31 ; 22 ; 40.

آسيا الصغرى إسترخوا « مثلهم مثل الناتات التي فسدت بتغير التربة » كان القرصان « بمثابة القازبين الذين يكون بومبيوس قد نبض على جماعة منهم معا »، يطرد قيصر "Helvetes" إلى بلادهم « كالراعي الذي يدخل قطيعه إلى المربط » (1).

لم يكن فلوروس مؤرخا بقدر ما كان خطيبا وفيلسوفا، وشكليا أستاذ البلاغة، فهو بحق شاعر أنيق العبارة. يبحث عن الصور والصبغ الشعرية والطباق والأفاريز والألوان مثلما يفعل في المسلك الخطابي، بالانفعال وفجائية التأمل. هنا يشبه فلوروس بمواطنيه ماينليوس يحضر السبيل للخطباء الأفارقة الكبار ويعلمهم في بعض الأحيان تفاصيل مفردات اللغة والنحو، وإن كان يقع عادة في كلام مفخم، التكلف وسوء الذوق، التي تعد من النقائص في النثر الافريقي (2).

مما يجعل أسلوب فلوروس، أسلوب متصنع، كثير المقارنات والصور، لكن مع ذلك يبقى من رواد الأدب المغاربي القديم.

---

1) – Florus A ; I ; 20 ; I ; 18 ; I ; 31 ; I ; 27 ; I ; 41 ; I ; 45.
2) – Monceaux (p) ; op. cit ; p. 209.
3) – Humbert (J) ; op. cit ; p. 338.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ـ الأوضاع الاقتصادية في الأمارة الزيانية ـ

أسس يغمراسن بن زيان (1) الأمارة الزيانية بالمغرب، سنة 633 هـ/1236 م. وأصبحت تلمسان عاصمة لها مدة ثلاثة قرون.

وقد تعرض الزيانيون خلال هذه الفترة لهجومات عديدة من جيرانهم الحفصيين شرقا وبني مرين غربا، أثرت على إستقرارهم السياسي، لهذا إختلفت حدود بلادهم حسب ضعف أو قوة الأمراء : فوصلت شرقا عند أوج قوتها إلى جبل الزان (جبل أكفادو) (2) واستقرت عند الوادي الكبير (وداي الصومام) (3) وامتدت جنوبا إلى الصحراء (4)، وهي المفازة الصحراوية التي تفصل بلاد المغرب عن السودان (5)، أما غربا فقد إستقرت بوادي ملوية ووادي زا (Za) (6).

وقد أسست مدينة تلمسان فوق المنحدر الشمالي من جبل الصخرتين (7) عند تقاطع خط طول ثلاث درجات وثمانية عشر دقيقة غرب خط باريس، ودرجة عرض أربع وثلاثين درجة وثلاث وخمسين دقيقة شمال خط الاستواء (8)، ويبلغ إرتفاع المدينة 827 مترا فوق مستوى سطح البحر (9).

وجبل الصخرتين يسمى اليوم جبل تلمسان، وهو جزء من سلاسل متوازية، تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، على شكل مدرجات تبدأ بقمة لالاستي بجبل الصخرتين، التي يصل إرتفاعها إلى 1206 مترات، وبعدها جبل رأس عصفور الذي يشرف على سهل وجدة في أقصى الغرب، علوه 1556 مترا، ثم جبل بني سميد، ويسميه السكان حجر الروم بسبدو وأخيرا جبل تنوشفي وتصل قمته إلى 1842 مترا (10).

وتتواصل هذه السلسلة في إتجاه الشمال الشرقي، بجبال تسالا التي تسيطر على سهل سيدي بلعباس، ويقدر إرتفاعها بحوالي 1061 مترا وإلى الجنوب منها جبال الضاية التي تبلغ 1417 مترا، وإلى الشرق جبال سعيدة وعلوها 1288 مترا، وجبال فرندة وتصل إلى 1132 مترا.

ثم تظهر سلسلة الأطلس الساحلية وأهم مرتفعاتها : جبال الونشريس وترتفع إلى 1985 مترا، ومرتفعات الظهرة (1071 مترا) وجبال زكار (1579 مترا) والأطلس المتيجي (1972 مترا). وتتميز هذه المرتفعات بشدة التوائها وتظهر أحيانا على شكل سفاط (11) شيستية : وهي عبارة عن صخور جيرية مسامية، من مخلفات العصر الجوراسي (12) والكريتاسي، تسمح بتسرب المياه التي تتجمع فوق طبقة طينية تجعل كتلة تلمسان تتربع على خزان ماء يوفر حاجة المنطقة طيلة فصل الجفاف (13).

وتنتشر السهول في الأمارة الزيانية، وهي على نوعين : سهول داخلية وتتمثل في سهل تلمسان الذي يقع على إرتفاع 737 مترا فوق مستوى سطح البحر ويتكون من تربة مارينية خصبة (14)، وإلى الشرق منه يمتد سهل سيدي بلعباس، وهو أكثر إنخفاضا من السهل الأول (حوالي 583 مترا) وكان يسمى تسالا (15)، ثم سهل معسكر وتيارت والسرسو (16).

وتتمثل هذه السهول التواءات مقعرة، ملأتها الرواسب الفيضية القارية في الزمن الجيولوجي الرابع، وتنحصر بين سلاسل جبلية تمتد من الغرب إلى الشرق فأخذت هي أيضا

هذا الاتجاه. ونتيجة للترسبات أصبح إرتفاعها لايقل عن 500 مترا، ولهذا فهي أقرب إلى النجود منها إلى المنخفضات (17).

وبفضل هذا الموقع المرتفع تواجه مدينة تلمسان البحر الأبيض المتوسط عبر فتحة وادي تافنة، فتفصلها عن البحر مسافة تقدر بخمسين كيلو مترا على خط مستقيم (18).

وإلى جانب السهول الداخلية، توجد بلامارة الزيانية سهول ساحلية، أهمها : سهول وجدة الذي تحده من الغرب هضبة أنجاد. وإلى الشمال الشرقي : سهل هنين، وندرومة وتنس ومتيجة، وتتكون من تربة فيضية، ولهذا فيه خصبة (19).

وإلى الجنوب من كتلة تلمسان يمتد إقليم النجود المنحصر بين سلسلة الأطلس التلي والصحراوي، وقد تكون في الزمن الجيولوجي الأول ويبلغ متوسط إرتفاع النجود تسعمائة متر، وبذلك فهو يكون هضبة واسعة تتخللها إنكسارات حدثت في الزمن الجيولوجي الثالث، وتنتشر بها بعض الشطوط، وهذه المناطق أقل خصوبة من السهول الساحلية، وهذا يعود إلى فقر التربة والمناخ الجاف (20).

ويحد إقليم النجود، سلسلة الأطلس الصحراوي من فجيج غربا إلى إقليم الزاب شرقا، وقد التوت في آخر الزمن الجيولوجي الثاني وبداية الزمن الثالث. وتتخلل هذه السلسلة، ممرات، فتحتها الأودية المنحدرة نحو الصحراء، فكانت هذه الدروب ومازالت تمثل طرقا طبيعية تتبعها القوافل التجارية من الشمال إلى الصحراء والعكس (12).

وتتعرض منطقة تلمسان لهبوب رياح شمالية وغربية وغربية - جنوبية، رطبة، تأتي من مناطق الضغط المرتفع الأزوري فوق المحيط الأطلسي، فتصطدم بسلسلة الأطلس التلي العالية، مما يؤدي إلى إرتفاعها، فتضعف قدرتها على حمل بخار الماء الذي يزداد كثافة نتيجة إنخفاض درجة الحرارة، فتسقط الأمطار بغزارة على الواجهات الساحلية (22). وهكذا تتلقى تلمسان حوالي 650 مليمتر، في المتوسط، من المطر سنويا (23).

أما الرياح الجنوبية، فيه جافة لأنها قارية، تأثراتها ضعيفة لأنها تصطدم بمرتفعات الأطلس الصحراوي ثم الأطلس التلي.

وتتميز المنطقة بفصلين متباينين : فصل شتاء ممطر ودافىء، تتخلله فترات من الصحو والصفاء. وفصل صيف جاف وحار (24) لأن رياح السيروكو الحارة والجافة والقارية، تترسب من الممرات التي توجد بين جبال السلسلة الأطلسية الصحراوية.

والمدى الحراري السنوي ليس كبيرا رغم انخفاض درجة الحرارة في شهر جانفي وسقوط كميات من الثلوج فوق قمم المرتفعات التلية (25).

ونتيجة لهذه الظروف التضاريسية والمناخية تمت الغابات الكثيفة فوق المنحدرات الشمالية واستقر الانسان بهذه المنطقة منذ القديم وأنشأ المدن التي عرفت إزدهارا حضاريا كبيرا مثل تلمسان.

هذه الظروف الطبيعية، بتضاريسها ومناخها جعلت إمارة تلمسان منطقة فلاحية يتنوع فيها الانتاج حسب نوعية التربة وكمية الأمطار. ومنه :

1) - الحبوب : وتتمثل في القمح والشعير والذرة والأرز والقمح أكثرها إنتشارا لأنه ينمو في

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

التربة المتماسكة وشمال خط المطر المتساوي 300 مليمترا، ويتركز الانتاج حول مدينة تلمسان في سهل تسالا الذي يوفر تقريبا حاجة سكان المدينة (26) وكذلك في سهل البالبطحاء (27)، وسهل تنس (28) ومتيجة (29).

ويفيض إنتاج القمح عن حاجة السكان، فتصدر بعض الكميات ويخزن البعض الآخر، حتى أن أبا حمو موسى الثاني كان يرسل إلى ملك غرناطة مساعدات تحتوي على كميات كبيرة من القمح، ففي سنة 763 هـ/1361 م أرسل خمسين ألف قدح من الزرع (30).

ويزرع الشعير والذرة في السهول الداخلية والمنحدرات السفلى وهوامش الصحراء، التي تتلقى 250 مم من المطر سنويا خاصة في سهل إيسلي (31)، وتزرع الحنطة حول أرزيو وتنس (32).

ب) - إلى جانب الحبوب، تنتشر في السهول والمرتفعات، أشجار الفاكهة مثل الكروم في وجدة (33) والكرز والمشمش و الزيتون واللوز والجوز (34) والخروب في عدة جهات من الامارة (35).

ويهتم سكان المدن بزراعة الخضر التي تعتمد على الري، فقد ذكر إبن خلدون أثناء حديثه عن حصار تلمسان الطويل (من 698/1299 م إلى 706 هـ/1307 م) بعضها مثل : الفول، الرنب، الخسر، اللفت، القثاء، الفقوى، الخيار والبطيخ (36).

كما إعتنى المزارعون في ندرومة بالقطن وفي برشك بالكتان وكانت هذه المواد تستغل في الصناعة، وتصدر الكميات منها (37).

كما تحتل تربية الحيوانات جزءا هاما من النشاط الفلاحي، لأن المكونات التضارسية التي تتمثل في ضعف التربة فوق المرتفعات الملتوية، وقلة الأمطار على هوامش الصحراء لاتسمح بزراعة وفير، فعوضتها تربية الحيوانات وأهمها :

- الأغنام التي تنتشر في الهضاب العليا جنوب تلمسان، وهي تغذي الحرفيين بالعاصمة الزيانية، بكميات كبيرة من الصوف (38).

وتربى الأبقار في السفوح الشمالية للأطلس الصحراوي (39)، وكانت تغذي صناعة الجلود بالمدن.

وتنتشر في السهول والهضاب العليا تربية البغال للركوب والترحال (40) والخيل للحروب (41). وتعتبر الأبل من « مكاسب أهل النجعة ».

ويمارس سكان الأرياف تربية النحل، في ندرومة، وتبكريت وتنس (42).

وقد إنتشرت في مدن الامارة حرف كثيرة كانت تعتمد على تصنيع الانتاج الزراعي والحيواني وبعض مايستخرج من باطن الأرض. وقد إشتغل بها عدد كبير من السكان، وكان الانتاج يفيض عن الحاجة في بعض الأحيان، فيصدر إنتاجها إلى البلدان المجاورة المغربية والافريقية والأوروبية، ومن أهم هذه الصناعات :

1) - صناعة النسيج : وتعتمد على الصوف بالدرجة الأولى ضمنها تصنع الأقمشة (43)، والأغطية التي يطلق عليها إسم « الحنبل » والزرابي (44)، والأكسية أو البرانيس التي وصلت إلى درجة عالية من الجودة في مدينة تلمسان، حيث كان الصناع « يتغايون في عمل أثوابه الرقاق فتلقى الكساء أو البرنس (45) عندهم من ثمان أوراق والأحرام من خمس . . . » (46).

وتصنع الأقمشة القطنية بتلمسان وندرمة وهنين التي تنتج كميات كبيرة من القطن. وتتوجه كميات منه إلى هنين حيث يشتغل أغلب سكانها بنسيجه (47). وبمستغانم وبرشك وملیانة وتدلس وعباد، تصنع الأقمشة الكتنية زيادة على الصوفية (48).

وفي شرشال تتركز صناعة الحرير التي جلبها بعض الحرفيين من غرناطة (49) ومن هذه الأقمشة تصنع الألبسة وتطرز بمدينة تلمسن (50). وتتطلب صناعة المنسوجات الصباغة التي كانت متطورة في العباد (51) وتدلس (52)، بحيث تشغل جل اليد العاملة في المدينتين.

ولقد عثر على أفران قرب تلمسان كانت تستعمل لصناعة الخزف (53).

وبفضل إنتشار مناجم الحديد قرب تفسرة (54)، إشتغل سكانها بالحدادة وكانوا يذهبون بإنتاجهم إلى العاصمة الزيانية (55)، وهناك يستغله المتخصصون في صنع الأسلحة من رماح ودروع (56) ومختلف الآلات التي تحتاج إلى الحديد.

وتطورت بتلمسان، صناعة معدات ركوب الخيل، خاصة منها السروج، فتفنن الحرفيون في أشكالها وتجميلها (57).

ولعل وصف المؤرخين للشجرة الميكانيكية التي كانت بقصر أبي تاشفين الأول (58)، وخزانة المنجانة بقصر أبي حمو موسى الثاني (59)، دليل على إزدهار الصناعات، فالتحفتان تتطلبان إطلاعا كبيرا على أمور الميكانيكا الدقيقة، وفنية عالية، ويد عاملة ماهرة، فتكون التحفتان قمة ما وصل إليه فن الصناعة بتلمسان وقتذالك.

كما ضرب ملوك بني زيان السكة بأسمائهم، وجلبوا لذلك أسرة بني الملاح من قرطبة (60) وكانت العملة تصنع من الذهب والفضة والنحاس (61).

وتطور فن البناء، وواكبه فن النقش على الخشب، واعتنى الأمراء الزيانيون بإنشاء القصور والدور « وتشييد المصانع . . . . مستظهرين بآلاف عديدة من فعلة أسرى الروم بين نجارين وبنائين وزليجين وزواقين. . . . » (62) وحسب إبن خلدون، فإن إعتماد الزيانيين على الأندلس يعود سببه إلى بداوتهم (63).

وعندما إستقر أبو الحسن بالمنصورة وحكم أبو عنان تلمسان فقد جلب الاثنان عددا من المهرة في مجال البناء، وماتتطلبه القصور والمساجد من حرف مكملة كالنجارة ونقش النحاس والرخام وصناعة الزجاج (64).

وهكذا تكون الامارة الزيانية التي استمرت حوالى ثلاثة قرون، قد عرفت نشاطات إقتصادية مختلفة فكانت مكتفية في مجال الانتاج الفلاحي وفي بعض الأحيان فاضى إنتاج بعض المواد كالقمح عن حاجة سكانها حتى أن الزيانيين كانوا يصدرونه.

كما عرفت تطورا في مجال صناعة الحرف شهدت له بعض الألات الميكانيكية التي تحدث عنها بعض المؤرخيين.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

1) - هو أبي يحي يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد، ولد سنة 603 هـ أو 605 هـ (1206 م أو 1208 م) تولى إمارة تلمسان يوم الأحد 24 ذي القعدة 633 هـ/31 جويلية 1236 م، (العبر، 7، 162، بيروت، بغية الرواد، 1، 204) غير أن التنسي يقول أن أبا يحي بويع في 17 جمادى الأخيرة سنة 637 هـ (1240 - 1241 م)، نظم الدر والعقبان ص. 154).

2) – Leon l'Africain : Description de l'Afrique, Nell édition, traduite de l'Italien par A. Epaulard, Paris, 1956, T.2, P. 323, Note 2.

3) – Ibid.

4) – Ibid.

5) - القلقشندي (أبو العبال أحمد بن علي)، صبع الاعشى في صناعة الانشاء، القاهرة، 1333 هـ/1915 م، جزء 5، ص 149.

6) – Leon l'Africain : op. cit.

وكانت هذه الحدود في عهد إبن خلدون تصل إلى بلاد تاوريرت (العبر، 7، ص 454)، وتاوريرت مدينة قديمة، أنشئت فوق هضبة مرتفعة قرب وادي زا وتحيط بها أراضي زراعية خصبة أنظر :

Leon l'Africain : op. cit. T.I, P. 297.

7) - أنظر : حليمي عبد القادر، جغرافية، الجزائر، دمشق، 1968، ص 40.

8) - يحدد بعض الجغرافيين موقع تلمسان الفلكي كالتالي : « . . . حيث الطول أربع درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وإثنتا عشر دقيقة. . . » (القلقشندي، المصدر السابق، ص 150). ويبدو أن هذا التحديد تقريبي لأن صاحبه لم يذكر الطول بالنسبة لأي خط ولا الاتجاه، إذا كان شرقا أم غربا، وتلمسان لايمكن أن تكون على خط طول أربعة عشر درجة وأربع دقائق لاشرقا ولاغربا، لأن الجزائر بامتدادها الحالي تنحصر بين ثماني درجات وثلاثين دقيقة شرقا بالنسبة لخط غرينيتش ودرجتين وعشرين دقيقة غرب هذا الخط (أنظر : حليمي، المرجع السابق، ص 17).

9) – Marçais (George) : Encyclopedie de l'Islam, Article Tlemcen, P. 848, Piesse et Canal : Tlemcen : Extrait de la revue : L'Afrique française), Paris 1889, P 65.

10) – Bel (Alfred) : Tlemcen et ses environs, Toulouse, P. 1 ; Marçais (G) : op. cit ; piesse et canal : op. cit ; P. 93.

ونلاحظ إختلافا في تحديد المرتفعات لكنه بسيط لايتعدى بعض الأمتار وفي هذا البحث نأخذ بعين الاعتبار أحدث المؤلفات الجغرافية.

11) - أنظر : حليمي، المرجع السابق.

12) – Marçais : op. cit.

13) – op. cit. Bel, op. cit. P. 2.

14) – Leon l'Africain : op. cit. T. 2. P. 326.

وكذلك حليمي : المرجع السابق، ص 39.

15) – Leon l'Africain : op. cit. P. 337.

16) – René Gallissot : l'Economie de l'Afrique du Nord, Paris, 1969. P. 16.

17) ـ أنظر : حليمي، المرجع السابق، ص 39ـ 40 .

18) – Marçais (G) : op. cit. P. 843.

حليمي، المرجع السابق، ص 38 .

19) – Leon l'Africain : op. cit. T. II. P. 328 SQ

20) – Leon l'Africain : op. cit. P. 325.

21) ـ أنظر : حليمي، المرجع السابق، ص 46ـ45 .

22) ـ أنظر : حليمي، المرجع السابق، ص 1، 72 .

23) – Marçais (G) : E.I. Tlemcen ; P. 844.

24) ـ أنظر : حليمي، المرجع السابق، ص 79.

25) – Bel (Alfred) : Tlemcen ; P.5.

26) – Leon l'Africain : op. cit ; P. 337.

27) – Ibid : P. 339.

28) – Ibid : P. 346.

29) – Ibid : P. 348.

30) ـ إبن خلدون (أبو زكرياء يحي بن أبي بكر بن محمد بن الحسن بن خلدون) كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الثاني، تحقيق Bell (Alfred) ، الجزائر 1910، ص 114 .

31) – Leon l'Africain : op. cit ; P. 327.

32) ـ الأدريسي (أبـو عبـد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموى الحسني المسمى الشريف الأدريسي) : هنري بريسط . الجزائر، 1957، ص 57 ـ 71 .

33) – Leon l'Africain : op. cit.

34) ـ البيكري (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر أبو عبيد) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (وهو جزء من المسالك والممالك)، نشره دوسلان، الجزائر، 1957، ص 76 .

35) – Leon l'Africain : op. cit. P. 330.

36) ـ العبر، 7، ص 198 .

37) – Dufourcq (ch. Emmanuel) : L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIII rt XIV siècles (de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avenement du sultan merinide abou (Hassan 1331), Paris, 1966. P. 545.)

38) – Ibid.

39) ـ الادريسي : المصدر السابق، ص 54 و 55 .

40) ـ العبر، 6، ص 175 و 176 .

Leon l'Africain : op. cit. T. II ; P. 328.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

41) – Dhina (Atallah) : Les Etats de l'occident musulman aux XII et XIII siècles, Institutions Gouvernementales et Administratives, Alger, 1984. P 343.

42) – Leon l'Africain : op. cit. P. 328.

43) – Fey (Henri léon) : Histoire d'Oran, avant, pendant et après la domination Espagnole, Oran, 1858. P. 50.

44) – Marçais (G) : Tlemcen, P. 93.

45) – Marçais : يورد وصفا لنوع من البرانس كانت تصنع في تلمسان وهي منسوجة بطريقة خاصة بحيث تمنع خيوط الصوف الطويلة مثل الفراء من تبللها عند نزول المطر وإذا جعل الانسان هذه الخيوط من الداخل فيه تحميه من البرد (نفسه) .

46) ـ بغية الرواد ج 1 ، ص 92 مول حياكة الصوف (أنظر : -

Bel (A) Ricard (p) : Le Travail de la laine à Tlemcen, Ancienne capitale.... ; P. 205.

47) – Marçais (G) ; Honain, P. 341 ; Leon l'Africain : op. cit. P. 328.

48) – Leon l'Africain : op. cit. P. 328.

49) – : op. cit. P. 345.

50) – Marçais (G) : op. cit. P. 93.

51) – Leon l'Africain : op. cit ; P. 327.

52) – : op. cit ; P. 352.

53) – Marçais (G) : op. cit ; P.P. 16 et 93.

54) – Leon l'Africain : op. cit, T.2.P. 337.

55) – Ibid.

56) – Fey : op. cit. P. 50. بغية الرواد، ج 2، ص 161 .

57) ـ نفسه وانظر حول هذا الموضوع :

Marçais (G) : op. cit. P. 39.

58) ـ ذكر عبد الحميد حاجيات وصف الشجرة، أبو حمو، ص 60ـ61 .

59) ـ بغية الرواد، ج 2، ص 40ـ41، والمنجانة مثل الشجرة لم يعثر عليها .

60) ـ العبر، 7، ص 217، بغية الرواد، ص 213 .

61) – Leon l'Africain : op. cit ; P. 336.

62) ـ بغية الرواد، 1، ص 216 .

63) ـ العبر، 7، ص 217 .

64) ـ ينقل حاجيات في مؤلفه : أبو حمو موسى الثاني، وصف إبن مرزوق للمسجد الذي بناه أبو الحسن المريني فيقول : « وأما الثريا فكان عملها على يدي . . . . »، ص 63 .

د/ علال الخديمي
كلية الآداب ـ الرباط

الموقف الألماني من التدخل الفرنسي بالشاوية (1907 ـ 1908)

منذ 1905، حاول الفرنسيون فرض حمايتهم على المغرب. لكن المغاربة، بمساندة قوية من ألمانيا، أفشلوا مخطط سان روني طياندي (S.R. Taillandier)، وزير فرنسا بطنجة، ودعوا إلى عقد مؤتمر دولي، لينظر في مسألة التنظيمات التي يجب إدخالها للبلاد بضمانة دولية (1).

بيد أن ميثاق الجزيرة الخضراء، الذي دعا إلى إحترام إستقلال المغرب وسيادته، دعا المغاربة ـ في الوقت نفسه إلى التعاون مع فرنسا وإسبانيا، أي مع الدولتين الطامعتين في إحتلال المغرب، ولذلك إعتبر المغاربة عقد الجزيرة، شروطا فرضتها المصالح الاستعمارية، وصمموا على مقاومتها.

وعلى الرغم من خيبة أمل المغرب في ألمانيا، التي قبلت الميثاق، فقد بذلت الدولتان بعض الجهود للحفاظ على الصداقة الألمانية المغربية. وكان من المنتظر أن يجد المخزن الحكومة الألمانية بجانبه، لمقاومة كل ضغط فرنسي مسلح.

غير أن الذي حدث، هو أن المغرب وجد نفسه وحيدا في الميدان لمواجهة التدخل العسكري الفرنسي في الشاوية صيف 1907.

وسنحاول في هذا العرض أن نتعرف على المواقف الألمانية، الرسمية والشعبية، بما فيها موقف الجالية الألمانية بالمغرب، تجاه أحداث قنبلة الدار البيضاء، وإحتلال الشاوية. وسنبدأ بالتعرف على تطور العلاقات الألمانية المغربية.

توطيد العلاقات الألمانية المغربية : 1873 ـ 1905.

بدأت ألمانيا تولي إهتمامات خاصة بالمغرب، لما تزايدت المبادلات بين الطرفين، على المستوى التجاري والعسكري منذ عهد السلطان مولاي الحسن 1873/1894 (2).

وقد نشطت علاقة ألمانيا بالمغرب، في إطار السياسة العالمية الجديدة، التي دشنها غليوم الثاني، وكان الهدف منها حصول ألمانيا على نصيبها من الممتلكات والنفوذ في الدول التي لم تستعمر بعد مثل الصين والمغرب والامبراطورية العثمانية وجنوب إفريقيا (3).

---

(1) عن مشروع « الاصلاحات » الذي حاولت فرنسا فرضه على المخزن سنة 1905، والنتائج التي أسفرت عنها محادثات المخزن ومجلس الأعيان مع السفير الفرنسي، تنظر دراستنا : مجلس الأعيان ومشروع الاصلاحات الفرنسية بالمغرب سنة 1905.
مساهمة في ندوة : الاصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19. نشر كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط 1983. ص 259 ـ 292.

(2) J.L. Miege, le Maroc et l'Europe, Paris 1963, T.3. p. 225-6.

(3) Cf. Edmond Vidal, la politique coloniale de l'Allemangne en Afrique, Alger, 1908.

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ومنذ 1890، أصبحت ألمانيا، من الدول المعاهدة للمغرب مثل إنجلترا وإسبانيا وفرنسا، بواسطة الاتفاقية التجارية التي إنعقدت بين البلدين في 12 شوال 1307 هـ (الموافق 1890 م) (1) وسرعان ما أصبحت ألمانيا من الدول الصديقة للمغرب، تقدم للمخزن المساندة الديبلماسية والمشورة في كثير من المسائل، ضد فرنسا وإسبانيا.

وعلى الرغم من بعض التوتر الذي ميز العلاقات الألمانية. المغربية في عهد الوزير الصدر أحمد بن موسى (1894 ـ 1900)، فإن بداية القرن العشرين شهدت تعاونا متينا بين البلدين.

فمنذ أن دشنت فرنسا سياسة التدخل السلمي في المغرب، باتفاقيات 1901 ـ 1904، مع المغرب (1901 ـ 1902) وإيطاليا (1902)، وإنجلترا (1904)، وإسبانيا (أكتوبر 1904)، منذ ذلك الوقت، دخلت ألمانيا مسرح السياسة المغربية بقوة. وبدأت ملامح سياسة ألمانية جديدة تجاه المغرب تترسخ وتتأكد. من مميزات هذه السياسة، العمل على إستغلال، كل خلاف بين المغاربة والفرنسيين، لتوسيع النفوذ الألماني، الذي تجاهلته فرنسا، وتطوير المصالح الألمانية بالبلاد (2).

ماهي خلفيات السياسة الألمانية ؟

إذا تأخر الألمان عن غيرهم في التعرف على المغرب، فقد تميزت الجالية الألمانية بالمغرب بنشاطها وتفهمها لأذواق وتقاليد المستهلكين المغاربة. فتمكنت نتيجة لذلك من تطوير معاملاتها بسرعة. وانتشر نشاط المؤسسات التجارية الألمانية في معظم أنحاء المغرب وخاصة بالجنوب المغربي. وسرعان ماحتلت التجارة الألمانية الصف الثاني بعد إنجلترا.

يضاف إلى هذا العامل الخاص، الدوافع القومية، والمصالح الرأسمالية، حيث بدأ الرأى العام الألماني، يطالب بسياسة خارجية، تخدم هيبة ألمانيا، ومكانتها كدولة كبرى كما كانت الأوساط الجرمانية والجامعية تنتظر من الحكومة الألمانية، عملا حازما للمحافظة على المصالح الألمانية بالمغرب والحيلولة دون بسط حماية فرنسية عليه.

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الباب، أن الحكومة الألمانية، وجدت الطريق معبدة، والمهمة سهلة، في الدول التي صمدت في وجه التوسع الفرنسي والانجليزي مثل الدولة العثمانية والدولة المغربية.

في المغرب مثلا، خلال الأزمة المغربية الفرنسية 1904 ـ 1905، حين حاولت فرنسا فرض حماية مبكرة على المغرب، لم يتصور الألمان عملهم بوضوح، إلا بعد أن شاهدوا معارضة المغاربة القوية للمشروع الفرنسي. فكانت زيارة الامبراطور الألماني لطنجة (31 مارس 1905). تعبيرا واضحا على رغبة ألمانيا في التعامل مباشرة مع سلطان المغرب. لحماية مصالحها، وسلوك سياسة مستقلة تجاه المغرب تهدف إلى تقوية النفوذ الألماني به (3).

---

(1) نصها العربي، في كناش الاتفاقيات، نسخة مصورة بحوزة المؤلف.

(2) Victor Berard, l'affaire Marocaine, A. Colin, Paris 1906, PP.365–66.

(3) علال الخديمي، حادثة الدار البيضاء وإحتلال الشاوية 1907 ـ 1908. رسالة في دبلوم الدراسات العليا، قدمت بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط 1985. الجزء الأول، ص 60 ـ 61.

وهكذا بدا للمراقبين، سنة 1905، أن المغرب قد وجد حليفا أوربيا قويا، لموازنة ومقاومة النفوذ الفرنسي. وتأكد ذلك من خلال الدعوة لأنعقاد مؤتمر دولي، للنظر في مسألة الاصلاحات التي ينبغي إدخالها للمغرب، والبحث في وسائل تمويلها.

نتائج مؤتمر الجزيرة الخضراء 1906.

لقد تمكن المغاربة، إذن، وبمساعدة الألمان، من إفشال مشروع الحماية الذي حاولت فرنسا فرضه على المغرب سنة 1905. ودعوا إلى مؤتمر دولي، حضرته جميع الدول المعنية بالمسألة المغربية. وقد دعا ميثاق الجزيرة الذي صدر في أبريل 1906، إلى إحترام سيادة واستقلال المغرب، ومنح لجميع الدول الحاضرة حق المساواة الاقتصادية. بيد أنه إعترف لفرنسا بالمصلحة الخاصة، بدعوى مجاورتها للمغرب في الجزائر. ومنحها حق تنظيم شرطة الموانىء، بالاشتراك مع إسبانيا. وأعطاهم الأولوية في إنشاء بنك للدولة المغربية.

وهكذا خيب المؤتمر أمل المغاربة، في لموقف الألماني خاصة، وفي موقف الدول الأخرى بصفة عامة، فقد إهتم دبلوماسيو أوربا بحل الخلاف الألماني الفرنسي، ولم يبحثوا في الوسائل الكفيلة بمساعدة المغرب. بل أكثر من ذلك، دفعوا المغاربة إلى التعاون مع الدولتين الطامعتين في إحتلال بلادهم وهما فرنسا وإسبانيا.

ويبدو أن المغرب، بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء، لم يعد يمثل في السياسة الألمانية إلا عملة للتبادل، ذلك أن السياسة المغربية الألمانيا. سارت في إتجاهين يخدمان المصالح الألمانية فقط، دون إهتمام كبير بآمال المغاربة.

يتمثل الاتجاه الأول، في المحافظة على النفوذ الألماني بين المغاربة للحصول على إمتيازات إقتصادية من المخزن. ويتمثل الاتجاه الثاني في الظهور بمظهر المدافع عن مقررات الجزيرة، حتى إذا أبدى الفرنسيون إستعدادا لدفع تعويضات كافية في المجالين الاقتصادي والاستعماري عند ذاك تتخلى ألمانيا عن المغرب للاحتلال الفرنسي (1).

ضغط فرنسي وتقلب ألماني

من الجدير بالملاحظة، أن المواقف الألمانية تجاه المغرب، تميزت بالتردد والتقلب، بعد مؤتمر الجزيرة. وهناك عدة عوامل يمكن أن تفسر لنا هذا التقلب.

فبالاضافة إلى الأهداف التي أشرنا إليها، والتي يبدو أنها كافية لتفسير تقلب السياسية المغربية الألمانيا، هناك عوامل أخرى منها :

1) الضغوط المتباينة التي كانت الحكومة الألمانية تتعرض لها، فمن جهة، هناك تيار الجرمانيين ودعاة الاستعمار، وبعض كبار رجال الأعمال، الذين كانوا يضغطون في إتجاه منع فرنسا من الاستحواذ على المغرب وحدها.

(1) Guenane, Djamal, Les relations Franco-Allemandes et les affaires marocaines de 1901 à 1911, Alger, 1975, p. 225 et suite.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ومن جهة أخرى، كان بعض رجال المال والصناعة الألمان يعملون لصالح سياسة تصالحية مع فرنسا.

2) تباين آراء الأوساط الألمانية الحاكمة، وترددها حول السياسة التي ينبغي سلوكها في المغرب. ولعل هذا الخلاف راجع إلى إهتمامات ألمانيا القارية، التي كانت قوية جدا، وتلعب دورا محوريا في السياسة الخارجية ـ فقد ظلت ألمانيا منذ عهد بسمارك، تولي إهتماما خاصا إلى إضفاء دور فرنسا بأوربا. لذلك كانت الأوساط الحكومية ترتاح لكل مغامرة فرنسية في المغرب، قد تضعف من الدور العسكري الفرنسي على الحدود. إن هذه نظرة تكتيكية كانت قاصرة ـ في نظرنا ـ عن رؤية العواقب الاستراتيجية، وهناك أمثلة تبرز هذه السياسة المتقلبة تجاه التدخل الفرنسي بالمغرب.

وبعد إعلان ميثاق الجزيرة، الذي خيب آمال المغاربة وخدم الأهداف التوسعية لفرنسا، حاول الألمان أن يظهروا بمظهر المؤيد للموقف المغربي، ولذلك علقوا مصادقتهم على إجراء العمل بمقررات المؤتمر على مصادقة سلطان المغرب. فقد إتصل الوزير الألماني بطنجة روزن Rozen، بالنائب محمد الطريس، وأخبره بأن الحكومة الاسبانية طلبت من الحكومة الألمانية الشروع في تنفيذ قرارات الجزيرة، لكنها رفضت، وقررت أن لاتصادق على أي إجراء إلا بعد مصادقة السطان. وهكذا لم يبق للألمان إلا هذه المناورة، لأرضاء كبرياء أصدقائهم المغاربة (1)، وللحصول على بعض الامتيازات.

وبالفعل، فقد تمكن روزن، من المحافظة على النفوذ الألماني داخل المخزن، وأن يقنع أصدقاءه المغاربة بأن ألمانيا لن تتخلى عن المغرب، ومما يبرز هذا الاتجاه ـ أن روزن تمكن من إدخال ضابطين ألمانيين في خدمة المخزن. الأمر الذي أغضب الفرنسيين، الذين إعتبروه خرقا صريحا لميثاق الجزيرة (2).

كما حصلت شركات ألمانيا، على إمتياز إصلاح مينائي طنجة والعرائش دون المرور بالسمسرة العامة التي اتفق عليها في المؤتمر.

محاولات للتقارب الألماني الفرنسي سنة 1907

منذ أواخر 1906، بدأت العلاقات الألمانية الفرنسية تعرف بعض الانفراج. إذ حاولت الأولى، أن تهادن الثانية في المغرب، أملا في إحداث تقارب ألماني فرنسي بأروبا. أما فرنسا فمنذ ذهاب دلكاسي Delecassé، وهي تسلك نحو ألمانيا سياسة حذرة، تعتمد المرونة، بل التودد، خاصة إثر كل قرار يرمي إلى التدخل في الشؤون المغربية.

وعلى الرغم من شكوى الفرنسيين، من كون ألمانيا تتبع سياسة عدائية تجاه فرنسا في المغرب، وتعمل على كسب مزيد من الامتيازات دون إهتمام بميثاق الجزيرة. وإتهامهم لألمانيا

(1) محمد الطريس لأبن سليمان، 22 ربيع الأول 1324/16 ماي 1906، كناش 2720. ص 113 (الخزانة العامة بالرباط).

(2) لقد إعترف المؤتمر لفرنسا بالمصلحة الخاصة سياسيا في المغرب، في حين أنه لم يمنح الدول الأخرى بما فيها ألمانيا إلا حق المساواة الاقتصادية. لكن الرد الألماني على الاتهامات الفرنسية كان هو أن سلطان المغرب مستقل في بلاده ويحق له أن يختار من يستخدمه بحرية.

بكونها تظهر نفسها في المحافل الدولية كحامية للمغرب، ولذلك فالمغاربة يتبعون نصائحها. ويسلكون سياسة معارضة لفرنسا (1). على الرغم من هذه الشكوى، فقد ظهر حرص الدولتين على الوفاق، بمناسبة، محاولة إخلال طنجة، وخاصة خلال النصف الأول من سنة 1907.

ففي أواخر 1906، حاول الفرنسيين إحتلال طنجة بالتعاون مع الاسبان، بدعوى حماية أمن الأجانب، وكان الهدف في الحقيقة هو الضغط على المخزن ليقبل تنظيم البوليس بالمدينة. فماذا كان موقف ألمانيا ؟ لقد أصدر الامبراطور الألماني أوامره بعدم عرقلة المشروع الفرنسي، الذي كان يأمل من ورائه، إنعماس فرنسا في مغامرة مغربية تنهكها (2).

وإذا إستطاع المغاربة تفويت الفرصة على الفرنسيين بدون مساندة ألمانيا (3) فإن الأوساط الاستعمارية الفرنسية إنتهزت فرصة قتل أحد الأطباء الدبلوماسيين الفرنسيين في بداية مارس 1907. لتحتل مدينة وجدة في آخر الشهر.

كان صدى الاحتلال قويا في نفوس المغاربة حاكمين ومحكومين، وكان الأمل هذه المرة قويا من جانب المخزن، لتستعين بمساندة ألمانيا، على التخفيف من حدة الضغط الفرنسي، وليحصل على تحرير مدينة وجدة. بيد أن ألمانيا، لم تبد أيضا أية معارضة للاحتلال الفرنسي بحجة أن قضية الحدود لاتهم إلا فرنسا والمغرب.

وإذا أحس المغاربة بالمرارة من الموقف الفرنسي، الذي تجاهل إعتراف ميثاق الجزيرة باستقلال المغرب وسيادته، فإنهم لم يفهموا الموقف السلبي للحكومة الألمانية، التي قررت عدم التدخل في المسألة، بل نصحت المغاربة بقبول جميع المطالب الفرنسية (4).

هكذا سبر المغاربة الموقف المصلحي للدول الأوربية وخاصة ألمانيا، التي كانوا يأملون منها موقفا منسجما مع تصريحات ممثلها بطنجة، الذي طالما ندد بالسياسة التي تسلكها فرنسا، لتبرير عدوانها على المغرب.

بيد أن المهم في الأمر هو معرفة المواقف الألمانية من قنبلة الدار البيضاء وإحتلال الشاوية.

مواقف ألمانية من قنبلة الدار البيضاء وإحتلال الشاوية

لايتسع المجال لتفصيل أحداث القنبلة، ودوافعها. لكننا سنكون مضطرين للتذكير ببعض الوقائع البارزة، حتى نفهم كيف تطورت الأحداث والمواقف المختلفة (5).

---

(1) Guenane, op. cit, p. 232. (A. E. P All. NS. T. 31) (19-2-1907).

(2) علال الخديمي، حادثة الدار البيضاء وإحتلال الشاوية، م. س. ج 1. ص 101. وقنان جمال، م. س. ص 242.

(3) لقد حرك المخزن على وجه السرعة قوة عسكرية قوامها 3000 جندي بقيادة وزير الحربية محمد الجباص إلى فحص طنجة. وبذلك سحب الذرائع التي تذرعت بها فرنسا.

(4) عن إحتلال وجدة والأصداء التي أثارها في نفوس المغاربة، يراجع « الأصداء الوطنية لأحتلال وجدة سنة 1907 ». موضوع تدخلنا، في ندوة حاضرة المغرب الشرقي مدينة وجدة. أبريل 1988. وعن المطالب الفرنسية. أنظر : حادثة الدار البيضاء، ج 1 : ص 107/108.

(5) لمزيد من التفاصيل، تراجع، حادثة الدار البيضاء وإحتلال الشاوية، 1907 ـ 1908. الجزء الثاني ص 243 ـ 342.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

عرفت بلاد الشاوية، التي تقع ضمنها مدينة الدار البيضاء، الاستيطان والاستغلال الأجنبي منذ أواسط القرن الماضي (1). وقد نتجت عن ذلك الاستغلال ردود فعل محلية. خاصة لما إقترن ببروز الأطماع الاستعمارية الفرنسية بعد 1904. ولقد إنتفض سكان الشاوية منذ 1903. وبدأت إنتفاضتهم تتحول إلى جهاد، بعد إعلان ميثاق الجزيرة، وخاصة لما شرعت مؤسسة فرنسية في إصلاح مرسى الدار البيضاء، ولما تمكن الفرنسيون من وضع مراقبين ماليين، بجانب الأمناء المغاربة بديوانية المدينة، في 24 يوليوز 1907.

ففي 30 يوليوز 1907، حاولت جماعة من أهل الشاوية، توقيف أشغال « الكمباينة المغربية » بمرسى المدينة، فحدث إشتباك مع عمال الأوراش أسفر عن مقتل 9 عمال أجانب، بينهم ثلاثة فرنسيين.

وقد جاء الحادث في إبانه، بالنسبة للأوساط الاستعمارية، التي كانت مستعدة، تنتظر الفرصة المواتية للشروع في إحتلال المغرب (2). وهكذا قررت الحكومة الفرنسية في 2 غشت، إرسال حملة للشاوية، بدعوى عقاب المسؤولين عن الحادث. كما إدعت ـ في إخبارها للدول الأخرى ـ أن العملية ستتم في إطار ميثاق الجزيرة، وأن من أهدافها تنظم البوليس بالدار البيضاء بالاشتراك مع إسبانيا. وبالتعاون ـ المزعوم ـ مع المخزن.

وبالفعل وصلت الحملة الفرنسية، بقيادة الأمير Philibert (للأسطول)، وقيادة الجنرال Drude (لجيش الاحتلال)، يوم 7 غشت لمدينة الدار البيضاء، حيث وقع النزول والاحتلال في مدينة محربة، ذلك أنه في يوم 5 غشت أقدمت بارجة حربية أرسلت على عجل، على إرتكاب مذبحة فضيعة، بالشروع في قنبلة المدينة إبتداء من فجر ذلك اليوم، واستمرت القنبلة إلى أن وصلت الحملة يوم 7 غشت. ثم اتسعت أعمال القنبلة والاحتلال بإتساع المقاومة الشعبية، لتشمل كل قبائل الشاوية التي استطاعت الصمود في وجه الجيش الفرنسي المتفوق، من غشت 1907 إلى غشت 1908 (3).

كيف تعاملت الحكومة الألمانية والرأي العام الألماني مع هذا التصعيد العسكري الفرنسي بالمغرب ؟

أولا : موقف الحكومة الألمانية :

من الملفت للنظر، أن الحكومة الألمانية، لم تعارض في البداية القرار الفرنسي، إذ عبر المسؤولين الألمان عن حيادهم. فقد نقلت جريدة الفيغارو، في عددها ليوم 2 غشت الأصداء القائلة، بأن ألمانيا لاتعترض على ما تنوي فرنسا القيام به « للتأثر لمواطنيها ». وأن الخارجية الألمانية أخبرت السفير الفرنسي بوقوف الحكومة الألمانية في الحياد (4). بل يظهر أن ألمانيا

---

(1) علال الخديمي، أثر الاستقرار الأجنبي بالدار البيضاء خلال القرن 19. أعمال ندوة الدار البيضاء، أنظر كلية الآداب والعلوم الانسانية 1 بالدار البيضاء، 1982، ص 28 ـ 52.

(2) Cf. Cte de Saint – Aulaire, Confessions d'un vieux diplomate, Paris-1953, p. 177.

(3) لمزيد من التفاصيل أنظر « حادثة الدار البيضاء وإحتلال الشاوية ». الجزء الثاني.

(4) Archives Etrangères, Paris, (A.E.P) Maroc, NS, t. 43, p. 57.

شجعت ـ في إطار السياسة التقليدية التي لمعنا بها ـ العمل الفرنسي ففي 7 غشت 1907 بعث سفير فرنسا ببرلين، برسالة لوزير الخارجية، جاء فيها : أن كاتب الدولة الألماني في الخارجية، عبر له عن « تعاطف ألمانيا مع فرنسيين » (1).

لماذا هذا الحياد وهذا التعاطف الذي أبداه المسؤولون الألمان ؟ هل كانوا يتطلعون للاستفادة من أي رد فعل مغربي ضد فرنسا؟ أم إنخدعت الدبلوماسية الألمانية، الأمر الذي يبرز تخلفها دائما في الأمور المغربية ؟ على كل حال، فإن هذه السياسة غير المتبصرة، كانت دائما في صالح فرنسا الحذرة، مما جعل الألمان، دائما يترددون في إتخاذ القرارات الحاسمة لصالحهم في الوقت المناسب؛ حتى ولو كنت السياسة الألمانية لاتريد التدخل، إلا عندما يتورط الفرنسيون، لتحصل منهم على التعويض، مادامت تعلم أن فرنسا لن تتخلى عن المغرب لدولة أخرى.

ثانيا : موقف الرأي العام الألماني :

ويبدو أن « مدفع الدار البيضاء »، أيقظ دويه، الأوساط الحاكمة بألمانيا، ذلك أن لهجة الصحافة الألمانية بدأت تتغير، وتزعمت بعض الجرائد المقربة من الأوساط الجامعية والجرمانية، حملة مضادة للتدخل الفرنسي، كانت تزداد حدة وتأثيرا مع تصعيد ذلك التدخل.

فقد حذرت جريدة Muenchner nueste nachrichten في عدد يوم 10 غشت 1907، من أن عمل فرنسا متعارض « مع ميثاق الجزيرة، الذي لايجب نقضه إلا بمؤتمر آخر مثله » (2).

كما انتقدت تأييد الصحافة البريطانية للعمل الفرنسي، الذي سيشجع النزعة القومية الفرنسية الهادفة إلى جعل المغرب مثل الجزائر وتونس ومصر. ثم تساءلت عما يمكن أن تفعله ألمانيا. وقالت أن هذا يتبع الوضعية العالمية (3).

وهاجمت الجريدة المذكورة أعمال القنبلة قائلة :

« إن قنبلة الدار البيضاء وذبح رجال القبائل وسكان المدينة يظهر قبل كل شيء، أنه عمل غير مجدي. يعتبر عملا تخريبيا. إن القوات التي أنزلت كانت كافية لأخماد كل مقاومة. أما مهمة المدفعية فكانت ببساطة، إسكات البطاريات الساحلية المغربية البئيسة، بضربة أو بضربتين. وإذا أصبح هذا العمل ضروريا، فقد كان من المستطاع فرضه على المغاربة بواسطة إجراءات حازمة. لكن بدون مذابح لا جدوى منها وبلا تخريب... إننا غير مسؤولين عن هذه المسخرة الدموية » (4).

ويظهر أن حدة الانتقادات الألمانية. كان لها أثر في السياسة الفرنسية بالمغرب. إذ طلب المكلف بالأعمال الفرنسية في المغرب، من السلطات العسكرية والدبلوماسية الفرنسية بالدار

---

(1) Ibid. p. 242.

(2) A.E.P.M.NS. t. 44. pp. 77 – 80.

(3) Ibid.

(4) Ibid. pp. 141 – 142.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

البيضاء، أن تعمل مافي وسعها، لتجعل الاحتلال الفرنسي مفيدا للمصالح الأوربية وخاصة للمصالح الألمانية (1).

وفي الواقع لقد انتشرت حملة واسعة، للتنديد بالسياسة الفرنسية بالمغرب (2) وأطلع السفير بألمانيا، جول كامبون Jules Cambon، الخارجية الفرنسية على أصدائها، مشيرا إلى « موقف الغيرة » الذي تقفه الصحافة الاسبانية. بما فيها جريدة Laepoca التي هي جريدة حكومية، والتي دعت الحكومة الاسبانية إلى الحذر، وإلى عدم إغلاق أبواب المستقبل في التعامل مع المغرب. وقد إستنتج السفير الفرنسي، أن إتجاه الجريدة خطير، لأنه يهدف إلى عزل إسبانيا عن فرنسا (3).

هكذا أصبح موقف الرأي العام الألماني، مزعجا للحكومة الفرنسية، وبدأت تتخوف من إنعكاساته في أوربا وخاصة عند شريكتها إسبانيا. ولهذا بذلت بعض الجهود بين فرنسا وألمانيا للاتفاق على الاستغلال المشترك للمغرب.

فبالرغم من الحملة العدائية، في أوساط الرأي العام الألماني بيلوف Bulow في 24 مارس 1908، أما البرلمان : « إن عمل فرنسا بالمغرب لاينبغي أن يضر بالمصالح الألمانية الاقتصادية. وأن تفسيرات فرنسا لميثاق الجزيرة مبالغ فيها. . . . وأن عليها أن تعترف بذلك الميثاق بكيفية سلمية وحبية، لأن ألمانيا لن تفعل مثلها في المستقبل » (4).

وفي الوقت نفسه، صرح وزير الخارجية بقوله : « إن المغرب، بالنسبة لجارتنا الغربية، نقطة مؤلة. ولكنني سعيد بالقول، قبل كل شيء بأن علاقاتنا مع فرنسا، فيما يتعلق بالقضية المغربية، قد أصبحت عادية وحبية » (5).

يبدو أن العلاقات الألمانية الفرنسية عرفت بعض الانفراج حول القضية المغربية حتى بداية 1908. لكن بمراجعة الصحافة الألمانية، وبالاطلاع على نشاط الجالية الألمانية بالمغرب، يظهر التوتر الحقيقي، الذي كان المسؤولون في البلدين يحاولون تغطيته.

---

(1) سان أولير وزير الخارجية، 13 غشت 1907، 141 ـ 142.

A.E.P.M.NS. t. 44. pp. 141 – 142.

(2) نددت معظم الجرائد الألمانية، بالفضائع التي ترتكبها فرنسا بالشاوية، وقالت الجريدة الميونيخية، المذكورة « إن الألمان ليسوا مستعدين لأداء ثمن الكؤوس المكسرة من طرف الفرنسيين ».

A.E.P. MAROC. NS. t. 44 et t. 55.

(3) A.E.P. MAROC. NS. t. 55, p. 55.

كانت الحكومة الفرنسية قد أقنعت الحكومة الاسبانية بالنزول المشترك في الدار البيضاء، بدعوى تنظيم البوليس بها، حسب ميثاق الجزيرة. لكن يبدو أن مقاومة المغاربة الشديدة، والفضائع التي إرتكبها الفرنسيون وخاصة نتيجة لمواقف الرأي العام الألماني، يبدو أن ذلك أقنع الحكومة الاسبانية بأنها قد خدعت في النوايا الفرنسية فبدأت تبعد نفسها عن فرنسا.

(4) A. E. P. M. NS. t. 55. pp. 184 – 185.

(5) Ibid, pp. 181 – 182.

موقف الجالية الألمانية من الاحتلال الفرنسي

لقد كان موقف الجالية الألمانية معاديا جدا للاحتلال الفرنسي للدار البيضاء والشاوية. وكان كارل فيكه Karl Ficke (1)، الذي كن يملك مؤسسة تجارية كبيرة بالدار البيضاء، من أبرز زعماء الجالية، وأكثرهم مقاومة للاحتلال الفرنسي. كانت لمؤسسة كارل فيكه معاملات واسعة مع قبائل الشاوية، وعلاقات متينة مع عدد كبير من سكان المنطقة، عن طريق الحماية والمخالطات، وقد وظفت تلك العلاقات في محاربة النفوذ الفرنسي بالشاوية (2).

ولفهم دور الجالية الألمانية في محاربة النفوذ الفرنسي سنحاول دراسته من زاويتين :

أولا دعاية الجالية الألمانية، في أوساط الرأي العام الألماني خاصة والدولي عامة، لفضح الاحتلال، والتأثير على الحكومة الألمانية، لأتخاذ مواقف معارضة له.

ثانيا نشاطها على أرض الشاوية، لعرقلة الاحتلال، بإستغلال إمتياز الحماية القنصلية والمخلطات.

أولا : النشاط الدعائي للجالية : إحتجت الجالية بزعامة كارل فيكه بشدة على قنبلة الدار البيضاء، وإشتكت من الخسائر التي تعرضت لها مصالحها بالمدينة. بفعل القنبلة والنهب والاحتلال.

كان كارل فيكه يراسل الصحف البانجرمانية، ويكتب تقارير عن عمليات الجيش الفرنسي ضد قبائل الشاوية. وهكذا بعثت الجالية رسائل وشكاوي لوزارة الخارجية، إتهمت فيها القائم بالأعمال الألماني بطنجة، لانجويرث Langwerth ، بخدمة النفوذ الفرنسي، وبعدم إطلاع الحكومة الألمانية على مايقع فعلا بالمغرب.

وقد ذهب وفد يمثل الجالية الألمانية إلى برلين، حيث أطلع المسؤولين على أوضاع المغرب في مواجهة التدخل الفرنسي، واتصل بالأوساط البانجرمانية. وبمساندة منها، نظم الوفد حملة صحافية واسعة ضد التدخل الفرنسي بالشاوية. وخلال ذلك نشر - خاصة - المقال النقدي لكارل فيكه، « نداء ألمان المغرب إلى الأمة الألمانية »، في آلاف النسخ (3).

وقد عرفت السياسة الألمانية، توجها جديدا، لكنه لم يصل إلى حد التغيير الحقيقي تجاه الاحتلال الفرنسي. والملاحظ أن هذا التوجه إقترن بالظروف المستجدة في المغرب إثر إعلان

---

(1) ولد كارل فيكي بألمانيا سنة 1862، وإستقر بالدار البيضاء، حيث كان أخوه هنريخ البريخت فيكي، يملك «مؤسسة تجارية. كان كارل يتقن اللغة العربية»، وعلى إطلاع بعوائد المغاربة، وتمكن نتيجة لذلك من تقديم خدمات هامة، لبلاده في سبيل التعرف على المغرب، إذ كان يرافق الزوار الألمان، الذين يريدون التعرف على البلاد.

إعتقل إثر إعلان الحرب العالمية الأولى، وصودرت أملاكه، وأعدم بتهمة التجسس، في 18 يناير 1915.
– Pierre guillen, Le Maroc et l'Allemagne, 1870 à 1905, p. 55. 4000.

مصطفى بوشعرا، الاستيطان والحماية بالمغرب، 2، ص 832، المطبعة الملكية 1987.

(2) Maurice Louis, la politique marocaine de l'Allemagne, Paris, 1916, p. 54–555.

(3) [illegible] Franco-Allemandes, p. 2413.

بيعة مولاي عبد الحفيظ، الذي كان على إتصال شبه رسمي بالأوساط الألمانية الحاكمة (1).

ومن علامات التوجه الجديدة، إعادة الدكتور روزن إلى مقر عمله بطنجة - وهناك أشرفت المفوضية الألمانية على إصدار جريدة : Deutch Marokoo zeitung ونيتجة لنشاط الجالية الألمانية كانت الصحف الألمانية، تتوفر على مادة غزيرة حول أحداث الشاوية. فقد كتبت جريدة Weser zeitung في عدد 1 ماي 1908، مقالا مطولا، ندد فيه، بالسياسة الفرنسية بالمغرب، وبينت بأن المغاربة كلهم يؤيدون مولاي عبد الحفيظ. وحذرت من توغل الفرنسيين نحو الداخل، كما أشارت إلى الفضائح التي يرتكبها جيش الاحتلال، المتكون في أغلبه من خليط من الأوباش. وهاجمت خاصة الكوم. الذين كانوا ينقلون للمغرب من الجزائر وقالت عنهم بأنهم ينهبون ويقتلون ويعودون لبلادهم محملين بما نهبوه، تاركين المجال لآخرين يأتون لا يملكون شيئا.

ولاحظت الجريدة ساخرة، بأن هذه هي الحضارة التي تدعي فرنسا نقلها للمغرب. وأشارت إلى أنه من غير المعقول أن تترك الدول الأخرى فرنسا تفعل بالمغرب ماتشاء. وخاصة ألمانيا التي يأمل المغاربة أن تساعدهم. وقالت : « أن الرأي العام المغربي يتجه للدول الموقعة على عقد الجزيرة، وخاصة ألمانيا، إننا لانفهم كيف تترك هذه الأخيرة المغرب في هذه الوضعية المحزنة » (2).

بيد أن فعالية الجالية الألمانية، ظهرت فيما كانت تنشره الجريدة الألمانية D.M. zeitung ، بطنجة التي داومت على فضح تصرفات القوات الفرنسية بالشاوية. وقد اتهم الفرنسيون الجريدة بالعداء، وبأنها تردد تأثيرات الجالية الألمانية، وخاصة مموليها من رجال الأعمال مثل كارل فيكه و Mannesmam (3).

ومن بين المقالات الأكثر إثارة، مانشرته الجريدة بتاريخ 22 نوفمبر 1907. تحت عنوان « البرابرة ». حيث هاجمت السياسة الفرنسية بالمغرب، وفضحت أكاذيب الصحافة الفرنسية ضد المغاربة ومما قالته : « إن المغرب غني، أغنى من الجزائر تحت الحكم الفرنسي، وأنه يستحق حربا أكثر من الالزاس واللورين. إن زيارة الامبراطور سنة 1905. جعلت المغرب في مأمن من « البربرية » الفرنسية » (4).

وقد ظلت جريدة Deutch Marokoo zeitung ، تندد بسياسة الحكومة الفرنسية بالمغرب وتهاجم تصرفات الضباط الفرنسيين بالشاوية ففي عدد 21 أبريل 1908، تأسفت على المغرب الفقير الذي ترك وحده في مواجهة فرنسا. ثم تساءلت عن الموقف الألماني، هل يبقى يتفرج فقط (5).

---

(1) قارن ما ذكره إدريس منو عن إتصالات السلطان الجديد الألماني في :
محمد المختار السوسي، حول مائدة الغذاء، بدون تاريخ، ص 51.

(2) Archives de guerre, Vincennes (A-G.V) 3 H 77, doss 137.

(3) Maurice Louis, la politque marocaine de l'Allemangne, p. 55.

(4) A. E. P. Maroc. NS ; t. 55. p. 157.

(5) A. E. P. M. NS, t. 189, p. 180.

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ويظهر أن الدعاية الواسعة، في أوساط الرأي العام الألماني ضد التدخل الفرنسي المسلح بالشاوية، قد بدأت تؤثر في الحكومة الألمانية حث يلاحظ أن المسؤولين الألمان بدأوا يشددون من لهجتهم، فقد صرح Bulow ، بأن إحتلال الشاوية، لايدخل أبدا في إطار ميثاق الجزيرة وأن مسؤولية ذلك تعود على فرنسا إسبانيا وحدهما (1). وانتقد السفير الألماني ببارين، Radolin في 17 يونيو 1908 ، هدم نازل المحميين الألمان بالشاوية قائلا : « إن الحكومة الامبراطورية، ترى من الصعوبة، في هذه الظروف الاستمرار، في سياستها التصالحية، التي اتبعتها إلى حد الآن تجاه العمل الفرنسي بالمغرب » (2).

وإتخذت بعض الصحف الألمانية لهجة جديدة، بحيث حاولت إبراز خطر المشاريع الفرنسية بالمغرب، وخطر تجنيد الجزائريين للحرب في المغرب، على ألمانيا وعلى السلام العالمي.

« فمن الوجهة العسكرية - (تقول إحدى الجرائد الصادرة بنورمبورغ شتنبر 1908) - يعتبر المخطط الفرنسي الرامي لأحتلال المغرب خطرا على السلام العالمي وعلى ألمانيا. إن المغرب بسكانه الأكثر عددا من الجزائر، يمكن أن يوفر نصف مليون جندي ». ثم طالبت الحكومة الألمانية بالعمل على إفساد المخططات الفرنسية (3).

والواقع أن الدعاية المضادة للتدخل الفرنسي، التي كانت تقودها الجالية الألمانية وجريدة Duetch Marokoo كان لها تأثير كبير في محاربة النفوذ الفرنسي بالمغرب وفي تشجيع المغاربة على المقومة. فقد إشتكى Regnault ، في تقرير مطول لوزير الخارجية من هجومات الجريدة الألمانية المذكورة، ومن تصرفات الجالية الألمانية. وإتهم الجريدة بأنها تريد تحويل الرأي العام المغربي عن السلطان عبد العزيز لفائدة أخيه، وإثارة الاضطراب تمهيدا لتدخل أجنبي ضد الفرنسيين. وإتهم الجالية الألمانية بأنها تشيع في الأوساط المغربية أن الفرنسيين هم سبب إضطراب الأمن والفوضى في القبائل. وختم تقريره بالقول :

« إننا لاينبغي أن نخذع حول عداوة الجالية الألمانية. إنها أمر واقع، وعلينا أن نواجهه » (4).

ثانيا : نشاط الجالية الألمانية في عرقلة الاحتلال بالشاوية :

غضبت الجالية الألمانية بالشاوية من الاحتلال الفرنسي، الذي هدد مصالحها. وإذا لم يكن في مقدورها، أن تفعل شيئا لموازاة الاحتلال الفرنسي، بتدخل ألماني مماثل، فإنها لم تقف مكتوفة الأيدي. بل سلكت عدة سبل لعرقلة العمل الفرنسي بالشاوية.

ويجدر بنا أن ننبه إلى أن نظام الحماية القنصلية، والمخالطات الفلاحية، كان يمنح للألمان ولغيرهم من الأجانب، حصانة كاملة تجاه السلطات الفرنسية العسكرية والمدنية على السواء. ونفس الحصانة كان يتمتع بها المغاربة المحميون والمخالطون.

(1) Ibid. M. NS, t. 194, pp. 30 – 34.

(2) M. louis, pp. cit. p. 57.

(3) A. E. P. M. NS, t. 194, p. 152.

(4) من ريينيو إلى بشون 10 غشت 1908 . 234 - 235 .
– A. E. P. t. 55, pp. 234 – 235.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وقد نشط الألمان في عمليات تهريب الأسلحة وتوريدها للمجاهدين. وكانت عمليات التهريب تتم عبر الجديدة والرباط.

وتشير بعض الروايات الشفوية إلى أن دور بعض الألمان، مثل كارل فيكه، والمحميين (مثل المسمى ولد لا خيريه)، كانت بمثابة مخازن للأسلحة والذخيرة، يتمون منها المجاهدون بما يحتاجونه بثمنه طبعا.

ومن المجالات التي أظهرت فيها الجالية الألمانية نشاطا متزايدا، مجال الحماية والمخالطة، وما إرتبط بذلك من أعمال المضاربة العقارية. وإذا كانت عمليات منح الحمايات وعقد المخالطات، وإنما تحدث بتأييد من السلطات القنصلية، وتشجيعها، فإن شراء الملكيات العقارية، كان يقع بمبادرة من مؤسسات كبرى، مثل مؤسسة كارل فيكه ومؤسسة الاخوة مانسمان Mannesmann.

والواقع أنه نتيجة تشجيع الألمان للمجاهدين، سهل عليهم أن يجدوا بين السكان، من يرغب في الحماية الألمانية لتأمين نفسه وماله من عقاب المحتلين. بيد أن الألمان بدورهم، كانوا يعملون على الأكثار من المحميين والمخالطين لهم لخدمة مصالحهم التجارية وعرقلة النفوذ الفرنسي. وكانوا يعدون أولائك الناس بأنهم متى سجلوا في القنصلية الألمانية، فإن الفرنسيين لن يصلوهم بضرر (1).

وهكذا أصبحت الحماية القنصلية التي إستعملتها فرنسا، لتفكيك هياكل المخزن، أهم عرقلة وأخطرها، صادفها النفوذ الفرنسي بأرض الشاوية، وأصبحت الحكومة الفرنسية رهينة مساوىء سبق أن إستخدمتها ضد الادارة المغربية. وأخذت السلطات الفرنسية العسكرية والمدنية، تتكلم على غير عادتها، عن مساوىء حق الحماية التي وصلت إلى حد لايطاق (2).

ومن الأساليب التي اتبعها الألمان لمحاربة النفوذ الفرنسي إكثارهم من شراء الملكيات العقارية بأرض الشاوية. وتشجيع مخاليطهم ومحمييهم، على عدم الخضوع لأوامر القواد التابعين للفرنسيين، الأمر الذي كان يؤدي إلى حوادث سياسة خطيرة. مثل ما وقع بالزيايدة بين عملاء لمؤسسة مانسمان والسلطات المحلية (3).

(1) في برقية من الجنرال داماد قائد جيش الاحتلال الفرنسي، إلى وزير الحربية، مؤرخة 18 غشت 1908، أكد الجنرال على الدعاية النشيطة التي يقوم بها الألمان بالشاوية ليحصلوا على أكثر عدد من المحميين والمخالطين الفلاحين. وأشار إلى أن هذه الدعاية تحدث في أوساط السكان وقواعد القبائل كذلك.
A.G.V. 3 H. 70

(2) في تقرير مطول للجنرال دماد مؤرخ ب 13 دجنبر 1908، تحدث عن السياسة العسكرية والملكية العقارية بالشاوية عن حق الحماية ومساوئه، ومجهودات مكاتب الاستخبار العسكرية.
– Ibid, 3 H 70 Demonde à Guerre, 13 décembre 1908.

(3) نشطت المضاربات العقارية بين الدار البيضاء والرباط، خاصة بالزيايدة والعرب، وإتهم الفرنسيون عملاء الألمان بالتحريض عليها. فقد رفضت بعض فرق الزيايدة، تنفيذ أوامر السلطات المحلية، ووصل الأمر إلى حد الاشتباك بالسلاح. بين دوار القطابنة وخليفة قائد الزيايدة موالين الغابة، مذكرة بدون تاريخ محفوظة بوثائق الحربية بفانسان. 89. "A.G.V. 3 H 87 doss"

ومما يبرز دور حق الحماية في محاربة النفوذ الفرنسي، أن المجاهدين، الذين خرجوا من الشاوية إثر السيطرة الفرنسية، كانوا يعدون لبلدانهم تحت مظلة الحماية الألمانية. ذلك أن الحكومة الألمانية، وجدت في الواقع ـ في حق الحماية، وسيلة فعالة، عبرت بواسطتها ومن خلالها عن موقفها من وضعية القوات الرنسية المحتلة. فقط كانت تلك الوضعية، في نظر ألمان، أمرا واقعا فقط وليست وضعية شرعية. ومادام الأمر كذلك، فالحكومة الألمانية كانت ترفض دفع أحد من المغاربة، لطلب الأمان من السلطات المحتلة التي كانت تريد المحافظة على هيبتها بين السكان ـ أو التخلي عن حمايته التي إكتسبها بواسطة حق الحماية المخول لجميع الدول في المغرب (1).

على أن أبرز الأساليب، التي إستخدمتها الجالية الألمانية لمحاربة الاحتلال الفرنسي، هي الساعدة على فرار جنود اللفيف من صفوف قوات الاحتلال بالشاوية وإذا كانت عمليات الفرار، قد حدثت نتيجة لصمود المجاهدين، والمقاومة الباسلة التي أبدوها في معارك الشاوية (2).

فإن الدعاية الواسعة لأنتصارات الشوية على جيش الاحتلال، أقنعت الكثيرين من الجندين بالفرار. وفي هذا الاطار تجدر الاشارة إلى قرار البعض إلى صفوف المغاربة، والبعض الآخر، كان يجد السبيل سهلا ليعود لبلاده بأوربا، عن طريق الرباط والدار البيضاء (3).

وقد نظمت الجالية الألمانية، بمساعدة خفية من السلطات القنصلية الألمانية، مايشبه مصلحة سرية كانت تعمل على فرار الجنود غير الفرنسيين. وقد مثل حادث الفارين الذي وقع في 25 شتنبر 1908. بالدار البيضاء، وما نشأ عنه، ذروة التوتر في العلاقات بين الحكومتين الألمانية والفرنسية. بيد أن الطرفين إتفقا على حله بواسطة التحكيم لدى محكمة لاهاي.

وقبل إنهاء هذا العرض، نشير إلى أنه عند بيعة مولاي عبد الحفيظ في غشت 1907. كان المغاربة، بتبديلهم لشروط الوضع السياسي والدبلوماسي يأملون أن يجدوا عونا قويا من الحكومة الألمانية :

لكن هذه الأخيرة إكتفت بتقديم النصائح كعادتها.

الخلاصة :

أهم نتيجة يمكن للباحث أن يخرج بها من مراجعة المواقف الألمانية، أن الحكومة الألمانية، لم تكن في يوم من الأيام رافضة لبسط السيطرة الفرنسية على المغرب. لكنها كانت ـ في الوقت نفسه ـ تريد حقها من الاستغلال الرأسمالي ولذلك طالبت على الدوام بحماية مصالحها الاقتصادية، وأبدت إستعدادها للتخلي عن منافسة فرنسا في المغرب، إذا حصلت على تعويض ملائم.

((1) ينطبق هذا على مسألة الجيلالي بن الرغاي، قائد أولاد سيدي بنداود الذي قام الاحتلال، ثم عاد لبلاده دون أن يطلب الأمان من الجنرال Moinier. ووأيده في ذلك ممثل ألمانيا الدكتور روزن (Rozen).
– A.G.V. 3 H 87 doss. 89. Moinier à Guerre 18 – 6 – 1910.

((2) راجع معارك الشاوية، في الجزء الثاني من «« حادثة الدار البيضاء

((3) خلال سنتي 1907 ـ 1908 [illegible] حوالي 48 حالة فرار، [illegible] خلالها 20 فارا في الهرب.

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ـ إن الحكومة الألمانية إستغلت نشاط الألمان بالمغرب لتحقيق أهداف مرحلية تكتيكية، ولذلك حصدت الفشل على المستوى الاستراتيجي.

ـ يظهر من حملات الرأي العام الألماني وردود الفعل الفرنسي أن القضية المغربية لعبت دورا في تتميم العلاقات الألمانية الفرنسية قبل الحرب العالمية الأولى.

ـ لاينبغي أن ننسى أن المقاومة المغربية للتدخل الفرنسي، هي التي جعلت الألمان، يتصورون الطرق والكيفية التي يواجهون بها النفوذ الفرنسي بالمغرب.

ـ إن ألمانيا لم تعمد أبدا، إلى إعلان تأييدها الرسمي للمقاومة المغربية، وإن ظلت تبدي نصائحها ومساندتها السرية.

ـ إن الموضوع لايزال في حاجة إلى التعميق، ولا يتم هذا إلا عن طريق دراسة المصادر الألمانية الأصلية، ورسم خط بياني لمواقف الحكومة الألمانية من الاحتلال الفرنسي للمغرب بين 1907 ـ 1908.

الأستاذ شاوش حباسي

فرض الحماية الفرنسية على تونس ورد الفعل التونسي
(1881 ـ 1833)

تمهيد :

نعني في هذا المقال بدراسة فرض الحماية الفرنسية على تونس مابين 1881 ـ 1883 على الخصوص. وقد حرصنا على أن تكون هذه الدراسة جامعة شاملة لمظاهر ودوافع الاستعمار الفرنسي بهذا البلد، ووجوه رد الفعل التونسي وأبعاده، دون إطناب ولا إسترسال في جزئيات وتفاصيل قد تخرج بنا عن حسن التصور ووضوح الرؤية إلى « الطم والرم » وإلى إستحضار سجل الوفيات على حد تعبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (1).

حقيقة ليس الهدف من التأريخ إعادة الماضي مكتوبا على ما كان عليه بكل جزئياته وتفاصيله المتوفرة، إنما التأريخ السوي هو الذي يحدد المحاور الأساسية للحركة التاريخية من سنن في نمو وإزدهار الدول وإنحطاطها و في العلاقات الانسانية، ثم لايخرج موضوع هذه المحاور الأساسية عن التأريخ في ستة أبواب وهي : السياسة والدين والاقتصاد والاجتماع والعلم والأدب. ولايكون التفصيل إلا بقدر ما يخدم موضوعا معينا من هذه الأبواب يمده بالضروري من المعلومات مع وضوح التصور والغاية، وإلى هذا يكون قد أشار الشيخ البشير الابراهيمي حين كتب أن « النسق التاريخي (هو) الذي يبين الأسباب ويبني عليها النتائج ويشرح ويتقصى » (2).

فعلى هذا المنهج في التصور وفي جمع المادة التاريخية نهجنا، مركزين على إبراز مرتكزات وثوابت في السياسة الاستعمارية تجددت برمتها أينما حل الاستعمار في البلاد العربية والاسلامية قديما وحديثا.

أما « التأقلم » التقني الاستعماري في تونس من تغيير من الالحاق إلى الحماية، عكس ماحدث بالجزائر، فقد خضع لأعتبارات أمنية أولا ثم لأعتبارات منفعية ثانيا كما سنبين ذلك في موضعه لكن الأهم في إعتقادنا ـ وقد وقفنا عنده مطولا ـ هو إبراز الآليات الادارية والقانونية التي تحكمت بها فرنسا على الشعب التونسي لتواري سلطتها الأحادية الفعلية عن التونسيين وراء أشباح بايات تونس. والتعرف على هذه الآليات تعرف على الاستعمار بعمق من جهة، وإكتساب منهج عملي علمي لمقاومة الاستعمار بتعطيل هذه الآليات بعد التعرف عليها، إذ ما الفائدة من دراستها بالدرجة الأولى للوطني إلا هذه.

هذا، ولم نغفل البعد الحضاري في الاستعمار، بل أبرزناه بالاعتماد على توثيق لايدع مجالا للشك بهذا الصدد حتى نخرج من إسقاط ذاتيتنا باستنتاجات شخصية تقحمنا في دائرة الرأي لا التأريخ. ومعلوم أن الاستنتاج الذي لايقوم على دليل مادي لاينهض حجة في علم مصطلح التاريخ.

وقد أجاد الأمير شكيب أرسلان في تبيان طريقة التأريخ حين كتب : « (. . .) نعرف التاريخ بالأدلة العقلية والنقلية بملاحظة ماسبق ومالحق بانبناط النتائج من المقدمات،

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ولانعرفه تخرصات وإفتراضات وأبنية على غير أساس » (3). وإن المدرسة المادية قد أغفلت البعد الحضاري كمحرك أساسي في عملية الاستعمار وفي مقاومة الشعوب المستعمرة له. وهذا ليس لعدم توفر مادته ولكن جريا وراء تشكيل عقلية منقطعة عن أصالتها بإقحامها في دائرة التغريب الفكري.

وقد حرصنا كذلك في هذا المقال على تثمين بعض ردود الفعل التونسي، فإخترنا المقاومة التونسية المسلحة كنموذج قابل للتعميم : فقد يتوهم البعض أن جهاد التونسيين للمستعمر ـ على قصر أمده ـ كان ضربا من التهور، إذ لايعقل في زعمهم، أن يتغلب التونسيون أنذاك بإمكاناتهم الحربية المحدودة على الترسانة الحربية الفرنسية، وكان عليهم والحال هذه أن يسالموا الفرنسيين.

فقد أوضحنا أن الحقيقة غير ذلك، حتى لاتفهم نتائج بعض المعارك مع الاستعمار على أنها خسارة دائمة وأبدية للحرب من جهة، ومن جهة أخرى فإنه أصبح لزاما في إعتقادنا أن يرسم منهج تصوري للمقاومة الدائمة للاستعمار بجميع أشكاله بتجاوز الأحداث الظاهرة إلى التنظير العام.

سبب تفضيل الفرنسيين لنظام الحماية على الالحاق المباشر لتونس :

بينا في مقال سابق (4) كيف توغل الفرنسيون في البلاد التونسية ماليا وإقتصاديا وسياسيا. كما بينا ذلك أن مؤتمر برلين الأول (1878) قد إنتهى بعد تنازلات متبادلة بين الدول الأوروبية لمشاركة فيه بإطلاق يد الفرنسيين لفرض حمايتهم على تونس.

ولقد فضل الفرنسيون بعد نقاش عريض نظام الحماية على الالحاق المباشر لأعتبارات أمنية وإقتصادية.

ففي تريره السري المؤرخ بيوم 1881/04/24 م، أي قبل فرض الحماية على تونس بثمانية عشرة يوما، أخطر الكردينال لافجري ـ الذى سيصبح فيما بعد من مستشاري بول كمبون أو، مقيم عام في تونس ـ (5) ـ البارون دي كورسال (مدير الشؤون السياسية لوزارة الخارجية)(6) عن طريق « الأب » شارمتان : « (. . . .) فما أن توضع تونس تحت التصرف المباشر لحكومة مسيحية حتى تولد فيها العصبية الاسلامية نفس النتائج التي عرفتها الجزائر (. . .) وذا فأنا لاأتردد في القول بأننا إذا ماتركنا أنفسنا ننجر في هذه اللحظة نحو إلحاق كلي للايالة، مهما كان الدافع لذلك، فإننا سنكون إرتكبنا غلطة سياسية فادحة. وفرنسا لايمكنها أن ترتكب هذه الغلطة، ويجب عليها ألا ترتكبها. يجب عليها أن تقتصر على الحماية الحقيقية التي تعطيها النفوذ الضروري لأعداد المستقبل، والتي بحفاظها الظاهري على حاكم مسلم على رأس البلاد، تسمح لها بفرض إرادتها مع إخفاء يدها، ودون أن تهيج العصبية العربية. ولكن الأسباب الخارجية ليست وحدها التي تجعلني أفضل، حاليا، الحماية على الالحاق فالأسباب المتعلقة بالحكم الداخلي، وبالاقتصاد السياسي ليست في إعتقادي أقل أهمية ». (7)

كذلك فقد حذر البارون ديستورنال دي كونستان ـ وكان مقربا من بول كمبون ـ من مغبة الالحاق المباشر، فقد جاء في خاتمة كتابه الذي نشر سنة 1891 : « ستحافظ الأيالة التونسية على هدوئها ما أبقينا عرش الباي محاطا بإدارة أهلية تديرها نخبة فرنسية »، ثم أضاف كاتبا : « (. . .) ولكن إذا أصرت الحكومة على إعتبار تونس ولاية جزائرية رابعة، فإن المستعمرة الفتية التي شرفت الجمهورية لن تصبح إلا مصدرا للانفاق وركاما من الموظفين ورجال الأعمال. وإن التونسيين سيشعرون بالتهديد والابعاد، وسينضم إليهم الايطاليون والملطيون (. . .) وإن جميعهم لن يفكروا بعد ذلك إلا في الاستقلال » (8).

وبعد إستقرار تفضيل نظام الحماية على الالحاق المباشر عند وزارة الخارجية الفرنسية للاعتبارات التي ذكرناها، بقي أن يقنع دي كورسال الحكومة الفرنسية برأي وزارته. وقد تم إقناع قمبيطا زعيم الأغلبية الجمهورية أولا ثم جول فيرى رئيس مجلس الوزراء الفرنسي. وقد تقرر االتدخل المسلح لفرض الحماية على الباي (9) بعد إبعاد مشروع دي بيلينج المتمثل في فرض االحماية ديبلوماسيا دون تدخل عسكري (10).

ذريعة التدخل العسكري :

تذرعت فرنسا كما هو معلوم لتتدخل عسكريا ضد الجزائر بحادثة المروحة، لذلك فإن إبتكارها لمثل هذه الذرائع أصبح أمرا هينا وعاديا.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ويرجع تحضير الذريعة للقنصل الفرنسي في تونس تيودور رسطان، الذي اعتبر إفتعال حادث على الحدود التونسية الجزائرية هو أنسب وسيلة للتدخل عسكريا وكانت النزاعات والغزوات كثيرة الوقوع على هذه الحدود بين قبائل البلدين تونس والجزائر، وكانت تصفى سنويا بصورة « مرضية » بين الباي وممثل الحاكم العام للجزائر.

ولكن عندما صممت فرنسا على التدخل العسكري ضد تونس، طلب رسطان من السلطات الفرنسية في الجزائر ألا تقلل من أهمية الحوادث حتى تستغل في الوقت المناسب لمعاقبة « الأشخاص العاملين على نهب التراب الجزائري » وقد كان للقنصل الفرنسي في تونس عميلين بمدينة القالة وعنابة هما بناريلو وأليقرو، وكانا قادرين، عند الحاجة، على إثارة الحوادث على الحدود.

وقد إغتنم القنصل الفرنسي توغل قبائل بني خمير التونسية في التراب الجزائري للانتقام لأحد أفرادهم بتاريخ 16 فبراير 1881 م، فنسق مع الضباط الفرنسيين بالجزائر الذين حضروا إشتباكا بين القوات الفرنسية والقبائل التونسية يومي 30 و 31 مارس، وهو الاشتباك الذى تذرع به الفرنسيون للتدخل عسكريا في تونس.

وقد حاول باي تونس إستدراك الأمر، فاقترح إرسال 5000 رجل لمعاقبة الجانبين المشتبكين، لكن إقتراحه هذا وجد معارضة فرنسية قطعية وحازمة، واعتبرت فرنسا نفسها المسؤولة الوحيدة عن معاقبة « المعتدين » (11).

التدخل العسكري الفرنسي وفرض الحماية على الباي :

وقد شارك في غزو تونس 31.816 جندي فرنسي إستقدموا من فرنسا ومن الجزائر وبدأ إختراق التراب التونسي إبتداء من 23 أبريل بقيادة الجنرال فورجمول بغرض حصار قبائل خمير. فاحتل فيلق الجنوب بقيادة الجنرال لوجورو بدون مقاومة مدينة الكاف. أما فيلق الشمال فقد بدأ منذ 26 أبريل بقذف ميناء طبرقة، وقد تم إنزال الجيوش الفرنسية وإحتلال الجزيرة في اليوم الموالي.

ولم تعبه الحكومة الفرنسية بإحتجاجات باي تونس ولاالدول الكبرى الموقعة على معاهدة برلين والتي دعيت من طرف هذا الأخير للتوسط بينه وبين فرنسا. أما الدولة العثمانية فلم تكن لتدخل في حرب مع فرنسا وحليفاتها من أجل تونس، واكتفت بتحركات دبلوماسية ومناورات سياسية لم تغير في الحقيقة من عزم وإصرار فرنسا على إحتلال هذا البلد (12).

وأمام تراجع الجيش التونسي بـ 60 كلم إلى جهة الشرق بأمر من باي تونس، إحتل الفرنسيون مدينة بنزرت يوم 1 ماي، ثم إتجه فيلق جديد تعداده 8000 جندي من هذه المدينة إلى تونس العاصمة. وبتاريخ 11 ماي وصل فيلق الجنرال بريار إلى الجديدة ليفرض على الباي محمد الصادق الحماية الفرنسية وليمنع القوات التونسية من اللجوء إلى القيروان. وقد كان وزير الخارجية الفرنسي برتليمي سانت هيلار قد كلف الجنرال بريار بتقديم مشروع معاهدة إلى باي تونس الذي وقعها مرغما يوم 12 ماي 1881 (13).

وقد نصت هذه المعاهدة على أن الاحتلال مؤقت، وأن القوات الفرنسية ستكتفي فقط باحتلال المراكز الحدودية والساحلية التي تراها صالحة لاستتباب الأمن، على أن يزول هذا

الاحتلال بإتفاق بين الطرفين حين يستتب الأمن. وتكفلت فرنسا بموجب هذه المعاهدة بحماية لباي وعائلته، كما نصت على إشراف فرنسا الكامل على سياسة تونس الخارجية بما يضمن تنفيذ جميع المعاهدات المعقودة بين الدلة التونسية والدول الأوروبية.

ويمثل الدولة الفرنسية في تونس وزير - مقيم عام يشرف على تنفيذ بنود هذه المعاهدة. ونص بند السابع منها على إحتفاظ فرنسا والحكومة التونسية بحق وضع نظام مالي. كما فرضت المعاهدة في نبدها الثامن غرامة حربية على القبائل « العاصية » بالحدود السواحل وأما البند التاسع فقد حظر على الحكومة التونسية دخال السلاح والذخائر الحربية لجزيرة جربة ومرسى وقابس والمراسي الأخرى حتى لا يهرب إلى التراب الجزائري (14).

ويلاحظ أن محرر الوثيقة لم يستعمل لفظ الحماية، وحرص كذلك على الاكبار بالباي وعلى إبراز سلطتين متكافئتين تعملان بتعاون وثيق لإخراج تونس من أزمتها المالية والأمنية.

والحقيقة أن هذه المعاهدة قد جردت تونس من التمثيل الدولي، خصوصا وأن أمر 9 جوان 1881 م قد منح المقيم العام الفرنسي وظيفة وزير الخارجية أما عن الوجود العسكري في تونس والذي اعتبرته المعاهدة مؤقتا، وأنه سينم الاجلاء بإتفاق بين الطرفين حين يستتب الأمن، فإنه يشك كثيرا في وقوعه « لأن الجنرال الفرنسي القائد الأعلى للجيوش بتونس هو نفسه وزير حكومة الباي للحربية، فيجب حينئذ أن يتفق مع نفسه على تقرير سحب جيوشه » (15).

المقاومة الشعبية المسلحة :

فإذا كان الباي محمد الصادق قد استسلم للفرنسيين عنوة وخضع لهم بالقوة، فإن متاعب الفرنسيين لم تنته عند هذا الحد، بل واجهوا مقاومة شعبية شديدة (16) أينما حلوا على أرض تونس شمالا وجنوبا وشرقا وفي وسط البلاد.

ففي الشمال كانت قبائل بني خمير وسكان الجبال عموما في طليعة حركة المقاومة. فما أن ظهرت السفن البحرية الفرنسية على ميناء طبرقة حتى هب متطوعون من أولاد بوسعيد والحوامدة وأولاد عمر بقيادة شيوخهم للمقاومة ولمواجهة الأعداء.

ولم تتمكن قوات الاحتلال من الاستيلاء على المدينة يوم 26 أبريل 1881 إلا بعد قصفها. أما الفروع الأخرى من خمير فلم تغادر مواقعها حتى تمنع الطريق على القوات الفرنسية القادمة من الجزائر. وقد وقع الاصطدام فعلا يوم 26 أبريل.

ثم تواصلت المقاومة من جهة جندوبة بمشاركة قبائل أولاد بوسالم والشياحية وعمدون. وكانت هذه القبائل مدعمة بأبنائها من الجنود اللذين فروا بأسلحتهم من معسكر علي باي يوم 29 أبريل للدفاع عن مواطنيهم إثر إحتلال سوق الأربعاء.

وتميزت قبائل مقعد وهذيل في الشمال أيضا بمقاومتها الشديدة للغزاة حيث واجهت قوات الاحتلال بكل شجاعة في جهة ماطر وبنزرت..

وقد استعصت مقاومة هذه القبائل على الفرنسيين حتى نهاية شهر جوان، إذ استسلم أبناء مقعد وأجبروا على تسليم أسلحتهم للعدو. كما التزموا أيضا بدفع غرامة حربية باهضة.

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وكان الاتصال مستمرا ومنتظما بين شيوخ هذه القبائل المجاهدة، إذ حاول كل من علي بن خليفة قائد نفات والحاج حسين بن مسعي قائد أولاد يدير (جلاص) والحاج علي الحراث شيخ أولاد وزاز (فراشيش) وأحمد بن يوسف قائد أولاد رضوان (همامة) وعلي بن عمار القائد السابق لأولاد عيار تنسيق جهودهم وتوحيد أعمالهم مكونين بذلك شبه مجلس قيادي لتسيير المقاومة. فاتسعت رقعتها بسرعة وإمتدت إلى قبائل أخرى، وفي هذه الظروف تجاوزت كل هذه القبائل خلافاتها المزمنة فقبلت بقيادة علي بن خليفة قائد نفات على رأس المقاومة، وقد عرفت هذه الحركة إنتشارا واسعا منذ شهر جوان.

وهكذا صار قادة الجهاد يهيئون السكان ويحثونهم على المقاومة قبل أن تصل القوات الفرنسية إلى المناطق التي يراقبونها. فحاول أولاد سعيد ورياح بدار الباي قتل الموظفين الأوروبيين التابعين لشركة إستغلال ضيعة النفيضة رمز الاستعمار الزراعي الفرنسي. وكانت إستراتيجية المقاومة ترمي إلى منع جيش الاحتلال من محاصرة صفاقس من جهة البحر والوقوف في وجهه حتى لا يتوغل داخل البلاد، وقطع كل السبل المؤدية إلى مدينة القيروان.

وأما في جنوب تونس فقد عاشت مدينة صفاقس خلال شهر جوان تحركا شعبيا واسعا بالاشتراك مع جمع من قبيلة المثاليث، فهوجمت قنصلية فرنسا يوم 28 جوان، وفي اليوم الموالي هوجم القائد حسونة الجلولي لتواطئه مع العدو.

وفي صفاقس تأسست لجنة للدفاع عن هذه المدينة تحت رئاسة محمد الشريف ضابط المدفعية بحامية هذه المدينة نفسها، والتي إنضمت إلى المقاومة مع قائدها محمد معتوق وبمساندة الشيخ محمد كمون، بينما أقبل إلى صفاقس جموع من الأعراب لتعزيز المقاومة.

ووصل علي بن خليفة النفاتي إلى ضواحي هذه المدينة في بداية شهر جويلية في عدد كبير من أبناء قبيلته، ومنها صار على إتصال دائم بقبائل المثاليث والسواسي، وجلاص وغيرهم، وصار على بن خليفة القائد الفعلي لصفاقس.

غير أن المقاومة لم تستطع الصمود طويلا أمام الأسطول الفرنسي الزاحف الذي بلغ أوجه يوم 14 جويلية حيث ضم 17 سفينة حربية و6000 جندي. فسقطت مدينة صفاقس يوم 16 جويلية بعد قصف دام عدة أيام. فإنتقل المجاهدون من هذه المدينة يتقدمهم الحاج صالح بن خليفة شقيق علي بن خليفة نحو قابس لتنظيم المقاومة بهذه المدينة. فتقدم الجيش الفرنسي بأسطوله ومشاته وتمكن من إحتلال جارة بعد مقاومة تونسية مستمية، وتعطل الفرنسيون أزيد من أربعة أشهر نتيجة صمود الثوار، ولم يتمكنوا من السيطرة الفعلية التامة على هذه المنطقة إلا في نهاية نوفمبر 1881 م.

وأما بالساحل والوسط من البلاد التونسية فقد شملت المقاومة أيضا قبائل جلاص والهمامة وسكان قرى الساحل، وقد إنضم إليهم عدد كبير من الجنود النظاميين الذين فروا من جيش الباي للدفاع عن بلادهم. وقد نشط هؤلاء الجنود أربعة مراكز للمقاومة بالقلعة الكبرى وجمال وبنان وقصور الساف يقودها تباعا الساسي سويلم والحاج علي بن خديجة وسعد بن حسين القم وولد البحر. فأغاروا على قطع من إبل الباي وعلى العدو في المنطقة بين 26 و 29 أوت، وقد برز جنود القلعة الكبرى بصفة خاصة في معركة الأربعين التي استشهد فيها الساسي سويلم، وكان من نتيجة هذه المعارك أن عرقلت المقاومة زحف القوات الفرنسية داخل البلاد.

كانت هذه الانتصارات حافزا لرجال المقاومة دفعهم لمواصلة الهجوم على المستعمر، فهكذا شهدت منطقة زغوان في النصف الاول من شهر سبتمبر عدة هجومات على مراكز الجيش الفرنسي. ولم يكسر الفرنسيون هذه لمقاومة إلا بإتخاذ الرهائن وفرض الغرامات المالية الباهضة على أهل المدينة.

وخير معقل هام للمقاومة في هذه الجهة : مدينة القيروان وماجاورها قد سقط أواخر أكتور 1881 م. وقد تم إحتلال القيرون على مراحل ومرورا على أجساد المجاهدين التونسيين.

في يوم 27 سبتمبر غادر الجنرال ساباتيي مدينة زغوان بعد إحتلالها متجها إلى الفحص التي إحتلها بدورها يوم 3 أكتوبر بعد سقط المقاومة التي حاولت قطع الطريق إلى هذه المدية.

ثم إجتمع خمسة جنرالات فرنسيين (سباتيي - فيليبير - لوجرو - صوسيي - وإيتيان) لقطع الطريق المؤدية إلى القيروان، وإستعانوا في ذلك بقذائف الأسطول البحري وبكتيبة فورجرمول القادمة من مدينة تبسة بالجزائر. فسقطت على التوالي بعد مدينة الفحص، القلعة الكبرى وبلدة جمال.

ولم تستطع المقاومة التي انتعشت بين 19 و 22 أكتوبر بقيادة علي بن عمارة الجلاصي (الذي كان يقود 1800 فارس و 2000 من المشاة من جلاص وأولاد سعيد والسواسي والمثاليث والهمامة ونفات) أن تمنع الفرنسيين من إحتلال القيروان، وإن إبتلي المجاهدون فيها بلاء حسنا. فتفرقت البقية منهم وخضعت المدينة للمحتل (17).

تثمين هذه المقاومة :

وهكذا سقطت المقاومة الشعبية أواخر شهر أكتوبر 1881 م إلا فلول في الجنوب كانت على صلة مع الليبيين.

وقد يتساءل المرء عن جدوى هذه المقاومة التي إنطلقت ضعيفة في وسائلها إذا ماقورنت بوسائل العدو وأدواته الحربية وكم كان حظ التونسيين في الانتصار على الفرنسيين منذ إنطلاق المقاومة الشعبية ؟ ولاشك أن التونسيين قد عايشوا مقاومة جيرانهم الجزائريين لنفس العدو وكانوا على علم بالنتائج التي أسفرت عنها مقاومة هؤلاء إلى حدود سنة 1881م. ألم يكن الأحسن لهم مسالمة الفرنسيين، بسبب إختلال ميزان القوة، حقنا لدمائهم وحفظا لأعراضهم وتجنبا من إنتقام العدو من البقية الباقية منهم ؟

والحقيقة غير ذلك من وجهين، وجه شرعي ديني وعرف أممي. أما عن الوجه الديني فقد تقرر في شرعنا أن الجهاد فرض عين على كل مسلم قدر عليه ذكرا كان أم أنثى إذا هاجم العدو الكافر ديار المسلمين. وقد استند فقهاؤنا إلى كثير من الآيات المحكمات في تقرير هذا الحكم، وحسبنا أن نذكر قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (18).

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وأما عن العرف الأممي، فلا بد على الأمة المستقلة « أن تذود عن حوضها وتدافع عن شرفها إلى النسمة الأخيرة من حياتها، وأن الذي يموت بغير دفاع فالموت أولى به من الحياة بلا نزاع وأن بقية السيف مهما قلت هي أشرف مقاما وأرجى حياة من الكثرة المستنيمة إلى الذل ولوكانت كالجراد المنتشر. وقد حققت الحوادث وأيدت التجارب أن الخضوع ليس أحسن الوسائل التي تعالج بها عداوة الأعداء » بل إن معاداة العدو « لاتزال هي الحقيقة السياسية التي تدين بها دول العالم الحديث كما دانت بها دول العالم القديم. ولعمري لو خضع » التونسيون « من أول الأمر أكمل الخضوع (. . .) لما كان لذلك نتيجة سوى زيادة الطغيان في معاملتهم وإستخفافهم بملتهم » ولامتدت أيدى الأوروبيين دون تردد إلى كل الأقطار الاسلامية إعتقادا منهم بأن هذه الأمة سهلة سائغة على أعدائها (19).

وقد أصاب الأمير شكيب أرسلان إلى حد كبير في نظرته هذه، فشهادة الفرنسيين في تقاريرهم تؤكدها. فقد جاء في التقرير السري للكاردينال لافجري الآنف الذكر : « (. . .) كما حسبت (أي لافجرى نفسه) حسابا أقرب مايمكن إلى الدقة عدد الجنود الذين ماتوا في الجزائر سواء في ساحة الوغى، أم في المستشفيات، بفعل الظروف المناخية، فوصلت إلى هذه النتيجة غير المتوقعة : إننا خسرنا في المستعمرة (يقصد الجزائر) عددا من الجنود أكبر من عدد المعمرين الذين يوجدون بها اليوم » (20).

فجهاد الجزائريين هو الذي جعل فرنسا تستبعد الالحاق المباشر لتونس وكان قبل ذلك عاملا حاسما في تأخير فرض الحماية الفرنسية على هذا البلد ثم على المغرب الأقصى بعده. وكان الجهاد في حقيقة الأمر من وراء كل تنازل فرنسي جدي في المستقبل.

ثم إن هناك بعدا أخرويا في الجهاد عند المسلمين فلا يجب تثمين هذا الجهاد دنيويا فقط، لأن الذين قاموا به قد يكون منهم من كان مبتغيا للشهادة وطامعا في جنة عرضها السماوات والأرض. فبهذه الصورة يكتمل التثمين من جميع جوانبه دنيا وأخرى.

الهيئات السياسية والادارية والآليات القانونية لفرض الحماية :

بعد استتباب الأمن للفرنسيين تفرغوا لأخضاع تونس سياسيا وإداريا وقانونيا فمعاهدة الباردو (12 ماي 1881 م) خصت في مادتها الثانية القوات العسكرية الفرنسية بالاشراف على الأمن في تونس، ثم فرضت معاهدة المرسى (1883/06/08 م) وبالخصوص في مادتها الأولى على الباي علي (1882 - 1902 م) السماح للفرنسيين « بإدخال الاصلاحات الادارية والعدلية والمالية » التي تخدم مصالح الحماية (21) فبناء على هاتين الدعامتين العسكرية والقانونية إنطلق المستعمر الفرنسي في تونس من قاعدة أساسية في تنظيم البلد إداريا وسياسيا. وتمثلت هذه القاعدة في الابقاء على المؤسسات المحلية وإدخال تغييرات عليها وإخضاعها لرقابة صارمة ودائمة.

غير أن بعض المؤسسات، كالجيش والمصالح التقنية والمحاكم الأهلية والفرنسية قد خرجت عن هذه القاعدة (ظاهريا في الحقيقة ليموه المشرع أن هناك سيادتين فرنسية وتونسية). لكن هذا الشذوذ عن القاعدة الآنفة الذكر لم يكن مطلقا، فالشؤون العقارية والجنائية مثلا كانت من إختصاص المحاكم الفرنسية (22)، لأهمية هذين الجانبين إقتصاديا وأمنيا.

والملفت للانباه أن فرنسا قد إستقدمت إلى تونس نظرية الملكية المستبدة التي عرفتها أوربا في القرون الوسطى، فجعلت من الباي « سيد رعيته المطلق التصرف بالاشخاص وما ملكوا » وهو إسئناف لحق التفويض الألهي بالمفهوم الكنسي الأوربي الذي إعتبره الفرنسيون عندهم في فرنسا إنحطاطا بالغا وظلما فضيعا للرعية.

والنتيجة احتمية، كما أوضح ذلك الشيخ عبد العزيز الثعالبي، أن الحقوق الطبيعية والحريات المقدسة لم تصبح « إلا منحة يجود بها السيد العاهل على رعيته كرما منه، ويمنعها متى شاء » ولما كان الباي حسب هذه النظرية غير مسؤول أمام الشعب التونسي، والمقام العام الذي يمثل الحكومة الفرنسية غير مسؤول أيضا أمام هذا الشعب لأنه إبتداء يمثل حكومة أجنبية، ثم إن الاتفاقات والمعاهدات إنما وقعت بينه وبين الباي فقط (23) فقد إنتفي من يحقق مصالح التونسيين لأن الباي لم يعد يدير سياسة البلاد بحكم خضوعه للفرنسيين ولاسلطة الحماية التي إختفت وراء هذه النظرية لتسد الطريق قانونيا أمام التونسيين حتى لايطالبوها بشيء.

ثم إن هدف الادارة الفرنسية في تونس قد شوه من أساسه حيث أنها كانت تعمل من خلال الروح الاستعمارية ولمصلحة الاستغلال وحدها فالموظفون الفرنسيون البالغ عددهم 4500 موظفا كانوا يشرفون على الادارة إشرافا تاما ومباشرا ولم يكن يحض التونسيون إلا بمراكز ثانوية كانت في حد ذاتها ضرورية لعملية الاستعمار.

كذلك فإن الهيئات السياسية العليا في البلاد كانت تقصى العنصر التونسي من التمثيل الفعلي والايجابي، حيث كان مجلس الوزراء ورئاسة الخدمات يرأسه المقيم العام بمعية جنرال قوات الاحتلال ورؤساء أجهزة الخدمة العامة وكانوا كلهم فرنسيين. أما عن الجانب التونسي فلم يكن يمثله في هذه الهيئة العليا سوى وزيران يحملان رتب الشرف الكبرى لكنهما مجردان من أية سلطة فعلية. والحق، كما كتب الثعالبي في **تونس الشهيدة** : « أن هذا المجلس ماكان غير كوميدية : القرارات الحقيقية والقوانين والميزانية وبرنامج الأشغال العامة، كانت تتخذ في الاجتماع الأسبوعي لرؤساء الخدمات في مكتب المقيم العام بعيدا عن أنظار التونسيين، وماكان لمجلس الوزراء من دور إلا تسجيل القرارات المتخذة من قبل. وكل ذلك يمهره الباي بخاتمه فيمكن للامسؤولية العامة والمطلقة ويشهد بأن المصلحة التونسية والدستور التونسيين مازالا محترمين » (24).

نفس الشيء بالنسبة للندوة الاستشارية ومجلس الحكومة الأعلى، حيث غيب التونسيون عن العضوية في الهيئة الأولى منذ تأسيسها سنة 1892 إلى جانفي سنة 1907 م، وإنفرد المعمرون بإبداء الرأي فيها بخصوص المسائل الزراعية والتجارية والصناعية والمالية طوال هذه المدة، حتى غدت هذه الهيئة على حد تعبير الثعالبي : « الغرفة السوداء التي يخطط فيها خراب مجتمعنا ومواليتنا » ولم يكن إنضمام التونسيين إلى هذه الهيئة الاستشارية سنة 1907 م ليغير من الأمر شيئا. فاختلال التوازن عدديا بين الفرنسيين والتونسيين (36 مقابل 16 عضوا) من جهة ثم إختيار الادارة الفرنسية للأعضاء الستة عشر التونسيين من « أقل العناصر كفاءة في شؤون الاقتصاد والسياسة » (25) كانا حائلين دون الوصول إلى الغرض المنشود في إبداء الرأي السديد الذي يخدم مصلحة التونسيين، لأن الندوة كما يدل عليها [illegible] إستشارية فقط لا ملزمة فيما تجمع [illegible] راء

وحتى لاتتسرب أخبار الجلسات خارج قاعة الاجتماعات قسم المقيم العام، بالاتفاق مع ممثلي المعمرين الندوة الاستشارية إلى قسمين : فرنسي وآخر تونسي، وهذا بموجب مرسوم 28 أبريل سنة 1910 م.

وأما مجلس الحكومة الأعلى الذي أنشيء خصيصا ليحكم بين القسمين الفرنسي والتونسي في الندوة الاستشارية فقد كان تركيبه البشري مختلا أيضا بين التونسيين والفرنسيين (11 مقابل 5 أعضاء) هذا من جهة، ومن جهة أخرى أهم وهي أن المقيم العام ـ رئيس المجلس ـ كان هو المقرر الفعلي، لأن جميع الأعضاء الفرنسيين في هذا المجلس كانوا خاضعين له بحكم التبعية أو عملاء له. وكان الممثلون التونسيون إما مدينين له بتعيينهم فلا يعارضونه في القرار، أو خائفين من سطوته لأنهم لم يكونوا يتمتعون بأي حصانة شخصية (26).

عن طبيعة الاستعمار الفرنسي في تونس :

لم تر المدرسة المادية بإختلاف مدارسها في الاستعمار إلاجانبه المادي بل حصرته في هذا الجانب، فاعتبرت أن الحركة الاستعمارية إنما غرضها ونهايتها الاستحواذ على ممتلكات الأمة المستعمرة، ومانظام الحماية عندهم إلا نظاما وضع ليدافع عن مصالح الرأسماليين الفرنسيين في تونس (27).

والحقيقة أن هذه النظرية لطبيعة الاستعمار قاصرة، إكتفت بالنظر من زاوية واحدة ضيقة فعند توسيع الرؤية وتغيير الزاوية يظهر جليا أن للاستعمار طبيعة حضارية كامنة محركة، لم يخفها لا المؤرخون الفرنسيون ولا المسؤولون السياسيون ولا الأساقفة والرهبان ولا حتى المعمر الأوربي الصغير. وهذه فيما يلي مقتطفات من شهادة طائفة متنوعة منهم : كتب المؤرخ الفرنسي لويس فيبو سنة 1841 هذه الأسطر المعبرة : « علينا أن نعتبر أن الأيام الأخيرة للاسلام قد حانت على ساحل البحر الأبيض المتوسط على الأقل، وسيسميه النصارى بدورهم بحيرتنا ! » (28).

كما كتب مؤرخ فرنسي آخر ومنظر للسياسة الاستعمارية في تونس والجزائر (29) مشيرا على المسؤولين السياسيين الفرنسيين في السنوات الأولى من فرض الحماية على تونس، أن آية خضوع الأمة المستعمرة للأمة المستعمرة إنما يكمن في إعتماد لغة المستعمر من طرف المستعمر وهي دعوة صريحة، كما نلاحظ، للغزو اللغوي الفرنسي في تونس. كما نصح نفس المؤرخ ساسة بلاده باعتماد نمط التربية الغربية للقضاء على تقاليد المجتمع التونسي، وحذر من المجابهة العلنية التي إعتبرها طريقة غير حكيمة.

وهي نفس الطريقة التي نصح بها البارون ديستورنال دي كونستان ـ وقد سبق وأن أشرنا أنه كان من مستشاري أول مقيم عام فرنسي في تونس بول كمبون ـ والذي حذر بدوره من إقصاء اللغة العربية بتعويضها قهرا باللغة الفرنسية (وهو الشيء الذي جعل التونسيين يمنعون أبناءهم من تعلم هذه اللغة الأخيرة)، ونصح بسلوك سياسة حكيمة، حتى لاتفشل جهود ومساعي الساعيين في هذا المجال (30).

وقد ألح نفس الكاتب ـ المستشار، على ضرورة إبقاء الدولة الفرنسية لأعتماداتها المالية للبعثات التبشيرية في المغرب العربي لأنها على حد قوله : « تنشر حضارتنا ولغتنا وأفكارنا،

Cree avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وهي اي تعود الأهالي بالتدرج على الاتصال با وإعتماد أنماطنا في المعيشة وأذواقنا وحاجاتنا، إنها تزن كذلك تخوفاتهم (. . .) وتعمل على ترسيخ عظمة بلادنا » (13).

ولم يق هذه الأقوال مجرد إقتراحات، بل تجسدت ميدانيا فمنذ شهر ماي 1883 م، أسس الفرنسون إدارة العلوم والمعارف ووضعوا على رأسها لويس ماشويل، الفرنسي المستعرب الذي شأ بالجزائر، فوضع يده على جميع المؤسسات الثقافية بما في ذلك جامع الزيتونة نفسه.

وبار لويس ماشويل بإنشاء دار المعلمين تكوين معلمين إبتدائيين للغة الفرنسية أطلق عليها «المدرسة العلوية» (Ecole Supérieure). وجعل من المدرسة الصادقية معهدا يهيىء التلامذ بتعليمهم اللغة الفرنسية للالتحاق بالمدرسة العلوية. فلم يبق منهجه إلا تعليما ضئيلا بالعربية للمدرسة الصادقية، إذ جعل لغة الفرنسية الصدارة في المعرفة العامة. بعدها تفرغ إلى التعليم الزيتوني فأخلاه من مادة العلوم الكونية، وأنشأ إلى جنبه معهدا لتخريج معلمي القرآن ومبادىء اللغة العربية « قصر فيه اللسان العربي على تعليم العربية والدين، وجعل تعليم التاريخ والجغرافيا والرياضيات والطبيعيات باللغة الفرنسية » فأصبحت هذه اللغة « الأداة الوحيدة للتعليم التونسي، وسدت الوسائل على من لايتعلمها دون الوصول إلى تكوين ثقافة حية، وبذلك إنهار الكيان الثقافي للبلاد إنهيارا تاما زاد عليه ماطغى على النفوس من روح الهزيمة والشعور بالنقص » (32).

غير أنه، وبمرور الزمن، ولد هذا التحدي الحضاري الفرنسي إستجابة لدى عدد من المثقفين التونسيين، فما حركة الاصلاح التي برزت منذ سنة 1888 م بظهور جريدة الحاضرة إلا مظهرا من مظاهر هذه الاستجابة للتحدي بتأصيل القيم الحضارية والوطنية عند النشىء التونسي بالخصوص.

أ. هـ

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

هوامش البحث :

(1) أنظر مقدمة كتابه تاريخ آداب العرب، ج 1، ط. 4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974، ص ص. 17 ـ 25.

(2) مجلة الثقافة، عدد 87، جوان 1985، وهو عدد خاص بمحمد البشير الابراهيمي.

(3) من مقال له تحت عنوان : « التاريخ لايكون بالافتراض ولا بالتحكم » في كتاب مصطفى صادق الرافعي تحت راية القرآن، ط. 7، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974، ص. 92.

(4) أنظر مقالنا : « تونس قبل فرض الحماية الفرنسية 1860 ـ 1881 »، في العدد السادس من مجلة الدراسات التاريخية.

(5) ذكر ذلك : Jacques KLEIN, La Tunisie, P.U.F, Paris, 1949, p. 61.

(6) وقد كان مساندا من كبار موظفي الخارجية ورسطان قنصل فرنسا والحاكم العام في الجزائر. أنظر د. عبد الرحمن تشايحي، المسألة التونسية والسياسة العثمانية، 1881 ـ 1913، تعريب د. عبد الجليل التميمي، ط. 1، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973، ص. 64.

(7) ملحق كتاب علي المحجوبي، تنصيب الحماية الفرنسية على تونس، تعريب عمر بن ضو وحليمة قرقوري وعلي المحجوبي، دار سيراس للنشر، تونس، 1986 ص ص. 159 ـ 165.

(8) P.H.X., La politique française en Tunisie, le protectorat et ses origines (1854 – 1891), Paris, Librairie Plon, 1891, pp. 157 – 158.

(9) عبد الرحمن تشايحي، مرجع سابق، ص. 65.

(10) Français ARNOULET, "en marge de l'expédition française en Tunisie, de Billing, un français subversif", 1986, 42 – 41

المجلة التاريخية المغربية، العددان 41 و 42، 1986 ص ص. 5 ـ 14. ودوبلينج هذا كان قنصلا فرنسيا في تونس طيلة سنة 1874، ويقال إنه أوفد من الخارجية الفرنسية للتفاهم مع الباي لتنصيب الحماية سلميا.

(11) عبد الرحمن تشايحي، مرجع سابق، ص ص. 65 ـ 68.

(12) يراجع في هذا الموضوع كتاب تشايحي السابق الذكر.

(13) نفسه، ص ص. 125 ـ 127.

(14) أنظر نص هذه المعاهدة كاملا في كتاب عبد العزيز الشناوي ود. يحي جلال، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، ص ص. 64 ـ 65.

(15) شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، تعريب المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص. 67.

(16) L' expédition militaire en Tunisie, 3ème édition, ed. Henri charles Lavanzelle Paris, 1881, p. 153.

وفي هذا الكتاب شهادة الجنرال فورجمول ـ أحد قواد الجيش الفرنسي ـ التي أثبتناها في النص.

(17) إستقينا جل المعلومات عن المقاومة الشعبية المسلحة من مقال الأستاذ علي المحجوبي « مقاومة السكان التونسيين للاحتلال الفرنسي » في المجلة التاريخية المغربية، العددان 33 و 34، جوان 1984، ص ص. 111 ـ 124.

(18) سورة الأنفال، 25 ـ 26.

(19) الأمير شكيب أرسلان في حاضر العالم الاسلامي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ط. 3، دار الفكر، بيروت، 1973، صص. 398 ـ 399 بتصرف في النص.

(20) عمر المحجوبي، ملحق، مرجع سابق.

(21) عبد العزيز الشناوي وزميله، مرجع سابق، صص. 66 ـ 67.

(22) Eli Fitouss et Aristide BENAZET, L'Etat tunisin et le protectorat français, Hiotrie et organisation, 1525 à 1931, Paris, Librairie Arthur Rousseau, 1931, p. 17.

(23) تونس الشهيدة، تعريب وتقديم سامي الجندي، ط. 1، دار القدس، لبنان، 1975، ص. 35.

(24) نفسه.

(25) يؤيد شارل أندري جوليان هذا الرأي بقوله: « وإذا استثنينا الزواش واليهودي التونسي » فيتوسي « الذي كان محاميا ورجل قانون ذائع الصيت، فإن الأربعة عشر عضوا الآخرين كانوا إمعين لا ثقافة لهم » (أنظر، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط. 2، النركة التونسية للتوزيع، تونس، 1985، ص 126. واليهودي فتوسي لم يكن ممثلا للتونسيين وإنما ليهود تونس في هذه الندوة.

وأنظر كذلك تفاصيل أخرى دقيقة عن هذه الندوة في كتاب:

Carmel SAMMUT, L'impéralisme capitaliste français et le nationalisme tunisien (1881 – 1914), ed. Publisud, Paris, 1983, pp. 118 – 119.

(26) تونس الشهيدة، مصدر سابق، ص ص. 35 ـ 39.

(27) كارمال ساموت، مرجع سابق، ص. 17.

(28) ذكره مصطفى الأشرف في كتابه:
L'Algérie, nation et société, ed. Français Maspéro Paris, 1969, p. 211.

(29) Paul Leroy BEAULIEU, L'Algérie et la Tunisie, Librairie Guillaumin et compagnie, 1887, pp. 384 – 394.

وعن مركز بوليو (Beaulieu) وتأثيره على السياسة الاستعمارية أنظر:
Gilbert MEYNIER, L'Algérie révélée, Librairie Droz, Genève, 1981, pp. 36 – 46.

(30) و (31) P.H.X، مصدر سابق، ص ص. 450 ـ 455. وعن الحركة « التبشيرية » في تونس أنظر مقال د. عبد الجليل التميمي « دور المبشرين في نشر المسيحية في تونس 1830 ـ 1887، في المجلة التاريخية المغربية، عدد 3، 1975، ص ص. 5 ـ 17.

(32) محمد الفاضل إبن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، ط. 3، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص ص. 46 ـ 47.

أ. هـ

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الدكتور عمار بوحوش
أستاذ بجامعة الجزائر
معهد العلوم السياسية

خصائص الثورة الجزائرية
مقارنة بالثورات الكبرى في القرن العشرين

شهد العالم في القرن العشرين عدة إنتفاضات ثورية في مختلف القارات، نتج عنها تغيير مجرى التاريخ في البلدان التي حدثت بها هذه الثورات حيث أطاحت هذه الانتفاضات الشعبية بالأنظمة السياسية الفاسدة وأقامت بدلا منها أنظمة ثورية جديدة. ونتيجة لهذه الانتقاضات برزت قوة إجتماعية جديدة وذلك بصفتها مجموعة من الآراء تعبر عن المطامح الانسانية للجماعات البشرية التي تسعى للتخلص من الأزمات السياسية والاقتصادية التي تتخبط فيها وإستبدالها بنظام جديد يستجيب لرغبات الجماهير المتطلعة لحياة أفضل. وفي العادة تكون هذه الآراء مجسمة لأهداف الجماعات البشرية وموحدة للجهود المشتركة التي تبذلها المنظمات الوطنية والأحزاب بقصد إدخال تغييرات جديدة على الأنظمة السياسة الموجودة، حتى يمكن ردع قوة الشر والطغيان المهيمنة على كل شيء بأي بلد. وفي الغالب تبرز هذه الأفكار الثورية في غمار الأزمات وتتحمس لها العناصر المتطلعة لحياة أفضل وذلك بإرتكاز قادة الحركات الثورية على هذا التيار الثوري الذي تقبله الجماهير الشعبية، وبذلك يحول القادة الثوريون ذلك التأييد إلى إيديولوجية سياسية معبرة عن مطامح الجماهير الشعبية وهادفة إلى تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية. وبذلك تتحول تلك الأيديولوجية إلى قوة إجتماعية قادرة على فرض قيمها وأساليبها الثورية التي تهدف إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية وإستبدالها بأوضاع جديدة تحل محل الأنظمة البالية.

ونستخلص من كل ماتقدم أن الأفكار السياسية التي تتحول إلى مذاهب وإيديولوجيات وطنية تحمل في طياتها كافة مظاهر الحياة الروحية والقيم الوطنية والاستراتيجية الجديدة لتغيير أهداف المجتمع وأوضاعه وإذا سرت فكرة في أوساط جماعة فسرعان ماتوحد أشتاتها وتشد أزرها وتمكن بنيانها، فيقودها إيمانها إلى مجابهة عظائم الأمور بعزم لايقل (1).

وعليه، فالقوة السياسية لأي تنظيم تنبع في الأساس من العمل الوطني المشترك الذي يخدم المصلحة العليا للوطن. والمذهب السياسي ماهو إلا تجسيد للعمل الوطني. وهذا العمل يرتكز بطبيعة الحال، على المذهب السياسي وذلك لتمكين القادة الوطنيين من تعبئة الجماهير وتوجيه طاقات الأفراد المناضلين نحو الأعمال المفيدة للأمة ككل والهادفة لتحقيق حياة أفضل وتلاحما وطنيا قويا. ولهذا إرتكز قادة جميع الثورات على مذاهب سياسية لخدمة وطنهم وتحرير بلدانهم من الفساد والانحلال السياسي وحماية تراثهم الوطني وشخصيتهم الوطنية من الذوبان والاندثار ولعل هذا ماكان يخامر أذهان القادة الأوائل في الاسلام الذين أدركوا منذ البداية أن وجود قبائل عربية وإسلامية متناحرة ومتصادمة لايجدي نفعا ولا يحقق أية قوة ومكانة مرموقة للمسلمين والعرب إلا بالتركيز على الاسلام الذي أضحى القوة الفكرية التي

إستطاع بواسطتها العرب أن يؤثروا تأثيرا إيجابيا وينشروا لغتهم وثقافتهم في رقعة كبيرة من أراضي آسيا وإفريقيا وأوروبا. بمجيء الاسلام ظهرت قوة إجتماعية متماسكة إستطاعت أن تغيرمجرى الأمور في التاريخ وتحلق إلتحاما أو تماسكا عربيا كان ضائعا في الجاهلية وفي عهد التمزق القبلي (2). وماقلناه عن المذهب الاسلامي ينطبق أيضا عن الديانة المسيحية حيث نجد أن البولونيين قد إعتنقوا الكاثوليكية ليحموا أنفسهم من الضياع والذوبان في الأمبراطورية الروسية الأرثدوكسية. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن المذهب الاشتراكي الذي إعتمد عليه المثقفون الروس لكي يتخلصوا من النظام الأقطاعي ومحاولة اللحاق بالغرب في ميدان التصنيع والتفوق عليه في الميدان التكنولوجي. ونفس المنهج سار عليه الجزائريون عندما إستعانوا بالاسلام وباللغة العربية والشخصية والقيم الوطنية كمعتقدات أساسية للحفاظ على الذاتية الوطنية.

ومن هذا المنطلق، فإن إيديولوجية الثورة الجزائرية كانت إحدى الوسائل التي إرتكز عليها قادة لتحرير الوطني لكي يوحدوا كلمة الشعب الجزائري، ويهيئوا الوسط الاجتماعي الصالح لنجاح الفكر الثوري المضاد للسياسة الاستعمارية بالبلاد، ويتجند الجميع لخوض معارك المصير المشترك وإسترداد السيادة والكرامة للوطن وقد إستعانت جبهة التحرير بهذه النظريات الثورية التي تشتمل على أساليب ذات فعالية كبيرة لتغيير الأوضاع السائدة قبل أول نوفمبر 1954، وذلك لكي تتمكن الجبهة من إستبدال القوانين الوضعية المعدة لخدمة أغراض الأجنب بقوانين جديدة تكفل العدالة والتقدم والارتقاء للمجتمع الجزائري الذي إنغرست في أذهان أبنائه هذه الأفكار الثورية. وبفضل تلك المجموعة من القواعد والاجراءات الثورية التي تضمنتها مواثيق الجبهة وإيديولوجيتها التي حددت معالم الطريق في الحاضر والمستقبل وكيفية تنظيم المجتمع الجزائري، إكتسبت القيادة السياسية للجبهة قوتها وحقها في تنظيم القوة الشعبية وتوزيع تلك القوة واستخدامها لصالح الشعب. وبذلك تجسمت السلطة الوطنية وأصبحت القوة أكثر دواما وتحظى بثقة جميع المواطنين الذين أصبحوا يشعرون أن إيديولوجية الجبهة تحولت إلى سلطة ملزمة، وهي تستحق الولاء والمساندة التامة لأنها تجسم مصالح الجماعات المتطلعة لحياة أفضل وتستجيب لرغباتهم في التخلص من غلاة الاستعمار وتقليص نفوذهم السياسي والاقتصادي بالبلاد.

الضغوط الاستعمارية تولد الانفجار

إن ثورة الجزائر في عام 1954 ليست إنقلابا ضد نظام وطني بورجوازي، مثل الثورة السوفياتية أو الصينية أو الكوبية، وإنما هي ثورة شعبية ضد الغزاة الأجانب الذين جاءوا من مختلف البلدان والجنسيات للاقامة في الجزائر والاستيلاء على خيراتها وتسليط جميع أنواع الاضطهاد ضد سكان هذا البلد. وخلافا لجميع أنواع الجاليات الموجودة بأي بلد تم إستعماره من طرف القوات الأجنبية، فإن المعمرين الأجانب بالجزائر قد إعتبروا أنفسهم متفوقين عرقيا وحضاريا وفكريا عن الجزائريين، ولذلك كانت خطتهم تقتضي بأن تكون العلاقات الموجودة بين المعمرين الوافدين إلى الجزائر وأبناء البلد الأصليين، دائما علاقة سيد بعبيده، أوعلاقة أسياد بأناس محرومين من السلطة والثروة. وفي حالة شعور هؤلاء الوافدين إلى الجزائر بالضعف [illegible] إستنجدوا بممثلي النواب [illegible] في باريس، ويقوموا

بالمناورات والمراوغات التي تبقي الجزائريين باستمرار تحت قبضتهم. ولعل هذه الاستراتيجية توضح لنا أسباب إستنجاد فرنسا نفسها بالحلف الأطلسي وقواته الهائلة لمحاربة الشيوعية الدولية وإبعاد الاتحاد السوفياتي وحلفائه من منطقة شمال إفريقيا!

والمشكل الأساسي بالنسبة للجزائر هو أن عقلية المعمرين الأجانب كانت عقلية متخلفة لأنهم تعودوا على المناورات البرلمانية والضغوط السياسية والمناورات التي تجرى خلف الكواليس وكان يخيل إليهم أنه من الصعب على الجزائريين المضطهدين أن يقوموا بشن حرب إستنزاف وينهكوا قوى فرنسا. وإذا حاول الثوار أن يجلبوا السكان إلى جانب الثورة فبإمكان فرنسا أن تقضي على قيادتهم وتزيلهم مع إيديولوجيتهم الثورية من الوجود. والأوروبيون المقيمون بالجزائر كانوا قد انطلقوا من فكرة وهي أن الجزائر مفتوحة لأية قوة أجنبية قادرة على إخضاع سكان هذه المنطقة لسلطتها، أي أن هذه الناحية من شمال إفريقيا عبارة عن منطقة تتداول على حكمها القوات الاستعمارية الغازية وسكانها يتحولون أتوماتكيا إلى رعايا تلك الدولة المستعمرة (بكسر الميم). وإنطلاقا من هذه الحقيقة كان دور الادارة الاستعمارية يتمثل في التحكم في السكان الجزائريين وليس تقديم الخدمات لهم (3). وهذه النظرة إلى الجزائريين من طرف الأوروبيين تعطينا الآن فكرة واضحة عن حتمية الصراع المحتدم بين جميع أبناء الجزائر والغزاة الذين يعتبرون البلاد عبارة عن أرض مفتوحة لمن يريد أن يحصل على ثورة أو يقيم إمبراطورية لنفسه أو يفرض الهيمنة الأوروبية على أبناء شمال إفريقيا وكما قال أحد الفرنسيين ذات يوم « فالمسلمون لايرغبون في أي شيء ولديهم كل مايحتاجون والفرنسيون ليست لديهم رغبة أو نية لتقاسم إمتيازاتهم أو سلطتهم مع أجناس يرغبون في أن ينزلوا بنا إلى درجة سفلى (4)؛،

ونتيجة لهذه العقلية والاتجاه الامبريالي، وإصرار الأقلية الأوروبية على إبقاء أغلبية الجزائريين تحت قبضتها بحيث تحافظ على جميع إمتيازاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فقد تولد الأحباط في نفوس جميع الجزائريين وأصبح كل فرد يسعى بطريقته الخاصة لتأليب الجماعات الأخرى ضد الوجود الأوروبي والدعوة للاعتماد على المواجهة والعنف والقيام بثورة عارمة تعيد للانسان الجزائري إعتباره في بلده وتحرره من قوى الشر والطغيان.

وقد إستفحل الوضع في نهاية القرن التاسع عشر، وبالتحديد يوم 1898/8/23 حيث تمكن المستوطنون الفرنسيون بالجزائر من الحصول على 6 مقاعد بالجمعية الفرنسية لتمثيلهم فيها، و 3 مقاعد في مجلس الشيوخ وذلك للدفاع عن مصالحهم الاقتصادية ونفوذهم السياسي بالجزائر وفي يوم 16 ديسمبر 1900 تقرر تخفيف نفوذ البيروقراطية الفرنسية بالجزائر وذلك بإنشاء المجلس النيابي الاقتصادي الجزائري المتكون من 48 مستوطن أوروبي، و21 مواطن مسلم جزائري مقسمون إلى 3 فئات : 49 مقاعد منهم يمثلون أبناء البلد الأصليين الذين يعيشون في الأراضي الخاضعة للسيطرة المدنية، و6 يمثلون أبناء الجزائر الذين يقيمون في القطاع التابع للحكم العسكري و6 يمثلون سكان القبائل الكبرى. أما الحاكم العام فكان يقوم بتعيين بقية النواب الذين يعتبرون أصدقاء لفرنسا ولأدارتها في الجزائر (5). وعن طريق هذا المجلس الذي كان بمثابة برلمان صغير داخل البرلمان الفرنسي الكبير تمكنت الجالية الأوروبية في الجزائر من التشريع وإصدار القوانين التي تحمي مصالحها الخاصة وإخضاع أبناء البلد الأصليين إلى الأمر الواقع المتمثل في وجود سلطة سياسية داخلية، وبفضل هذه

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

السلطة التشريعية المحلية تمكنت الجالية الأوروبية من التخلص من قيود باريس والحكام العسكريين بالجزائر.

وهكذا مست الاجراءات التعسفية المتخذةمن طرف الأوروبيين الحاقدين على الجزائريين جميع لمواطنين المسلمين المتواجدين في مختف القطاعات الاجتماعية والثقافية والزراعية والسيسية، أي لم يسلم من هذه الاجراءات أي أحد من أبناء البلد الأصليين. وإنطلاقا من هه الحقيقة بدأ رواد الحركة الوطنية الجزائرية يعملون بتكاثف ويبحثون عن مخرج للأزمت التي يواجهونها في بلدهم، وشرعوا في تنظيم أنفسهم لأبلاغ مطالبهم إلى المسؤولين الفرنسيين في باريس، وفي حالة ماإذا لم تجد مطالبهم آذانا صاغية، يتعين عليهم آنذاك أن يخوضا معارك ثورية بالسلاح ضد الجالية الأوروبية التي تطاردهم في بلدهم وتغلق الأبواب في وجوههم. وكانت الدوافع المشتركة لجميع الجزائريين لتوحيد الصف ضد خصمهم المشترك تتمثل في التخلص من الاجراءات والقوانين التعسفية التي كانت مسلطة على جميع أبناء اشعب الجزائري. أما الغاية من هذا التلاحم الوطني فهي تحرير الانسان والأرض في الجزائر عن طريق القوة والعنف. هذا هو الهدف الأساسي للجميع بالنسبة للمدى البعيد أما بالنسبة للمدى القصير أو المرحلة الأولى للعمل الثوري، فقد كانت خطة الثوريين تقتضي المطالبة بالمشاركة في الحكم والتوظيف والتمثيل النيابي، كما إرتأى المناضلون الجزائريين ضرورة مقاومة الضغوط الفرنسية والمحاولات الرامية لمسخ الشخصية الجزائرية وإظهار إمتعاضهم وإستيائهم من القوانين المجحفة التي تضر بالجزائريين والتي تمثلت في :

1 ـ فرض الخدمة العسكرية (سنة 1912) بدون الحصول على الحقوق الأساسية.
2 ـ إستيلاء المعمرين الأوروبيين على الأموال والأراضي التابعة للحبس.
3 ـ خلق عقبات في وجه الجمعيات الثقافية التي أنشئت بقصد المحافظة على الثقافة الاسلامية العربية بالجزائر خاصة وأن لم يعد للمدارس الحرة مصدر لتمويلها.
4 ـ إحلال قضاة السلام الفرنسيين محل القضاة المسلمين الذين يتبعون الشريعة الاسلامية.
5 ـ إجبار أبناء البلد الأصليين على تسجيل أراضيهم والقاء القبض على الافراد الذين إحتجوا على هذا الاجراء.
6 ـ مضايقة الأشخاص الذين يطلبون التصريح لهم من طرف المسؤولين الفرنسيين بالتنقل من مكان إلى آخر.
7 ـ إقامة محاكم إستثنائية لفرض عقوبات صارمة.
8 ـ فرض ضرائب تصاعدية على أبناء البلد الأصليين تعرف بإسم « الضرائب العربية ».
9 ـ إنعدام أي تمثيل سياسي عادل.
10 ـ إنتشار الأمية بين الجزائريين وصعوبة الحصول على وظائف عالية
11 ـ الاحجام عن تصنيع الجزائر حتى تبقى هذه الأخيرة تابعة للاقتصاد الفرنسي.
12 ـ تضاؤل فرص العمل وتشبع القطاع الزراعي الذي لم يعد قادرا على إستيعاب الطاقات البشرية المتوفرة بكثرة.
13 ـ عدم إستفادة الجزائريين من القروض والاعانات المالية المخصصة للتنمية الزراعية.
14 ـ تطبيق قوانين إستثنائية على الجزائريين وعدم تطبيق نظام القوانين الفرنسية على أبناء البلد الأصليين إلا بعد [illegible] بالجزائر

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

15 ـ القضاء على نشاط المنظمات الثقافية التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري (6).

لقد أتيت على ذكر هذه القرارات التعسفية ضد الجزائريين أيام الاحتلال لكي أوضح أنها كانت تمس بجميع الأفراد والجماعات، وتضرر الجميع منها، وذلك ساعد في تنظيم جبهة مشتركة لتحرير الانسان والأرض من مظالم الجالية الأوروبية المهيمنة على كل شيىء بالجزائر، ومايمكن أن نستخلصه من هذه الظاهرة هو أن الأوروبيين كانوا يحاربون فكرة وجود أي تنظيم محلي قوي يساهم في تنمية البلاد وتقويتها لأن وجود منظمات تعليمية يساعد على خلق وعي ويقظة الرأي العام الجزائري، ووجود أموال وثروة إقتصادية في يد أبناء الجزائر يقود إلى مساهمتهم في إنتعاش الاقتصاد الجزائري ومنافسة البضائع الفرنسية، وبالتالي بروز شخصيات جزائرية قوية في الساحة السياسية الداخلية.

خصائص ثورة التحرير الجزائرية

إذا كانت إستراتيجية المستوطنين الأوروبيين بالجزائر هي التحكم في أوضاع الجزائريين وإخضاعهم للنفوذ الفرنسي والقضاء على الشخصية الجزائرية، فإن هذه الاستراتيجية كانت خاطئة، إذ أن هذه التصرفات العشوائية هي التي خلقت القاعدة الأساسية والأرضية المشتركة لجميع الجزائريين الذين أصبحت عندهم قناعة جماعية أن مصيرهم يتوقف على وجود جبهة مشتركة هدفها الأساسي هو « سحق العدو المشترك ». ولتحقيق هذا الهدف تمت دعوة جميع الجزائريين الذين يهمهم زوال النظام الاستعماري وذلك بغض النظر عن إتجاهاتهم السياسية ومكانتهم الاجتماعية. فالظروف الصعبة التي أصبحت تمر بها الجزائر لم تعد تسمح بوجود شيء إسمه تعصب وتعلق برأي زعيم سياسي معين. إلا أن الايديولوجية الثورية للجزائر المقاتلة هي التي تتضمن التراث المشترك لجميع المواطنين الجزائريين، وجبهة التحرير التي برزت إلى الوجود في عام 1954 هي المنظمة الوطنية الوحيدة التي استقطبت جميع الاتجاهات، والبوتقة التي إنصهرت فيها جميع الفئات والهيئات السياسية المتواجدة بالبلاد (7).

وباختصار، فإن الثورة قد فتحت الأبواب أمام جميع الجزائريين وأعطتهم الفرصة لكي ينالوا حقوقهم، وأزالت من أذهانهم عقدة العجز والتخوف من قوة فرنسا وأسلحتها الجهنمية. وتميزت هذه الثورة بخصائص واستراتيجيات نابعة من ظروف الجزائر وطبيعة الشخصية الجزائرية وهذه الخصائص أو المميزات الواضحة لمعالم الثورة الجزائرية تتمثل في أنها :

1 ـ ثورة جماهيرية ولم تكن مسيرة أو موجهة من طرف زعيم واحد أو تهدف إلى تحقيق مطامح فئة إجتماعية أو سياسية في نطاق معين، وهي في هذا تختلف عن الثورات الصينية واليوغوسلافية والسوفياتية والكوبية التي كان يتم توجيهها من طرف قيادات حزبية ذات إيديولوجية سياسية يغلب على قيادتها الطابع الفردي.

2 ـ ثورة ذات عقيدة إسلامية، فدخول الاسلام إلى الجزائر كان عامل وحدة وجلب عقيدة ساهمت في توحيد السلوك والاتجاهات، ولغة وحدت التفكير والشعور. وبمعنى آخر فالعقيدة الاسلامية خلقت حضارة عربية إسلامية كاملة مكنت الجزائريين من الالتفات حولها حتى صاروا أقوياء متماسكين. فالاسلام الذي يجسم القيم العليا للشعب الجزائري

ساهم في حماية الشخصية الوطنية من الوبان في الشخصية الأوروبية وحفظ للشعب الجزائري كيانه وشخصيته ومقومات هذه الشخصية. فالاسلام كان مشعل الثورة مبادءه كما قال حد المؤرخين، فإنه لولا الدعوة إلى لاسلام والالتفات حول هذه العقيدة وتعاليمه القيم التي تدعوا إلى مقاومة الاستعمار بإسم الايمان والجهاد في سبيل الله والوطن لكان في الامكان ذوبان السكان المحليين المتخلفين في مجتمع الأوروبيين المتقدمين (8) وهذه الخاصية غير موجودة في الثورات الكبرى بإستثناء الثورة الايرانية ضد الشاه والتي كان منطلقها العقيدة الاسلامية.

3 ـ ثورة قامت على أساس قيادة جماعية وعمل مشترك، فالمسؤولية في الثورة الجزائرية كانت تسندلكل شخص أثبت تفانيه وإخلاصه تضحيته من أجل نجاح الكفاح المسلح. وفي هذا لاطار يجدر بنا أن نشير إلى أن جبهة التحرير هي الحركة الثورية الوحيدة التي إستطاعت أن تحلب إلى صفها الأحزاب الرئيسية بالبلاد التي قبلت بحل نفسها وإنضمام أفرادها إلى حركة ثورية تجسم آمال الجماهير وتعتمد على العمل الجماعي كوسيلة للنظام وقهر العدو المشترك. فالتخلي عن الحزبية والانضمام الفردى إلى القيادة الجماعية للجبهة كانت عملية فريدة من نوعها أما في معظم الثورات الأخرى فإن الأحزاب اليمينية أو المحافظة كانت قد دخلت في حروب مدنية ضد الأحزاب الثورية.

4 ـ ثورة قادتها عناصر وطنية تنتمي إلى الفلاحين والعمال ولاتنتمي إلى نخبة المثقفين أو البرجوازيين الثائرين على الفساد السياسي الموجود بالبلاد. ففي الجزائر كان العمل الثوري قد سبق التنظير السياسي حيث أن قادة الثورة كانوا من الوطنيين المتشبعين بفكرة الثورة على الظلم والاضطهاد تحت النظام الاستعماري. أما المثقفون القليلون الذين صعدوا إلى مركز القيادة في الثورة فقد إنضموا إليها إنضماما بعد أن رأوا فعالية وسلامة إتجاه التيار الثوري (9).

5 ـ ثورة ضد الاحتلال الأجنبي، وبالتالي فهي ثورة ضد قوة أجنبية تعتبر الجزائر جزء لايتجزأ من أراضيها ولهذا، فإن ثورة الجزائر تختلف عن الثورات السوفياتية والصينية والكوبية والايرانية التي كانت كلها ثورات ضد الحكم البورجوازي الرأسمالي الوطني وبدون شك، فإن هذه الظاهرة تكون قد ساهمت وساعدت على توحيد صف الجزائريين ضد الغزاة الأجانب لأن الاختيار لم يكن بين مواطنين معتدلين يتعاونون مع الأجانب وبين مواطنين ثوريين مثلما كان الحال في معظم الثورات، وإنما كان الاختيار في الجزائر بين ثوار وطنيين وبين محتلين أجانب قدموا من أوروبا لتسليط القمع والارهاب على جميع الجزائريين.

6 ـ ثورة جاءت لتعيد الاعتبار لكل الفئات الوطنية وتخلق قوات إقتصادية وإجتماعية جزائرية جديدة بحيث تنال كل فئة أو طبقة حقها ونصيبها في الثروة والنفوذ والتحكم في مجرى الأمور وبكلمة أخرى، فإن الثورة الجزائرية قد أيقظت في الآلاف من الناس المحرومين والمعذبين في الأرض آمالا وطموحات لم يكونوا يعرفونها من قبل أو على الأقل لم يكونوا يشعرون أنه في إمكانهم نيلها. وبتعبير آخر فإن الثورة فرضت تكيفا جديدا للأفكار والأوضاع في الجزائر بما يتفق والأهداف التي تضمنتها مواثيق الجبهة وكانت النتيجة في نهاية الأمر التخلص من خرافة قوة العدو التي لاتقهر وإزالة عقدة العجز عن مواجهة العدو والتفوق عليه وجبره على الرضوخ للمطالب الشرعية وهذا الوضع يختلف عن أوضاع الثورات الأخرى التي كانت تسعى لتغيير الأوضاع لصالح فئة المحرومين من طبقة معينة وتحديد سلطات البورجوازيين والأثرياء المتواطئون مع الفئات الحاكمة

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

7 ـ ثورة للتخلص من التبعية الأجنبية في الميادين السياسية والاقتصادية، وهذه خاصية تشترك فيها الجزائر مع معظم الثورات التي حصلت في القرن العشرين وكما لايخفى على أي قارىء لتاريخ الثورات، فإن الثوريين السوفياتيين واليوغسلافيين والصينيين والكوبيين والجزائريين كانوا يناضلون جميعا من أجل تحرير بلدانهم من المجموعات السياسية والاقتصادية المتواجدة ببلدانهم والتي كانت تتعامل مع أصحاب رؤوس الأموال الأجانب الذين كان همهم الوحيد هو إستثمار أموالهم والحصول على أرباح خيالية وإبقاء الدول الفقيرة خاضعة لنفوذهم السياسي والمالي. ومعنى هذا أن الثوريين كانوا يدركون أن تقدم بلدانهم مستحيل في ظل وجود رؤوس أموال أجنبية لاتستعمل من أجل خلق تنمية صناعية حقيقية وأنما تستعمل من أجل إبقاء التحكم في مسار التنمية وتدعيم الخونة الذين يتعاونون مع أسيادهم الأجانب ولهذا كانت الثورات كلها تدعوا إلى خلق مؤسسات إقتصادية وطنية قادرة على إستثمار الثروات المحلية وتوجيه تلك المؤسسات من طرف عناصر محلية متشبعة بالروح الوطنية (10).

8 ـ ثورة قامت على أساس وجود سلطة مركزية صارمة، وهذه الخاصة جعلت ثورة 1954 مختلفة عن بقية الانتفاضات التي وقعت في الجزائر منذ 1830 لأن الاستعمار الفرنسي تمكن من محاصرة أية منطقة تقع بها الانتفاضة ويقضى عليها وبفضل التنسيق والتعاون والتخطيط الاستراتيجي للثورة في عام 1954، إستطاعت الثورة الجزائرية أن تخلق التوازن الوطني وتجند جميع المواطنين (بغض النظر عن العرق أو اللغة التي يتكلمونها) لكي يتعاونوا جميعا من أجل المصلحة المشتركة ويمنعوا الاستعمار من إلحاق أى ضرر بأية منطقة. فإذا تجرأ الاستعمار على حشد قواته في أية ناحية لضرب منطقة معينة، تقوم مجموعة أخرى من الثوار بضربه في مناطق أخرى حتى يخفف الضغط على المناطق المحاصرة أو المتضررة من ضربات القوات الاستعمارية. وهكذا برزت فعالية السلطة المركزية لجبهة التحرير وإستحال على العدوان أن ينجح في سياسة « فرق تسد » أو خلق قوة ثالثة مضادة للثورة.

9 ـ ثورة ضد التدخلات الأجنبية في الشؤون الداخلية لكل بلد، وهذه الحقيقة معروفة عن ثورة الجزائر لأننا مازلنا إلى يومنا هذا ننادي بتقرير المصير لكل الشعوب المضطهدة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل بلد فبفضل التعلق بهذا المبدأ والالتزام به، إستطاعت ثورة الجزائر أن تزيل بعض الخرافات والتمويهات مثل إرسال أسلحة الحلف الأطلسي إلى الجزائر لمحاربة الثوار بدعوى محاربة الشيوعية الدولية، وكذلك إبطال حجة فرنسا الموجودة بأوروبا بأن الجزائر الموجودة في إفريقيا جزء لايتجزأ من أراضيها ولاينبغي عرض قضيتها على الأمم المتحدة. وقد بلغ الأمر بفرنسا وبريطانيا أن تقوما بهجوم على مصر في عام 1956 وذلك بسبب إقدام مصر العربية على تقديم يد المساعدة للثوار الجزائريين وذلك يعتبر في نظر فرنسا تدخلا في شؤونها الداخلية لكن المقاومة الشعبية في الجزائر ومصر وعدم موافقة الدول الصديقة والشقيقة على سياسة التدخل في الشؤون الداخلية سواء بالنسبة للجزائر التي هي عربية أو مصر التي تساند بلدا عربيا شقيقا، ساهما في إفشال سياسية تدخل الدول العظمى في الشؤون الداخلية للدول الصغيرة.

10 ـ الثورة تقيم علاقات إجتماعية جديدة، ونقصد بذلك أن الجزائر كان يتم تسييرها من أوروبا (وبالتدقيق من باريس) وبالداخل، كان الفرنسيون يتحكمون في المدن الكبرى وعملاؤهم القياد (الذين يأتمرون بأوامر قادة الجالية الفرنسية بالمدن) كانوا يحكمون الريف

الجزائري وعليه كانت مراكز القوى الثلاثة تسعى للمحافظة على إمتيازاتها، والجزائريون غير المتواطئون مع قوات الاحتلال كانوا يعيشون على الهامش وبفضل قيام الثورة، وقعت تغيرات جتماعية وتوطدت العلاقات بين الموالنين وذابت تلك الفوارق المصطنعة بحيث أصبحت لقيادة الثورية تسعى لتقديم الخدمات للجميع وليس التحكم في المواطنين وإستغلالهم مثلما كانت تفعل الادارة الاستعمارية في السابق.

وباختصار شديد فإن ثورة الجزائر قد إمتازت بمقدرتها على الاعتماد على نضال أبنائها في الداخل ولخارج والاستعانة بالأشقاء العرب وأصدقاء لدعمها وتمكينها من الانتصار على الدخلاء الأجانب كما أن ثورة الجزائر قد إستطاعت بفضل الله وفضل الرجال المخلصين أن تصمد وتمضي في النهاية على النظام البيروقرطي المناهض لها في فرنسا ذاتها. فقد كانت الأحزاب السياسية تتلاعب فيما بينها وتتآمر ضد ثورة الجزائر، حيث كان يحق للنواب الفرنسيين في عهد الجمهورية الرابعة أن يطيحوا بأية حكومة فرنسية تحاول أن تتفاوض مع جبهة التحرير وتعترف بها، وذلك بدون أن يفقد أولئك النواب مقاعدهم النيابية في الجمعية الوطنية الفرنسية. لكن تصميم الجزائريين على إستعادة حريتهم واستقلال بلدهم، خلق أزمات سياسية وإقتصادية في فرنسا نفسها، الشيء الذي نتج عنه خضوع فرنسا للأمر الواقع، تحت ضغوط جبهة التحرير، والتخلص من الجمهورية الرابعة واستبدال ذلك النظام البائد بالجمهورية الخامسة وهكذا أصبح النائب الفرنسي في العهد الجديد يفقد مقعده في البرلمان إن هو أقدم على إسقاط الحكومة فسقوط الحكومة في الجمهورية الخامسة يعني سقوط البرلمان، وحله، ثم إجراء إنتخابات جديدة قد ينجح فيها النائب وقد يفشل.

الحسابات الخاطئة في إستراتيجية الأوروبيين

لقد تكلمنا عن خصائص الثورة الجزائرية وإستراتجيتها لتحرير الانسان والبلاد من الهيمنة الأجنبية والآن يجدر بنا أن نشير، ولو بإختصار، إلى خطط الجالية الفرنسية في الجزائر ونظرة قادتها إلى كيفية إخماد الثورة ومعاقبة قادتها. فمن جملة التصورات التي كانت تجول بأذهانهم، نخص بالذكر النقاط التالية :

1 - إن إيديولوجية الثورة مستوحاة من الخارج، أي أن جمال عبد الناصر وقادة العالم العربي هم الذين حرضوا قادة الجبهة على القيام بالثورة وطرد فرنسا من شمال إفريقيا. ولهذا ينبغي القضاء على هذه العناصر الوطنية التي تعتنق إيديولوجية معينة وتطمح للوصول إلى السلطة والاستيلاء على الحكم.

2 - إن إستراتيجية الثورة مبنية على حرب الاستنزاف وإطالة أمد الحرب حتى تنهك قوى فرنسا إقتصاديا وتقبل في النهاية التفاوض مع الجبهة وترك الجزائر لأنها غير قادرة على تحمل الخسائر المالية ولهذا ينبغي أن تستعمل فرنسا كل قواتها وتهزم الثوار بسرعة.

3 - إن خطة جبهة التحرير هي الاعتماد على السكان في الريف وجلبهم إلى صفها وتجنيدهم لخدمة قضيتها ولذلك ينبغي أن تنزل فرنسا أشد العقوبات بالقادة الذين يتعاونون مع الجبهة وينشرون إيديولوجيتها في صفوف السكان وبالتخلص منهم تفقد الثورة تلك العناصر القيادية التي تقوم بعملية التوجيه الايديولوجي والحربي في آن واحد.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

4 - إن الحيلة التي تستعملها الجبهة هي الدخول في مفاوضات من أجل السلام، لكن الثوار، في الواقع لاتهمهم المفاوضات ووضع حد للحرب. إنما الشيء الذي يهمهم بالدرجة الأولى هو الاعتراف بالجبهة كقوة سياسية وذلك لكي يحصل الثوار على مكاسب سياسية ويستولوا على السلطة في النهاية. فالمفاوضات بالنسبة للجالية الأوربية بالجزائر ماهي إلا مقدمة للاستيلاء على الحكم بطريقة تدريجية (11).

5 - إن الجبهة تحصل على مساعدات من الخارج لتمويل الحرب التحريرية، ولذلك لابد من فرض رقابة قوية على الحدود ومنع هذه المساعدات من التسرب إلى داخل الجزائر.

إن الاحتكاك الموجود بين سكان الريف ورجال الجبهة هو الذي يتسبب في إنتشار الثورة وتمويل الثوار وتزويدهم بأخبار تحركات القوات الفرنسية لهذا ينبغي نقل السكان من ديارهم وجمعهم في محتشدات تكون مراقبة ومحمية من طرف الجيش الفرنسي وبذلك يمكن حماية السكان من دعاية الجبهة وتهديد رجالها لهم بالقتل؛ إن هم إمتنعوا عن تقديم المساعدة لها.

7 - إن القادة الذين يقعون في قبضة قوات الأمن والجيش الفرنسي لابد أنهم تعرضوا لمغالطات ودعاية جبهة التحرير ولهذا فمن الواجب إعادة تربيتهم وتوجيههم توجيها صحيحا.

8 - بما أن الجزائر بالنسبة لفرنسا جزء لايتجزأ منها، فقد طالب المستوطنون الفرنسيون بالبحث عن إيديولوجية جديدة لفرنسا في العالم وتقوم هذه الايديولوجية على أساس حماية الجزائر وإنقاذها من السقوط في مخططات الوحدة العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج.

9 - إن الجيش الفرنسي هو رمز قوة هذه الدولة العظمى. وعليه فلا بد أن يكسب هذه المعركة بالجزائر ويستعيد مكانته المحترمة في المجتمع الفرنسي.

10 - إن تواجد الجيش الفرنسي بكثرة في الجزائر يكلف الدولة ثمنا باهضا، ولذلك لابد أن يعتمد المستوطنون الأوروبيون بالجزائر على أنفسهم ويقوموا بالمهام المسندة إليهم والدفاع عن أنفسهم دون الاعتماد على الجيش (2).

هذه هي الخطط المضادة للثورة الجزائرية التي أعدها قادة الجالية الأوروبية بالجزائر لخنق الثورة والتغلب على 8 ملايين جزائري والمحافظة على إمتيازاتهم السياسية والاقتصادية بشمال إفريقيا. ولكن هذه الحسابات والاستراتيجيات كانت خاطئة وغير ناجعة لأن المحتلين الأجانب أساؤا التقدير وتجاهلوا مقدرة شعب على تنظيم أبنائه وتوجيه ضربات قاضية لمجموعة من المغامرين الأوروبيين الذين عاثوا في الأرض فسادا وإستطاعوا أن يقنعوا فرنسا بأنهم يشكلون النخبة التي تديم وجودها بالجزائر. وهذه إحدى الغلطات الفادحة التي إرتكبتها السلطات الفرنسية بالجزائر حيث سمحت لمجموعة من المعمرين أن يتصرفوا كما يحلوا لهم، ولم تجبرهم على إقامة مؤسسات دستورية وأجهزة إدارية قادرة على تقديم الخدمات والاستجابة لرغبات المواطنين الجزائريين كما أن هذه الاستراتيجيات قد فشلت لأن التحالف بين السلطات الفرنسية في باريس والجالية الأوروبية في الجزائر كان وثيقا ولم يبق أي مجال للجزائريين سوى التحالف فيما بينهم وتكوين جبهة مشتركة ضد الطرفين الأوروبيين المصممين على إذلالهم وإهانتهم. فالمستوطنون الفرنسيون كانوا لايثقون في الجزائريين وإمكانية العمل الجماعي والحوار والتفاهم بشأن خدمة البلاد كانت معدومة. كما أن الأوروبيين

كانوا يجهون الضربات بطريقة عمياء إلى كل الجزائريين وذلك في حالة تعرضهم لأي ضرر أو هجوم مفاجيء كما فشلت خططهم، أيضا، بسبب المحاولات المبذولة لأبقاء الجزائر متخلفة وغير مصنعة حتى لاتكون هناك منافسة للبضائع الفرنسية في الجزائر ويستمر الجزائريون في العمل بأجور زهيدة سواء في الزراعة أو في أعمال أخرى يقوم بها المعمرون الأوروبيون. ثم أن المليون أوروبي المتواجدون بالجزائر عند قيام الثورة في عام 1954 كانوا يحلمون بالاحتفاظ بميراث كبيرة وسلطات واسعة، ويحتكرون المناصب السياسية العليا، في حين أن عددهم صغير مقارنة بثمانية ملايين من الجزائريين، وقوتهم الحقيقية كانت لاتضاهي مطالبهم وليس في إمكانهم الدفاع عن أنفسهم في حالة قيام مجابهة حقيقية بينهم وبين أبناء البلد الأصليين الذي يفوقونهم قوة وعددا.

خلاصة وإستنتاجات

إن كرة الثورة في الجزائر كانت موجودة في أذهان الجزائريين منذ اليوم الأول الذي وطئت فيه أقدام الفرنسيين أراضيهم. وقد كانت الأعمال الثورية عبارة عن إنتفاضات في جهات ومناطق معينة، كان في إمكان الفرنسيين تطويق تلك الجهات والقضاء عليها وتسليط أشد العقوبات على كل من تجرأ أن يتمرد على فرنسا. لكن الوضع تغير في عام 1954 حيث إنطلقت الثورة على المستوى الوطني وأخذت طابعا شموليا وتنسيقيا محكما وتعذر على القوات الفرنسية أن تحاصرها وتقضي عليها... كما أصبحت فكرة الثورة في عام 1954 عبارة عن إيديولوجية قوية تستمد جذورها من الواقع الجزائري ومن الأوضاع العامة المتدهورة، وساعدت تلك الايديولوجية الوطنية قادة الثورة في تفجير الثورة وتحويل النظريات إلى مناهج عمل لتحرير الانسان والأرض وإستعادة السيادة الوطنية عن طريق العنف والقوة لأن ماأخذ بالقوة لايسترد إلا بنفس الطريقة. وقد أصبحت الايديولوجية الثورية للجزائر هي السند الفكري لجبهة التحرير التي إعتمدت على تلك الآراء الثورية لكي تطيح بالنظام الاستعماري الفاسد، وتوحد آراء جميع الجزائريين وتجعل منهم شعبا متحدا، يشترك جميع أبنائه في خوض معركة المصير المشترك، وتخليص الوطن من الهيمنة الاستعمارية.

إن ثورة الجزائر قد عبرت عن آمال كل إنسان مضطهد في الجزائر، وخلقت قناعات عامة بأن الأسلوب الثوري هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن كل فرد من المساهمة في تغيير الأوضاع لصالحه ولصالح المجموعات المحرومة مثله. فالثورة بالنسبة للمواطن الجزائري أصبحت هي الوسيلة الوحيدة لأعادة الاعتبار إليه وتمكينه من تشييد حياة أفضل وإعطائه الفرص الذهبية لتحقيق مايصبوا إليه من رفاهية وحياة كريمة. أن الشعور المشترك بالظلم قد دفع بالجزائريين أن يقيموا علاقات جديدة فيما بينهم تقوم على أساس التعاون والاعتماد على القرآن وقواعد العمل الاسلامية والتشاور فيما بينهم بشأن خلق التنظيم الاجتماعي الذي يليق بالجزائر في أوقات الحرب وأوقات السلم. وبمضي الوقت تحولت الايديولوجية السياسية لجبهة التحرير إلى قواعد وإجراءات عمل لتدعيم الجهاز المركزي للدولة الجزائرية، ووسيلة فعالة لتنظيم القوة التي إكتسبها الشعب الجزائري من خلال مساندته المطلقة للكفاح المسلح لأسترداد الحرية والكرامة لكل مواطن جزائري وقد بعثت الثورة بفضل وعي الجماهير ورغبتها القوية في حمل السلاح [illegible] لقد طالت الحرب وتحمل

الجزائريون جميع أنواع الاضطهاد والحرمان والتشريد خلال سنوات طويلة لكن إنتصروا في النهاية لأنهم كانوا مقتنعين في قرارات أنفسهم بأنهم على حق وخصمهم على باطل كما أنهم برهنوا من خلال تحليهم بالصبر ووجود عزائم قوية لاتوهن، عن أصالتهم الثورية الاسلامية والعربية لأنه كان عندهم إيمان بعدالة مطالبهم وإيمان قوي يحركه الشعور بالظلم.

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

1 – فؤاد محمد شبل، الفكر السياسي : دراسة مقارنة لمذاهب السياسية والاجتماعية.
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص 26.

2 – عزيز لسيد جاسم، موضوعات عن الثقافة والثورة، بيروت : دار الطليعة، 1972، ص 118 ـ 120.

3 – John Dunn, Modern Révolutions, Cambridge : Cambridge Universite Press, 192, P. 6.

4 – Charles – Robert Ageron, Les Algérien, Musulmans et la France : 1871 – 191
Paris : P.U.F. 1968, p. 44.

5 – عمار بحوش، العمال الجزائريون في فرنسا الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص 87 ـ 88.

6 – Charles – Robert Ageron, "L'émigration des Musulmans Algériens et l'exode
Tlemcen : 1830 – 1911".

Annales Economiques Sociétés, civilisations,
Vol. 22 N° 5 (Septembre – Octobre) 1967, P. 1063.

7 – عمار أوزقان، الجهاد الأفضل بيروت : دار الطليعة 1962، ص 134.

8 – محمد شيت خطاب، المغرب العربي بيروت : دار لفكر، 1984، ص 346 ـ 347.

9 – أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزئر (الطبعة الثانية)
ئر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص 48 ـ 49.

10 – Milvan Djilas, the new Class, new york : Praeger, 1958, p. 16.

11 – Peter Paret, Frunch Revolutionary Warfare : From indochina to Algeria, New york :
Praeger, 1964, pp. 22 – 26.

12 – Ibid ; pp. 22 – 27.

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الهوامش

جامعة دمشق، سوريا

أصالة الثورة الجزائرية

كما أن الماء لايهدى إلى النبع، ولا اللبان إلى الضرع، ك
والجزائريين، فالجزائر هي الثورة بعينها، الجزائريون جميعا
وأطفالا وقودها ولهيبها، والقادة أبطالها، الجزائر أرض الثورا
الثورة، وكل حبة رمل في ترابها لثورة، وفي ماضي الجزائر وحا
حاضرها المعاصر ثورة بناء وتعمير.

وثورة الأول من تشرين الأول (نوفمبر) 1954 ثورة على ال
على الأبصار والأفئدة والعقول، وحرم الجزائر من تقدمها الطب
طول المعاناة وراءة التجربة الاستعمارية، وأرادت أن تقوض ركـ
الكتاب والمؤلفين والمؤرخين الغربيين لأنفسهم متأثرين بالنزع
تخريب فإن لأعمالها مايبرر، لأن كل ثورة تهدم وتعمر، لقد أتى
ماخرب : خرب بلاد العامرة، وخرب النفوس، وإعتدى عل
لاتعد أعماله تخريبا في نظرهم، وإذا قبل جدلا مبدأ التخريب
ويعتدى عليها، وبين من يقادم الاستعمار بالتخريب، إذا
الكرامة لبلاده وأبناء وطنه، ويدافع عن قضية نبيلة عادلة.

أسطورة حاك خيوطها تاجران يهوديان جزائريان، بكرى و
الفرنسي في الجزائر، بيردوفال، ومع تاليران السياسي ال
الحبوب وتغطية المؤامرات التي دبرت على الداى حسين لتقاس
الصفقة الحقيرة وإنطلت على الناس آنداك، وصدقتها فرنسا

وترتب على هذه الأسطورة المنتحلة تلك الحملة الفرنسية
الجزائر صراخ الخامس من تموز (يوليو) 1820، وضرجت
ونزعت الأعلام الجزائرية عن الحصون والقلاع ودور الح
الاستعمار الفرنسي، وبدأت منذ ذلك اليوم المشؤوم المأساة ا

هذه الأسطورة الخرافية، وتتخلص في حادث طفيف معر
إدعى دوفال، ومن آخذ بإدعائه، لقد كان للداي حسين دين
التي إستلفتها من الجزائر ولم توف ثمنها، وعيل صبر الداي،
جهل بما يدبر في الخفاء، وطالب الداي بوفاء الدين، وأجاب
الداي إلى القنصل بمديده وليخرج من حضرته، فخرج
لاتتعدى الأعذار التافهة.

وبعض المؤلفين الفرنسيين ذكروا أن الداي أمر دوقال با
وضربه الداى بمروحته غير أن آخرين من المؤرخين أحسر
تدخلت في الجزائر عام 1820 في ظروف ملتبسة ولا مجال لذ

الدكتور نور الدين حاطوم

تامين نفوذ في فرنسا بالضرب على أيدى المعارضة، وأشغل الرأي العام الفرنسي برواء الفتح وزهر المجد، ولم يصغ إلى الأصوات المجلجلة بأن فرنسا بحاجة إلى إصلاح وليست بحاجة إلى إحتلال.

وأنصار العدوان من الفرنسيين الذي يطمحون إلى المجد والثراء عن طريق الغزو وإستغلال خيرات الشعوب، كانوا يذهبون مذهبا آخر، فقد صرح الجنرال جيرار وزير الحربية الفرنسي، فور إنزال القوات الفرنسية على أرض الجزائر بقوله « إن الاحتلال يستند على ضرورات هامة جدا، ويرمي إلى فتح منفذ واسع لتصريف بضائعنا ».

ودفعت حملة الجزائر فرنسا إلى البحث عن المواد الأولية التي تشكوا قلتها في أرضها وفتح أسواق لتصريف منتجاتها الصناعية، وصرح الجنرال الأنف الذكر أيضا : « إن هذا الغزو قائم على حاجات حتمية في غاية الأهمية، ومرتبط بحفظ النظام في فرنسا وفي أوربا ».

وبين هذه الحاجات هي فتح مجالات واسعة للفائض من مواطنينا وتصريف منتجات صناعتنا ومبادلتها بمنتجات أخرى غريبة عن أرضنا وجونا.

ويذكر الدوق كليرمونتاياك، وزير الحربية الفرنسي، في تقرير له عن إحتلال الجزائر بأن فتح هذا القطر إنما هو حملة من تلك الحملات الصليبية التي توجهها أوربا إلى الشرق والغرب بين حين وآخر ويضيف أنها المشيئة الألهية التي قضت بأن تدعو سليل القديس لويس ليأخذ بالثأر، ولينتقم للدين وللانسانية، وليغسل العار الذي لحق بذاته ويستطرد في تقريره قائلا ولسنا بحاجة إلى إقتناع جديد بأن لاسبيل إلى إستقرارا الأمن في الجزائر الاباابارة أهلها جميعا (1).

1) راجع أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية ص 46، دار العلم للملايين، بيروت 1957.

والحقيقة، مهما بالغ المبالغون، ورغم وقاحة اقنصل لايمكن أن يتصور أن الداي يمكن أن يتفوه با يسيء لنفسه ولدولة يعتبرها صديقة، وبينها علاقات طبيعية، والتفسير الذي يمكن أنيؤخذ به هو أن أبناء البحر المتوسط، ومنهم أبناء جنوب فرنسا يشيرون أثناء حديثهم، بحركات إرادية متممة لكلامهم، واستغل دوفال الاشارة بالمروحة وإعتبرها لطمة وإهانة.

ومع ذلك، فقد كان من الممكن لفرنسا أن طلب إصلاحا أو تقديم إعتذار لما حصل لوكان صحيحا، بيد أم الملك شارل العاشر، ملك رجعة النظام القديم، وحكومته، ومن إلتف حول من القادة وأمراء أعماء المغامرين، إستغلوا هذا الحادث لفتح الجزائر، وكانت لهم فيها مطامع وطموحات، وبرر الملك مغامرته بأن إحتلال الجزائر كان أخذا بثأر الاهانة التي ألحقت بفرنسا، وأن كرامة فرنسا فوق كل إعتبار، وأنه في عمله هذا لاينظر إلا لمصلحتها.

هذه الاعذار لم تنطل على أحد، بل ان هناك عوامل سياسية وإقتصادية ودينية دفعت شارل العاشر وحكومته إلى إتباع هذه السياسة العدوانية على الجزائر، لقد كانت فرنسا تفكر بالجزائر منذ أيام الثورة الفرنسية، فجاء شارل العاشر وحقق الأحلام وكان يريد من ذلك

Créé avec nitro PDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

(1) راجع : محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزء الأول ص 19 ـ 20 المطبعة القانونية 1965.

(2) لأخذ فكرة واضحة عن تاريخ الجزائر وثوراتها في التاريخ الحديث والمعاصر، راجع كتابي الدكتور محمد خير فارس : وهما،
1/ تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي دمشق 1969
2/ تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، دمشق 1971 / 1972.

عن القانون والعاطلين عن العمل، والمغامرين ممن ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم تطوعوا في « الجوفة الأجنبية ».

ويذكر الأستاذ محمد علي دبوز، نقلا عن المؤرخ الفرنسي شارل آندره جوليان بعد د الجيش الفرنسي في الجزائر، أركبت السفن الآتية من مرسيليا وإسبانيا وإيطاليا، جماهير من الأوربيين لاذمة لهم ولاضمير مجبولين على الشراسة والمغامرة مولعين بحب الـ والدنانير، فانتشروا كالبلاء المستطير متكالبين على بيع العقارات وشرائها، وقد شاطر تفاهتهم على الأرباح بعض الأشخاص المحترمين، وكانوا يتكالبون على التهاب تكالب الجياع على القصاع ويشترون خطفا ونهبا سرقا وسلبا، لادين لهم، ولاهم إلا ا الباهضة، لايهمهم كيف أتت ومن أين أتت (1).

واحتل الفرنسيون الجزائر ولكنهم لم يستولوا عليها، فمنذ وطأت أقدامهم ترابها وسكانها يقاومون الغزاة بصبر وثبات، وبكل ماستطاعوا من قوة، وظلت الجزائر عبئ على فرنسا وتكلفها كل يوم خسائر فادحة في الأموال والعتاد والأرواح، وذلك لأن كا يزعمهم على الأصلانيين (2) من أبناء البلاد، كان يتطلب منهم مواصلة الفتح والقتا خذلان من جانبهم كان يقتضي من الجزائريين الثأر والانتقام.

ومهما تكن العوامل التي دفعت فرنسا للعدوان، فقد إحتلت الجزائر بقوة الحديد وا وزعم أصحاب المطامع من الفرنسيين أن الله سخرهم لأحتلالها ووضعها في أيديهم الأمر وقد آلوا على أنفسهم عهدا بأن ينشروا فيها العدل والمساواة والحرية، وينقلوا إليها العلم والمعرفة والحضارة، وغيرها من هذه العبارات التي فقد كل معنى لها على المستعمرين.

وإستخدمت فرنسا في إستعمار الجزائر أقسى الفظاعات البشرية في دمر السكان المناطق الخصبة الخيرة إلى الصحارى القاحلة، ومع ماشابها من إبادة السكان، رافق من تشويه، وتمثيل، وحرق، وشنق وتعذيب، وغرائم واثقل بالضرائب وصادرات و أملاك، وإنتهاك حرمات، وتحريف مقدسات، وإعتداء حتى على المقابر الاسلامية و من الجرائم التي لايدانيها سوى جرائم الصهاينة في فلسطين وجرائم البيض في إفريقية.

وإسودت وجوه في هذه المجزرة البشرية أغشت صحف التاريخ من إضراب بو وبيليسيه، وسانت آرنو، وشانغارنية، وهيريسون، ومونتانياك، ولاموريسيير، وكافينيا

في مستهل القرن العشرين، نشأت حركة دراسات تاريخية تمس من قريب أو بعيد تاريخ إفريقيا الشمالية يراد تعريف الجزائريين بقدامى أجدادهم صحافة باللغة العربية في مقاطعتي قسنطينة والجزائر، وعندما أريد إدخال نظام الدائرة الانتخابية إلى الجزائر وجدت فرنسا في الرأي الجزائري حركات مقاومة عتيدة واستمرت ونمت ما بين الحربين وتمثلت في رابطة العلماء والنخبة الفكرية في الجزائر.

ظهر نشاط العلماء بأحياء الثقافة العربية الاسلامية، وأتاحة الفرصة للشبيبة الجزائرية للاطلاع عليها والنزول فيها للمحافظة على أصالة الجزائريين وشخصيتهم العربية الاسلامية وحمايتها من التنكر لثقافتها الأصلية، وهذا بالطبع لم يمنعهم، للتحرر من التخلف من الأخذ عن العلوم الحديثة، لقد كان نشاط العلماء من رجال الاصلاح دينيا وعربيا وثقافيا وتربويا وسياسيا معا.

وكانت الصحافة والمحاضرة في المساجد وإنشاء المدارس وسائلهم في شتى أنحاء الجزائر لتعليم الناشئين وتعلقهم بعقيدتهم الاسلامية ولغتهم العربية ووطنهم الجزائر بترديد : الاسلام عقيدتي، والعربية لغتي والجزائر وطني.

ولم تشأ الرابطة والاحتلال جاثم فوق الصدور أن تصطدم بالسلطات بشكل مباشرا وغير مباشر، وظل نشاطها في نطاق السيادة والقوانين المدعية الفرنسية، هذا هو الظاهر وبحقيقة تكوين أجيال جزائرية واعية لمقدراتها وشخصيتها الجزائرية العربية المسلمة ويتجلى ذلك في رد إبن باديس على فرحات عباس عندما صرح « لن أموت من أجل وطن جزائري لأن ذلك ليس له وجود ولم أكتشفه » بقوله « لقد بحثنا في التاريخ والحاضر، ورأينا أن الأمة الجزائرية المسلمة قد تكونت، وهي موجودة، مثلما تكونت جميع الأمم على وجه الأرض ونقول بعد ذلك بأن هذه الأمة ليست فرنسا، ولاسبيل إلى أن تكون فرنسا، ولو أنها أرادت الادماج، ولها ترابطها المضبوط الذي هو الجزائر بحدودها الحالية. ».

ومثل هذا القول إن دل على شيء، فإنما يدل على مقومات جزائرية لقومية جزائرية مستقلة وقد أوضحت « الشهاب » لسان حال الرابطة في حزيران (يونيو) 1926 :

إن الاستقلال حق طبيعي لكل شعب على وجه الأرض، وبإمكان فرنسا أن تعامل الجزائر كما عاملت إنجلترا جنوبي إفريقية، وبإمكان فرنسا حينئذ أن تعتمد على الجزائر كما تعتمد أمة حرة على أخرى، هذا هو الاستقلال الذي نعرضه، إنه ليس الاستقلال الذي يحلم به أعداؤنا المجرمون، الاستقلال الغارق بالثأر والدم، هذا الاستقلال سنحصل عليه مع الزمن وبمساعدة فرنسا وإرادتها « وكما أعلن ابن باديس » أن الاستقلال لايطلب ولايعطى، ولكن يؤخذ ليس بالأقوال بل بالأعمال.

وتؤمن الرابطة بوحدة المغرب العربي، وبإمكان إتحاد الأقطار العربية، وصلاتها معروفة مع الأمير شكيب أرسلان ومفتي القدس الحاج أمين الحسيني، وأيدت نضال سورية وفلسطين، وهاجمت الصهيونية ودعت لمقاطعة البضائع الصهيونية.

لكن نشاط رابطة العلماء عمل طويل النفس، ويحتاج إلى زمن مديد لتربية الأجيال الصاعدة على هذا النحو، على مافيه من أصالة جزائرية عميقة وواضحة.

أوربا، وشدة وطأة الاستعمار بعد الحرب
مستنيرين، فتنبهوا لأنفسهم ومصيرهم
حديثة. بين 1900 ـ 1914 تجلت بحر
الفرنسي الرابض وأخذت إتجاهين تقليدي

وباغم من أساليب التفنن في التفضيع
الأمنين فلم يفت ذلك في عضدهم، و
الجزائر إستسلام بالمعنى الصحيح، بل
أهمها :

دفا الداي عن الجزائر، الدفاع عن ال
الأمير عبد القادر الجزائرى وغارته فيها مر
الثورة لجزائرية الكبرى (1954)، ثورة
فيها التال الوحشي من بيت إلى بيت، و
لالافاصة، جان دارك الجزائر، وثورة المقر
الشعبيا وإعلان الجهاد وثورة 1876 في ا
1881 بقيادة بوعمامة وغيرها ولكن إنكسر
وبعد القتال المسلح في الأرياف والجبل
والفلاحين، خلفه النضال السياسي وإنتقل

وقلبت فرنسا في حكم الجزائر من عهد
أشكالا وألوانا : الحكم العسكرى وسياسة
والدمج والتمثيل والمساواة والاستقلال الذا
أن ظاهر بعض السياسات فيه الرحمة فقد ك
أواخر سنوات ثورة 1954 المجيدة يريدو
الايقال أنها رضخت لمطالب المناضلين
الجزائريين الذين صمموا أخيرا ألا يلقوا ا

ومن الطبيعي بعد هذا الظلم البشر
ويتمسكوا بتقاليدهم وأعرافهم ومؤسس
ومقاومة ودفاعا، أي بالرجوع بالجزائر
الحق، ويعيدوا لها وجهها الناصع بعد أن
أي إلى كل ماهو عميق في الجزائر من خص
غير منكرين الأخذ بمأتي الحضارة الحديث
تبنتها سائر الشعوب وسلمت بها.

ونتساءل ماهي المبادئ
الوضع الاستعماري الذي فرض على
الدولية وما إليها في العلاقات الدولية،

Créé avec nitroPDF professional
nitropdf.com/professional

الجزائر في فرنسا، في
طابع نقابي، ومالبثت أ
إهتمت هذه الجمعية
شعار لاستقلال التـ
جزائر، وإنتخاب
تصدره الجمعية سنة
فرنسية بإرادة أبنائها »
القومية العربية.

ورفض مصالي كل
ولا أي سبب، وبأية
باريس». ثم أعلن بـ
لا إنفصال ولكن تحر
للجزائر بنظام الدومنيو
تقارب ببعض النقاط

والاتجاه الجزائري
الجزائر من النظام الا
يتطور حسب تبدل
وتقرب من العلماء و
وطالب في بيانه بتطبيق
طالب بضمان وحد
الاصلاحات العا
تأسيسي جزائري يص

ولن أطيل الكلام
متقلبا، بيد أن له الف
الجد وذابت الأحزاب
ولم يشأ أعضاؤه الانض
بين هذه المنظمات
الفرنسية تدميره والقض
يهيء الأذهان للثور

الأمر أخيرا إلى
المبادىء الجزائرية
والاخاء، وبالأفكار
شرعية؛ الأمم المتحد
ومساواة حقوق الرج

والاباء الثاني الجزائ

الأصيل هو جمعية نجم شمال إفريقية التي نشأت خارج الوطن
وسط العمال المغاربة، وأكثرهم جزائريون، وكانت في البدء ذات
تحولت إلى جمعية سياسية وتولى زعمتها مصالي الحاج منذ 1928.
قضايا الاجتماعية والاقتصادية، وكانت أول جمعية جزائرية رفعت
للجزائر، وإنسحاب القوات الفرنسية، وتشكيل جيش وطني
ن جزائري وطني بالتصويت العام، ونشرت جريدة (الأمة) التي
19 « أن الجزائر لم تكن فرنسية، إنها الأن ليست فرنسية ولن تكون
نت هذه الجمعية أيضا على صلة بشكيب أرسلان والتشرب بروح

ل يقدم لفرنسا لايدل على الاستقلال بقوله : « لن نقبل بأي شكل
جة أن يكون بلدنا مرتبطا بفرنسا، إننا ننبذ كل تمثيل برلماني في
فك عقاله ولادة حزب (الشعب الجزائري) وشعاره « لا إندماج،
وأعلن الحزب أنه ضد الامبريالية ولكن ليس ضد فرنسا وطالب
: « أن الجزائر المتحررة ستكون صديقة فرنسا وحليفتها » وبذلك
اه رابطة العلماء.

الث هو إتجاه النخبة الفكرية ويمثله فرحات عباس يريد إخراج
عماري ببناء جزائر جديدة فرنسية تقدم على المساواة، ولكن أخذ
وف وأخذ ينتقل ويتشدد من نصف فرنسي إلى نصف جزائري،
الشعب وتوصل إلى تمييز أمة جزائرية كان بالأمس ينكر وجودها،
ق الشعوب في تقرير مصيرها ومنح الجزائر دستورا وفي ملحق البيان
تراب الجزائري، والاعتراف لفرنسا بحق الاشراف وميز بين
والأجلة وأهم هذه الأخيرة قيام الدولة الجزائرية بعد عقد مجلس
الدستور.

حزب الشيوعي لأن مبادئه لاتدل على أصالة جزائرية، وكان موقفه
في إيقاظ الوعي لدى الطبقة الكادحة والشعور بقيمتها وعندما جد
« جبهة التحرير الوطني » أبى على نفسه ذلك وتنصل من مسؤولياته
إليها فرادى متأثرين بمبادئهم الخاصة بهم.

حزب الشعب وحده حزبا ثوريا وأغراضه محددة وحاولت السلطات
عليه، واعتقلت الكثير من أعضائه، فتحول إلى العمل السري وبدأ
شكل منظمة عسكرية سرية « منظمة الخاصة » وآل.

ناضلين الثورين في هذه المنظمة وحزب الشعب، فقد تبنت جميع
أصلية، وأمدتها أفكار الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والعدالة
يمقراطية والاشتراكية، ومبدأ في حق تقرير المصير للشعوب ومبادىء
يمانها بحقوق الانسان الأساسية في الكرامة وقيمة الشخص البشري
والنعاون الأمم الكبرى والصغرى والانتصار للحريات الأساسية

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

للجميع دون تمييز عنصر أو جنس أو لغة أو دين وتنشيط التقدم الاجتماعي وتواجد شروط حياة أفضل وحرية أعظم، وبمبادىء أساسية لمكافحة الاستعمار.

وفي الحقيقة أن المماطلات التي كانت تتشبث بها السلطات الفرنسية، على ماكان يرافقها من أعمال العنف، أقنعت الأحزاب الجزائرية، أخيرا أن النضال السياسي لايجدي نفعا أمام تعنت المستعمرين، فحزمت أمرها وشكلت جبهة التحرير الوطني في تشرين الأول 1954 وأعلنت الثورة في الأول من تشرين الثاني 1954.

وما شكا الجزائريون المناضلون السلاح بعد طول المماطلات والمفاوضات واستماتوا في القتال، إلا لأنهم يئسوا وفضلوا الموت على الحياة، ولكن وهبت لهم الحياة ولو بعد يأس شديد.

أصدر المناضلون نداءهم ووجهوه إلى الشعب الجزائرى وفيه ما يفيد :
فكروا بظرفكم المخزي « مستعمرين »، ليس العدل والديمقراطية والمساواة في نظام إلا الاستعمار إلا خداعا وأضيفوا إلى ذلك إفلاس الأحزاب التي زعمت بأنها تدافع عنكم ونحن جنبا إلى جنب مع إخواننا من المشرق والمغرب، وهؤلاء الذين يموتون لحياة وطنهم، ندعوكم لاسترداد حريتكم بثمن دمكم نظموا عملكم إلى جانب قوى التحرير، وعليكم أن تأتوها بالعون والسند والحماية، إن عدم المشاركة في النضال جريمة، ومعارضته خيانة.

إن الله مع المكافحين من أجل القضايا العادلة ولاشيء يستطيع الأن أن يوقفهم.
موت مجيد وتحرير الوطن.
ليحيا جيش التحرير
لتحيا الجزائر مستقلة

نشبت الثورة وكثرت الترددات حولها ومامن أحد كان يؤمن بنجاحها إلا رجالها، وظنها البعض مغامرة : قد تعد بأضرم العواقب لما تلقاه من رد فعل السلطات الفرنسية وهذا ماحصل واعتبرها آخرون وثبة في ميزان القوى المتحاربة، ولكنها أي وثبة مباركة :

شرف الوثبة أن ترضي العلا غلب الواثب أم لم يغلب

بدأت عملياتها بقوى بسيطة في عامها الأول وفي منطقة الأوراس لمناعتها ووعرة مسالكها وفي عامها الثاني إمتدت إلى قسنطينة، ثم إلى منطقة وهران، وأخيرا شملت الثورة الجزائر من أقصاها إلى أقصاها وكانت ثورة شاملة عامة تضرب في كل مكان بيد أن اشتد ساعدها بما مدت من مساعدات وتأيدات من البلاد العربية والجامعة العربية، والبلاد الأجنبية وفي سنة 1958 إنتقل نشاطها إلى فرنسا أيضا.

غير أن الأسلحة التي كانت تصل إليها عن طريق مراكش وليبيا فتونس كشفها الجينرال رازول شالان ورد عليها بمجزرة سيدي يوسف 8 شباط (فبراير) 1958 * ودافع عن نفسه بأن مقام به يحتمه الواجب في الدفاع عن أرض فرنسية وأن هذا الدفاع قضية داخلية تخص فرنسا وحدها، واعتبر عمله دفاعا مشروعا ضد المواقع المسلحة القائمة في تونس، وقال أن هذا الرد قد اهتم إلى الحد الأعظم بحماية السكان مع أن الوقائع تدل على عكس ذلك. لقد شردت السكان الأمنين وجعلت منطقة الحدود منطقة حرام لتضييق عن قادة جيش التحرير.

عجلة من أمرهم وأن الثورة إنقلبت إلى حرب ».

طاع الطرق (فلاقة) بلغة
ة الفرنسية شارل ديقول
ة حركة النفوس الجريحة
بالشجاعة التي أبداها
ا وجدوه من قوة جذب،

جرد عملية من عمليات
ر من الساعة. أنها حرب
نيويورك طايمز بقوله :
ستوطنين والمسلمين على
الأوربيين لمصيرهم، أن

ي 1958 مقالا يهم قيام
صيب جميع المستعمرات
يقية كما أن كتلة الدول
يع الشعوب المتطلعة إلى
مبادىء باندونغ ».

غارفور، والثورة مازالت
والمعلومات الأخيرة التي
لابد من دفع هذا الخطر
سيين الأصل والمسلمين
زائر في الأيام التالية.

للعرب فحسب وليسوا

ثبت أن ثورة الجزائر التي
سة عابرة، بل كانت ثورة
أنها ليست ثورة عصابات
س في البدىء لأن العمل
مازال الغرب يحافظ عليها في العالم وخصوصا في القارة
ستعمارية تعترف جيدا أن إنتصار الثورة الجزائرية سيعزز عقيد
رية، وسيفدي آمالهم في التحرر وسيجسم بصفة واضحة تنا

ولم يكتم المريشال جوان تخوفاته إلى الرئيس المجلس الفرنسي
مرحلتها الأولى عندما كتب إليه يقول الحالة خطيرة في الج
نانون ص 95 دار اليقظة

ينما تجعلنا نتوقع أننا ذاهبون نحو ثورة عامة في منطقة
ر أنفسنا
ل
ير
ليلعب في

وبعد ذلك نجد من يقول « إن الزمن لايعمل لفرنسا، إنه

محمد علي دبوز : المرجع السابق.

تراجع ترجمة الأستاذ علي الخش لكتاب محمد البجاوي الثورة الجزائرية
العربية 1965.

1.24

واعته الفرنسيون الثورة عملا قاصرا قام به بضعة عشارات م
س الدارجة ويراد بها رحمة، حتى جاء اليوم إعترف به رئيس
ه « لست أعمى ولست جائرا بقدر يسمح لي بأن أجحد
مال المتنبهة التي آلت بالجزائر إلى الثورة. . أنني معترف
يد من المحاربين، كل هذا المجموع الذى تألف من الثائرين
اقطبوا عليه من أياد متطاولة (1) ».

وعاد الوزير المقيم لاكوست الثورة بقوله إن ثورة الجز
ليس عمل فئة من العصاة لاتستدعي إبادتها سوى الربع
ة وصرح في عام 1957 إلى جوزيف كرافت مندوب صح
عتقد بأن هذه حرب إستعمارية. . . لا أن شأننا أن نساع
ش معا دون إراقة دماء، وإن الاستسلام لمتمردين معناه
لاء المنمردين ليسوا إلا حفنة من الارهابيين (2) ».

بينما نشرت صحيفة المجاهد الجزائرية في الأول من التشرين
ورة « ن استقلال الجزائر الكامل لابد أن يؤدى إلى انهيار سر
ل مازال الغرب يحافظ عليها في العالم وخصوصا في القارة
ستعمارية تعترف جيدا أن إنتصار الثورة الجزائرية سيعزز عقيد
رية، وسيفدي آمالهم في التحرر وسيجسم بصفة واضحة تنا

ولم يكتم المريشال جوان تخوفاته إلى الرئيس المجلس الفرنسي
مرحلتها الأولى عندما كتب إليه يقول الحالة خطيرة في الج
نانون ص 95 دار اليقظة

ينما تجعلنا نتوقع أننا ذاهبون نحو ثورة عامة في منطقة
ر أنفسنا
ل
ير
ليلعب في

وبعد ذلك نجد من يقول « إن الزمن لايعمل لفرنسا، إنه

Créé avec
nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الجزائرية في ظل نظام جمهوري وديمقراطي واشتراكي، وليست إعادة للملكية أو لدولة دينية (تيوقراطية) اعفى عليها الزمن »

ثورة أذابت الأحزاب في بوثقتها وأيدتها الجماهير الجزائرية واستقطبت أنظار العالم وأسمعت صوتها في كل مكان، وعلى منبر الأمم المتحدة وحظيت بالتأييد.

ولا نريد أن نغرق في الأرقام، لأن المستعمرين مهما غالوا في الاقلال من أرقام الضحايا فقليلهم كثير وضحايا الجزائريين أكثر، حسبنا أن نستشهد بهذا القول عن مدى تأثير الثورة :

« لقد تخلت فرنسا عن الجزائر في عام 1962 بعد حرب دامت ثماني سنوات وتسببت في سقوط الجمهورية الرابعة وكادت توحي بحرب أهلية، وأوشكت أن تعجل بدكتاتورية فاشية وخاطرت في إفساد الجيش والدولة، ونجحت جبهة التحرير الوطني بجيش لايتجاوز 50 ألف رجل مقابل جيش فرنسي أكثر من نصف مليون في بلد لايتجاوز سكانه عشرة ملايين منهم مليون أوربي.

ولم تكن ثورة الجزائر كما زعم حرب دين لدين أو إسلام لمسيحية أو عرق لعرق أو حضارة أوشرق لغرب لقد كانت ثورة تحريرية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ثورة جندت الامكانيات الجزائرية لتوصل الجزائريين إلى الحياة الحرة الكريمة دلت لهم إنسانيتهم وكرامتهم وتنقظهم من جور الاستعمار بعد أن إحتل البلاد وقتل أبناءها وشرد الكثير منهم وحبل لكل الأفاقين في الأرض إمتيازات وحلل للأقلية الأوربية المستوطنة وظل الأصليون المسلمون عن كثرتهم العددية على الغرم.

وما من شك في أن الاستعمار الفرنسي قام في الجزائر بكثير من الأعمال الانشائية الكبرى كتعبئة الطرق، وتحديد السكك الحديدية والأسلاك الكهربائية وجر المياه، وتحسين الحالة الصحية وتجفيف المستنقعات وري الأراضي وغيرها من تحسينات مختلفة في غيرها من المرافق.

ولكن المستفدين أولا وأخيرا من كل هذا كان المستعمر ولذا كانت القضية الجزائرية في أصلها وحد ذاتها قضية سياسية واقتصادية وإجتماعية وثقافية ولكن لم يكن باستطاعة الجزائريين التحرر من القيود الاقتصادية والاجتماعية والثقافية هذه قبل التحرر السياسي لأن السلطة بيدها كل شيء وتراقب كل شيء والمصالح والمرافق الكبرى كانت في أيدي المستعمرين المستوطنين والجزائريون كادحين أو مشردين أو مجندين في خدمة الدولة المستعمرة في الحرب العالمية الأولى والثانية، ورب دارة نافعة : إن بعض هؤلاء الجنود الأشاوس الذين شاركوا في هاتين الحربين وفي حرب الفتنام قد أفادوا من خبرتهم العسكرية وعرفوا فنون الحرب والقتال، وعندما إشتعلت الثورة تطوعوا فيها وكان بعضهم فيها قادة وموجهين ولهذا السبب سبق التحرير الساسي أنواع التحرير الأخرى.

ومن عجب أن المستعمرين في الجزائر ومن يدافع عنهم من الكتاب والمؤرخين عندما يعالجون القضية الجزائرية في كتابتهم، كثيرا مايعطوا لنا صفحة قائمة عن الجزائر قبل الاستعمار ويتناولونا قبل كل شيء الأوضاع السائدة فيها من حكم مستبد واقطاعيات كبرى وبرجوازية ثرية ثراء فاحشا وأعمال قرصنة وأيدي مكفوفة وأفواه جائعة وفوارق طبقية عظيمة

قد ضربت الضربة القاضية اللامبالاة والقعود والتحفظ وإنحياد والحرية والتردد والملاينة والمجاملة والمداراة والمطالب في ظل السيادة الفرنسية والعمل في إطار الشرعية وغيرها من آداب وأخلاق مابين الحربين وأنها سلكت سبيل الخلاص. يضاف إلى ذلك أن تملك الجزائريين المناضلين شعور بأنهم ليسوا وحدهم في ميادين القتال، بل أن وراءهم شمال إفريقيا برمته وأن إخوانهم العرب والمسلمون في كل مكان والشعوب الحرة، وفرنسا الديمقراطية وأحرار فرنسا وعقلائها ومفكريها وأحرار العالم معهم يشاركونهم في النضال بالفكر والقلب والامداد لأن القضية الجزائرية أصبحت الحرية الانسانية وأن تمادى المستعمرين في غيهم لن يؤدي في الأخير إلا إلى إثارة المغرب العربي من أقصاه إلى أقصاه وتهديم آخر حصن للاستعمار في إفريقيا الشمالية وتحريره تحريرا كاملا ولم تقتصر هذه الأطرف المختلفة من عربية وأجنبية محبة للسلام ورأى عام دولي لمنظمة الأمم المتحدة في مساند القضية الجزائرية كل في حدوده ونطاقه إلى أن رضخت فرنسا لهذ الضغوط الدولية وعرفت حكومة الجنرال دوقول أن الحرب أصبحت لاتجدي نفعا وجنحت للسلم والتفاوض مع الحكومة المؤقة الجزائرية وأخذت إعدادتها للاجتماع في إيفيان على شاطىء بحيرة ليمان.

وهنا حدث حادثان كانت نتائجها بردا وسلاما على الجزائر الأول أن العناصر اليمنية الفرنسية المنصرة للفرنسيين والمستوطنين في الجزائر حالت دون إلتقاء هذا الاجتماع بوسائل العنف والارهاب.

والثاني عندما قام قادة الجيش الفرنسي في الجزائر شال : صلان، جوهر، زللريمثلون الاستعمار بحركة إنقلابية أرادوا منها قلب حكومة الجنرال دوغول وهددوه بالقتل واحتلال باريس بالجنود المضليين واللجوء إلى القوة وخشي دوقول على فرنسا من المفتنة واحتاط لمقابلة هبوط المظليين وأخيرا وبعد أن أخفقت محاولة الجينيرالات ألقي القبض على قادة الانقلاب بالجزائر وسيقوا إلى فرنسا للمحاكمة بتهمة الخيانة وواصل الجنيرال دوقول عمليات التطهير في الجيش.

واستؤنفت المفاوضات على الصعيد الفرنسي الجزائري والدولي بعد ترددات دوقول وانتهت الحرب بوقف إطلاق النار واستقلال الجزائر وحددت إدارة الجزائريين يوم 5 تموز 1962 التاريخ الرسمي لأعلان الجمهورية الجزائرية وهو يوم إحتلال الفرنسيين للجزائر سنة 1830 واعترفت الدول بهذه الجمهورية باسم (الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية).

وهكذا بعد 132 سنة إستعادت الجزائر إستقلالها وسيادتها واعتبر نجاح ثورتها حادثا من أعظم الحوادث التي شغلت العالم في القرن العشرين وكانت الثورة الجزائرية في نضالها ثورة أصيلة ورائدة حقا وصدقا.

وبعد فقد بدأ الاستعمار الفرنسي في الجزائر بأسطورة المروحة المنتحلة التي سادت ثم بادت وانتهت بأسطورة الأبطال المحررين للجزائر التي ستظل نبراسا يستضاء بنوره على مدى الأجيال. بدأ عهد جديد في تاريخ الجزائر المعاصر ومهما تكن الخلافات بين قادة الثورة وزعمائها ورجالها في سبيل مصلحة الجزائر العليا فتسوية هذه الخلافات عاجلا أم أجلا بشكل أو بأخر، أمر لامفر منه. المهم أن الجزائر إستقلت وذهب الاستعمار إلى غير رجعة، وبدأ عمل الانشاء والبناء على شتى الأصعدة، ولتحيا الجزائر.

يعدون من جديد مع
وتحارب من أجله بأك

إن ثورة التحرير
فرنسا التي تحميهم فه
مستعمرات وفقدان ا
وجاه ونفوذ وسيطرة
فرنسية إلا إبتليت بفئ
أن إستمرار حرب ا
وحركات التحرر العا

وكنت أسمع من
قضية تعلم سلفا أنه
فرنسا في سبيل الدفا

واسمع إلى الرجل
هذه الطغمة الفاسدة

نستورده من الجزائ
أصدقائي الفرنسيين
يمثلوننا ويمثلون فر

وإلى غير ذلك مر
إلى ذلك بعض أع
باريس.. وتختلف الح
تعبير للوطنية الجزائ

متباينة. بما أن دخل
لنفسه ساكن وقص
وبرجوازية عالية ورأس
عن العمل فلا يجده و
كان إقطاعيا فرنسيا
واقطاعي وبرجواز
مذموم مدحور ناهيك
والمرض وربما كان الم
المظاهر التي نشعر
وجدتهم دوما كرمين أ
وكر
أجرام عن البلابل ال
وهكذا المستعمرين ا

صلاح إلا ويخرب ما شاده أبناء البلاد، وبني
ت كبرى تفوق بأمثال الاقطاعات القديمة
الجزائري مأجورا يوميا وكادحا بائسا يبحث
ء بأسمائها بأن الاستعمار الفرنسي في الجزائر
ستعمرين المستوطنين لقد كان كبار القادة
ملوكا في الجزائر والشعب الجزائر في بلاده
قار ولأي حد بلغ البؤس الفضيع والجوع
ي كل آن يجب أن لانخدع أنفسنا ببعض
اء نقول عنهم خطرين كسولين أو مختلفين
ل لكل إعتبار.

من كل جنس
لادهم وكافحوا البرجوازية الكبرى المستغلة
لبرجوازية من بلاد الغير وعلى حساب الغير
وك في العصور الوسطى.

حياة الجزائريين والمستعمرين ومن ورائهم
حياة أو موت وبالنسبة للمستعمرين ضياع
ن بها في بلادهم وبالنسبة لفرنسا قضية هيبة
ت الثورة فرنسا في عقر ديارها فما من أسرة
ائر حتى أن عقلاء الفرنسيين أخذوا يرددون
وحرب الفيتنام والعدوان الثلاثي على مصر
ن خسارة كبرى لفرنسا.

حلال للط

عزيز عليها في حرب
ئر بعد هزيمة 940
في آسيا وإفريقيا سيزيد هؤلاء المستعمرون في الجزائر أن تنتحر
ي يعتبرونها فوق مصلحة فرنسا.

ل أمثال هذه العبارات « إن كنت تدافع عن

فلتعط فرنسا الجزائر إستقلالها وليرحونا من
ائنا من أجل منافعها. أن كيلو الفاكهة الذي
غير مكان وبكل آمان. . . . » واسمع من
ساذج « ومالنا والجز
ياعزيزي أن هؤلاء المستعمرين في الجزائر
الجزائر التي تضحي
يمكننا أن نستورده

هذا القول « وهل تع
الخطوط الحديدية وإغتيالات حتى في قلب
الحرة كلا وألف كلا
ك الجزائريون أن نضالهم مشروع وأنه أصدق
الجزائر إلا
ف حقا أن المقاومة الجزائرية
الأجنبي
المحررة ومامن إنسان

nitro PDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

الدكتور عبد الجليل التميمي
جامعة تونس، تونس

من أجل توظيف لمبادىء الثورة الجزائرية

منذ الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر عرفت البلاد شرف ونبل المقاومة العسكرية والفكرية للمحتل الذي إستمر أكثر من ربع قرن للسيطرة على التراب الجزائري موهما نفسه بتهدئة البلاد وإخماد كل ثوراتها.

إن سمو مقاومة الجزائريين، متمثلة في كفاح الحاج أحمد باي قسنطينة والأمير عبد القادر ومختلف التحركات الثورية ومرورا بإنتفاضة المقراني فيما بعد تعكس كلها مختلف العوامل الحاسمة التي حددت موقف الرفض بقول إنتهاك التراب الاسلامي من طرف دولة لاتينية ـ مسيحية.

وفي ضوء ذلك سوف يتميز القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي في الجزائر بإندلاع أكثر من ثورة وحركة إنتفاضة في طول البلاد وعرضها والتي إستوجبت وجودا عسكريا فرنسيا إمتد أكثر من مائة وثلاثين سنة.

إن الاحتلال الفرنسي وإستعمار البلاد كما صرح به أكثر من مسؤول ليس فقط جلب الحضارة والتمدن لشعب يقطنه « المتوحشون والقراصنة » ولكن أيضا العمل على إسترجاع هذه الأرض التي كانت في الزمن الغابر، أرضا مسيحية.

ولنا أن نتساءل عن الخلفية والأسباب التي حتمت إندلاع حرب التحرير الطويلة والعنيفة !

عندما حل الجيش الفرنسي ثم المعمرون بالجزائر كانوا لايعرفون عنها الكثير، ويجهلون لغتها وعاداتها وتقاليدها وقد كان الجانب الفرنسي الذي لايؤمن إلا بحضارة فرنسا وإستعلائها مشبعا بأفكار مسبقة وخاطئة عن « ساكني الجزائر » الذين أطلق عليهم لفظة أندجان "Indigène" وهو الاصطلاح الذي عرف بسرعة في إصطلاح « المعمرين » وتفكيرهم، « مسخة من الاحتقار ».

إن فئة المعمرين التي لاتؤمن بغير أنظمتها ومبادئها والمنغلقة على نفسها بإيديولوجية المحتل « الفاتح »، والرافضة لكل قوانين وعادات الآخرين لم تظهر تجاه المواطنين الاحتقار وغطرسة المحتلين، وهذا مايفسر حتما ومنذ البداية، القطيعة التامة بين مجتمعين، أحدهما السيد الحاكم والثاني المسود والمهيمن عليه.

إن نظره سريعة على الأدب الفرنسي عموما لكافية للدلالة على أن مؤلفيه قد تبنوا كل هذه الأحكام المسبقة عن « العربي أو المسلم » فهو شحيح وجشع حسب موليير ومخادع وسارق

---

* نص المحاضرة التي ألقيت باسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وحيث انتدبني لتمثيلها في الملتقى الدولي حول مكانة الثورة الجزائرية في العالم المنعقد بالجزائر من 24 إلى 27 نوفمبر 1984.

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ومتعصب، وهو محمدي وليس مسلما حسب فولتير، (هذا الكاتب الذي ساهم في تعميم فكرة التعصب).

وبعد أكثر من مائة سنة من الاحتلال كم هم عدد الساسة أو المعمرين الذين حظوا بتصور سليم لما كانت عليه ولاية الجزائر قبل سنة 1830 ؟ من هم الباحثون أو المؤرخون المنصفون في أحكامهم ؟ كم هم في مدرسة الاستشراق الفرنسية، من كان يتقن العربية والعثمانية، وهذا حتى بعد إحتلال تونس والمغرب الأقصى، ومرورا باحتلال سوريا ؟

إن الاحتلال الفرنسي للجزائر قد أساء إلى صورة العربي والاسلام والحضارة العربية ـ الاسلامية وعليه فإن المستعمر يجر وراءه إرثا سلبيا منعه دوما من الاقتراب من الآخر وفهمه وقبوله كما هو وبالنتيجة فإنه لم يستفد من الطرف المقابل الا هامشيا ودون عميق فهم لعدد من التقاليد. فماذا سيكون لو تعلق الأمر بحركة تزاوج حضاري أصيل بين حضارتين ذات حساسية متباينة للحياة ولقضاياها ومشاكلها اليومية.

إن كل القوانين الصادرة المتعلقة بالجزائر والتي سنها رجال السياسة في عهد الأمبراطوريات أو الجمهوريات الفرنسية قد ساهمت في تعميق الهوة وعزل « الجزائري » وهذا نتيجة للتمييز العرقي والديني الذي مارسوه. أليس إعطاء وفرض الجنسية الفرنسية على كل يهود الجزائر عن طريق قانون كريميو (Krémio) أكبر دليل ملموس على هذه الممارسة العرقية ـ الدينية ؟

إلا أن هذه الممارسة ستكون أكثر خطورة وحدة وأساءة عندما يتعلق الأمر بالسعي إلى إستنطاق المصادر القديمة والكتابات الأثرية ودراسة الأسس الدينية الأولى في محاولة منهم لمعرفة أدق لخاصيات التاريخ الجزائري، كما يدعون.

وإنطلاقا من هذه الرؤية تم تعليم المواطنين لغة فولتير ودادرو لتعويدهم على الاستفادة من الحضارة الغربية، وهذا سعيا منهم للعمل على الارتفاع بهم إلى مرتبة الفرنسيين وحيث لايعقل أن ينزل الفرنسيون إلى المواطنين بتعلم لغتهم العربية واللغة الفرنسية إعتبرت وسيلة لنقل الحضارة لكنها في الواقع والحقيقة هي وسيلة لتشويه المواطن والسيطرة عليه.

ومن جهة أخرى وعلى الرغم من مراقبة عدد من الشخصيات الجزائرية المتحركة على الساحة السياسية قد يبدو أن الوضع العام بالجزائر طبيعيا ومتدرجا نحو الأفضل وهو الأمر الذي جعل الفرنسيون يعتقدون خطأ بأن إحتلالهم لبلاد الجزائر أصبح أمرا ثابتا ودائما. ثم أن إنتكاس فرنسا العسكري في حرب السبعينات والحرب العالمية الأولى قد أدى إلى أفول الهيمنة الفرنسية وسقوط فرنسا كقوة عالمية وعلى الرغم من ذلك فإن حكام الجزائر مازالوا يؤمنون بتفوقهم وإستغلالهم الحضاري ـ العرقي ولعل أكبر سخرية للتاريخ أن تكون هذه العقلية وراء الاحتفالات الضخمة بالذكرى المائوية للاحتلال الفرنسي للجزائر. أننا مازلنا في إنتظار دراسة عميقة وملحة للانتاج الفكري الذي ظهر بهذه المناسبة ولاشك في أنها سوف تكشف حتما عن مختلف العوامل النفسية والحضارية التي كانت وراء هذه القطيعة الاجتماعية المطلقة، والتي ستزداد عمقا وحدة بين الحربين العالميتين إلى إندلاع ثورة سنة 1954 حيث عرفت البلاد الجزائرية خلال هذه الفترة تحولا جذريا عميقا في إذكاء المقاومة ضد المحتل.

فالمساجد والمدارس أصبحت منارات تتفاعل فيها كل الطموحات الشرعية لجمعية العلماء الجزائريين، والتي كانت تغذي لدى المواطنين شعلة الايمان بحقهم في الدفاع عن لغتهم

وتاريخهم،حضارتهم وبلادهم وتحثهم على مقاومة الظلم وتدعوهم إلى الثورة ولا شك أن العلماء قد أعطوا مضمونا « ثوريا » وجديدا لقمة المسجد والمدرسة وهو الدور الذي لم تعرفه المجتمعات العربية ـ الاسلامية يومئذ .

وفي نس هذه الفترة سوف تعرف الساحة الجزائرية والفرنسية عددا من الأحزاب السياسيةوالتي كانت جميعها تدافع عن الجزار وتعمل بوسائلها الخاصة لانعتاق البلاد من الاحتلال الفرنسي . إن ظاهرة تعدد هذه الأحزاب السياسية ، يشكل هو الآخر، ظاهرة قل أن نجد شيلا لها في الساحة العربية على العموم .

وانطلاقا من سنة 1945 ، سوف يساهم مكتبي المغرب العربي بالقاهرة ودمشق ، بفضل نشاطهاودعايتهما السياسية في تحسيس الاخوان بالمشرق العربي بأهمية المعركة العسكرية والفكرية التي يخوضها المغرب العربي بفعالية مدهشة ضد المستعمر. وأن هذا النشاط الدؤوب المخلص يعد أول محاولة موفقة لربط المغرب العربي بالمشرق العربي في العهد المعاصر .

إن جميع الأحزاب والتيارات السياسية ، عى إختلاف مبادئها ومناهج عملها قد ساهمت وبطرقتها في توعية المواطنين وتهيئة المناخ المناسب لأندلاع الثورة الجزائرية .

ذلك ن المساعي السياسية التي تمت في عديد المرات للوصول إلى إتفاقيات مقبولة تسمح للجزائريين بتحسيس وضعهم ، قد باءت كلها بالفشل والمسؤولون ورجال السياسة الفرنسيون قد أظهروا عجزهم لتفهم تلك المطالب الشرعية وتلبيتها وفي ضوء ذلك ، فإنه لم يبق أمام الجزائريين الأشراف إستعمال القوة وإعلان الحرب وستكون تلك مسؤولية زعماء جبهة التحرير الوطني الذين أدركوا أن السلاح وحده هو القادر على تحرير الجزائر كما سوف ينجحون في جمع أغلب إتجاهات المنظمات في كفاح مرير وصعب ، وسيكون باستطاعة الجزائر الدخول فيها حتى النصر . وهذا هو الذي لم يدركه أو قل لم يشأ إدراكه لاالحكومة الفرنسية يومئذ ولا المعمرين الذين كانوا لايعتقدون في إمكانية ذلك البتة ، خاصة وأن عقلية هؤلاء وتكوينهم لم يتغير كثيرا من فترة بداية الاحتلال إلى نهايته .

ومن جويلية 1830 إلى نوفمبر 1954 ، كانت الجزائر، المغلوبة على أمرها ، والتي تجر وراءها أكثر من مائة وعشرين سنة من الثورات والانتفاضات ومن الابادة الثقافية ، قد أعلنت حقها أن تكون عربية ـ إسلامية ومغربية إفريقية وعندما إنطلقت شرارات الثورة ، سرعان ماأصبحت ثورة جماهيرية شاملة بإفريقيا وبالوطن العربي .

كذلك ستعرف هذه الثورة إستماتة المواطنين للدفاع عنها ، بذلك عدت هذه الثورة ثورة الفلاحين الذين سيقمون فيها بدور أساسي وسوف يدفعون لذلك ثمنا غاليا من المآسي والأحزان والمشقات . إلا أن فكرة الجهاد سوف تطغى على كل شيء وسيكون المجاهدون أبطالها النبلاء والذين لم يفت في عزيمتهم كل التجهيزات العسكرية التي وضعتها فرنسا لقمع هذه الثورة والقضاء على إصرار هذا الشعب الذي أصبح ينادى بحريته واستقلاله .

ولا شك أيضا أنه في نفس هذه الفترة الزمنية كانت حركات التحرر التونسي والمغربي قد جلبت إنتباه وإهتمام المشرق العربي بقضايا المغرب العربي ، وأن ملحمة ثورة الجزائر قد منحت الانسان العربي سمو وشرف ونبل المقاومة التي خاضها الشعب الجزائري والشعب العربي في كل مكان كان يعيش [illegible] بعد يوم ملحمة كفاح [illegible] وانهم الجزائريين .

nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وعلى ضوء ذلك كانت أنظار الوطن العربي متجهة نحو المغرب العربي وحيث أصبحت الجزائر مصدر إعتزاز وفخر وأسطورة وعدت ثورتها بمثابة رسالة الايمان والصبر وعظمة التضحيات والدفاع عن إسلام المواطنين ولغتهم العربية وكرامتهم التي إسترجعوها . أن هذه الثورة قد سجلت بالنسبة لتاريخ العالم حق الآخرين في الاختلاف (le Droit à la différence)
والتي أصبحت اليوم حقيقة مسلمة بها عالميا كذلك كان للثورة الجزائرية أثر ملموس على بقية الدول الافريقية التي إهتزت لهذه الثورة واتخذتها قدوة ومثالا وكم هم الزعماء الأفارقة الذين سجلو إنطباعهم حول هذا التأثير المباشر وذكروا بدور الثورة الجزائرية على مسار نشاطهم السياسي والعسكري ثم على حصولهم على الاستقلال فيما بعد .

ولا تسل عن أبعاد هذه الثورة أيضا في أمريكا اللاتينية !

لقد سجلت الثورة الجزائرية صفحة خالدة في تاريخ العرب المعاصر وتاريخ الانسانية جمعاء لنكن أوفياء للشهداء الأبرار الذين صنعوا هذه الملحمة الرائعة ولنتذكر دوما أنهم كانوا عنوان الاخلاص والنزاهة والتضحية والفداء بكل شيء من أجل أن ننعم اليوم بهذا الاستقلال الفكري والسياسي .

د. عبد الجليل التميمي .

بركت أنيسة

أدب النضال في الجزائر من سنة 1954 حتى الاستقلال

في كل معركة قومية أو إجتماعية في تاريخ العرب الحديث نتاج أدبي يؤدى إلى تغيير مس، فكان الأدب دائما هو الشرارة الأولى التي إنطلقت منها الثورات الكبرى، تلك رات التي حررت الانسان من الظلم والعبودية.

إن الثورة التحريرية المجيدة التي شنها الشعب الجزائري الأبي في غرة نوفمبر سنة 1954 . قوى الاستعمار الفرنسي البغيض قد فتحت مجالا فسيحا أمام الأدباء والشعراء وخولت الانطلاق من قيود التخلف والجمود.

كان هذه المرحلة الحاسمة، الحافلة بالأحداث والأفكار الجديدة الأثر الواضح في الأدب، ث أن ظروف النضال كشفت للأدباء عن إمكانيات عديدة وتجارب زاخرة دفعتهم لمعالجة ضيع جديدة ومتنوعة.

يعتبر أدب النضال أثرا فنيا فعالا ومحرك وعاملا على التغيير إستخدمته الأمة الجزائرية حا لتحطيم قيود الاستعمار الغاشم وسلاحا لتغيير الواقع المر (1).

ويتحول إلى منبر وداعية لأساليب النضال الجماهيرية أن الأديب الحقيقي أثناء الكفاح ستطيع أن يقف على الهامش بل يتجند في صفوف الشعب، ويحدو القافلة ويدفع الركب، رس قلمه لبث الروح الثورية وتغذية طاقاتها في نفوس المواطنين ويبذل جهده لخلق حاجز ي منيع لمواجهة كل التعاملات الاستعمارية وهجومات الحرب النفسية التي يستعملها دو وهكذا يؤدي الأديب دوره من خلال حرب فكرية وعسكرية ليتم تسليح الجماهير ظة الثورية ليكونوا دائما في مستوى الواجب.

ن وظيفة أدب النضال لم تعد ترفيهية أو جمالية هدفها المتعة الذهنية والروحية بل مهمتها رجة الأولى إجتماعية وإنسانية تخدم أهدافا سامية.

وأدب النضال كما عرفه الكاتب « فرانتزفانون » (FRANTZ FANON) في كتابه عذبو الأرض » هو أدب يبقى قبل كل شيء أداة للكفاح الذي يخوضه الشعب المستعمر معركته ضد العدو.

ويوضح مفهوم أدب النضال في قوله (2)

بركات أنيسة : أدب النضال في الجزائر من سنة 1954 حتى الاستقلال رسالة دكتوراه في الأداب : جامعة الجزائر / المكتبة الجامعية بالجزائر 74 / 1973.

فانون فرانتز، معذبو الأرض : ترجمة د/ سامي الدوري، وجمال الأتاسي بيروت. دار الطليعة 1963 ص / 29

« إن تقدم الوعي القومي لدى الشعب يبدل ويوضح التعبير الأدبي الذى يتولاه المثقف المستعمر. أن إستمرار إتحاد الشعب يهيب بالمثقف أن يتجاوز مرحلة الصراخ فإذا الشكوى تصبح نداء ثم إذا النداء يصبح في مرحلة تالية شعارا. . . وابتداء من هذه اللحظة إنما نستطيع أن نتحدث عن أدب قومي ذلك فإننا نرى على مستوى الخلق الأدبي إستئنافا وتوضيحا للموضوعات القومية الحقيقية ».

« نحن هاهنا أمام أدب كفاح بالمعنى الأصلي للكلمة لأنه يحدو الشعب بأسره إلى النضال في سبيل الوجود القومي ويصبغ عليه شكلا وحواشي ويفتح له آفاقا جديدة، هو أدب كفاح لأنه يحمل تبعة، لأنه إرادة تحقيق في الزمان ».

من الملاحظ أن لأدب النضال ثلاث خصائص :

- الخاصية الأولى : أدب التعبئة والتوعية وهو يسبق إندلاع الثورة التحريرية.
- الخاصية الثانية : أدب الثورة المسلحة ضد العدو والمحتل.
- الخاصية الثالثة : أدب التجربة النضالية، يستخلص نتائج الثورة ويحلل عوامل ضعفها وقوتها.

إننا نجد نفس الخصائص عند « فرانتزفانون » حينما درس تطور الأدب في البلدان المحتلة فهو يقول : (1).

« وإذا نحن أردنا أن نعرف من خلال آثار الكتاب المستعمرين المراحل المختلفة التي يقطعها هذا التطور، رأينا أمام أعيننا مشهدا ذا ثلاثة أزمان، ففي مرحلة أولى يبرهن المثقف المستعمر على أنه قد هضم ثقافة المستعمر المحتل، وفي مرحلة ثانية يهتز المستعمر ويقرر أن يتذكر نفسه. . . وهذا الأدب السابق على المعركة يكون في بعض الأحيان أدب سخرية ورمز، هذه مرحلة قلق، ومرحلة إنزعاج. . . وفي مرحلة ثالثة، مرحلة أخيرة، تسمى مرحلة المعركة، نرى المثقف المستعمر، بعد أن حاول أن يغرق في الشعب يعمد إلى عكس ذلك فهو لا يهز الشعب، أنه الأن بدلا من أن يغفو غفوة الشعب، يستحيل إلى موقظ الشعب أنه الأن ينتج أدب معركة، ينتج أدبا ثوريا، أدبا قوميا، وفي أثناء هذه المرحلة، نجد عددا كبيرا من الرجال والنساء الذين لم يخطر ببالهم يوما أن ينشئوا أثرا أدبيا يحسون فجأة حين يوضعون في ظروف إستثنائية، حين يوضعون في السجن مثلا أو حين تقرر السلطات تنفيذ حكم الاعدام فيهم، يحسون أن عليهم أن يعبروا عن أمتهم، أن يكتبوا الجملة التي تفصح عن شعبهم، أن يكونوا الناطقين بلسان واقع جديد، يتحقق، وفي أثناء ذلك يدرك المثقف عاجلا أو آجلا أن المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافته بل يخوض المعركة التي يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال ».

لاشك أن أدب النضال لعب دورا فعالا في بث الروح الثورية في الأمة وبث الثقة في طاقتها، حيث أن الثورة المشتعلة كانت في حاجة إلى صوت يدعو لها ويحرض الشعب على الكفاح المسلح يقوى إيمانه بالنصر.

---

(1) نفس المصدر. ص 211

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المعلوبة » .

إجتا الشعر الجزائر مراحل هي نفس المراحل التي مر بها الشعب من إنطوائه على الذات في أول مرة إلى دعوة ونهضة ثم إلى يقظة وأخيرا إلى ثورة .

وفي هذه الفترة، ساير شعر النضال الواقع في جميع مناحيه، فهو مرآة صافية عكست بصدق عواطف الشعب ونضاله، فأعلن الثورة على التأخر والركود في الحياة الاجتماعية وحارب الجهل والفقر والمرض وثار على الأعداء من إستعماريين ورجعيين .

فاكتسب الشعر من هذا الجو الثوري طاقة جديدة وقطع شوطا بعيدا في طريق النضج . أصبح الشعر النضالي يعيش مشكلات عصره ويحيا حياة إنسان، فأصبح الشعر والثورة شيئا واحدا كما قال « هانوى كريا » (H. KARIA).

يبدو أن النشيد الذي دعا إلى الثورة ضد العدو المحتل هو نشيد « من جبالنا » الذى ظهر قبل إندلاع الثورة المسلحة ببعض السنين ومطلعه هو :

من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال .

وهذا النشيد إنتشر عبر أنحاء الوطن وحفظه الشعب الجزائري كبارا وصغارا واتخذوه رمزا للكفاح .

وللشاعر محمد العيد أرهاصات ثورية تتجلى في قصيدته « ياقوم هبوا » يدعو فيها أبناء الجزائر إلى التحرر من مخالب الأعداء والظلم ومن الحالة البائسة التي كانوا يتحبطون فيها .

فلنستمع إلى هذه الأبيات المقتطفة من القصيدة، حيث يقول الشاعر (1) .

الأسر طال بكم فطال عناؤكم فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا حرية تحميه واستقلالا
لاأمن إلا في ظلال مرفرف حر لنا عال ينير هلالا

ولمحمد العيد قصيدة أخرى قالها قبل الثورة بشهرين، بمناسبة إفتتاح مدرسة باتنة، ألقاها الشاعر يوم 5 سبتمبر 1954، ويدعو فيها أبناء الشعب إلى الجهاد في سبيل كرامة البلاد .

يقول محمد العيد : (2)

(1) العيد- محمد : الديوان. ص 339
(2) نفس، المصدر. ص 217

من لفنون الأدبية، كان شعر النضال أغزر مادة أدبية وإتقنها فنا وأكثرها تأثيرا : لأن الشعر [illegible] في الثورة هي الأكثر ملائمة والأسرع تجاوبا وإنعكاسا والتصاقا بالحدث اليومي للثورة .

يقول الشاعر المناضل الراحل مفدي زكريا في ديوانه « اللهب المقدس » (ص 2) « لم أعن في « اللهب المقدس » بالفن والصناعة، عنايتي بالتعبئة الشعبية وتصوير وجه الحقيقي

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ويتابع قائلا :

بلادي لاتركت إلى بغاة ظللنا بائسين به خزايا
أغدى للمعالي السير وامضى رقيت به إلى الرتب السنايا
فنحن يداك في كسب المعالي فأحرزت الرعاة رضى الرعايا
مدى فستنجلي عنك الرزايا

سنكتفي بهذه النماذج التي قيلت قبيل الثورة المسلحة فاستجاب الشعب الوفي لنداء الشعراء وحقق لهم حلمهم بتحرير الوطن من الأعداء الظالمين الغاصبين .

وحينما إندلعت الثورة التحريرية تفجرت عبقرية الشعراء بشعر قوي يسجل إنتصارات الثورة ويخلد الشهداء والأبطال ويبشر بالاستقلال .

ومن أبرز شعراء النضال الذي ألهبت الثورة المسلحة فاستجاب الشعب الوفي لنداء والتعبئة هو الشاعر الراحل المناضل مفدي زكريا الذي عاطف الشعراء بشعر قوي يسجل إنتصارات روح الشعب ووصف الواقع الثوري بكل الأعداء الظالمين الغاصبين . والحقد حتى إنتصرت البلاد .

وهناك شعراء بارزين نذكر منهم محمد العيد آثارهم الأدبية تفعل فعل الثورة وتحيل الجماهير بقصائده التي أسهمت في الأثارة العدو فلنستمع إلى القصيدة التي نظمها الذي لعب دورا رائدا في الثورة، فعبر عن للذكرى الثالثة للثورة . ق وظل يصب على الأعداء شعلا من الثأر

في هذه القصيدة المعبرة التي ينبعث من المباركة وشبهها بليلة القدر التي هي خير الشعب بأكمله فهب ينصب إنصبابا في

دعا التاريخ ليلك فاستجابت وهل سمع المجيب نداء شعب تبارك ليلك الميمون نجما زكت وثباته عن ألف شهر تجلى ضاحك القسمات تحكي بناشئة هناك أشد وطء مضت كالشهب وانحدرت شظايا

(1) زكريا مفدى : اللهب المقدس، ديوان. ص

أصابك يا جزائر عهد سوء
أعيدى للورى عهدا سنيا
وشاع العدل فيه وذاع حكما
ولا نخشى رزايا فيك طالت
وتنقشع المظالم بائدات

ظللنا بائسين به خزايا
رقيت به إلى الرتب السنايا
فأحرزت الرعاة رضى الرعايا
مدى فستنجلي عنك الرزايا
على صوت المطالب والشكايا

تشينك بالفساد ولا بغايا
ولا تهني بجهدك أن تعايا
ونحن فداك من كل البلايا

(نوفمبر) هل وفيت لنا إنصبابا
فكانت ليلة القدر الجوابا
وجلا جلاله هتك الحجابا
قضاها شعب يلتحق السرابا
كواكبه قنابله لهابا
وأقوم منطقا وأحد نابا
تلهب في وجنتها التهابا

ملائك بالفواتك نازلات ... بإذن الله، أرسلها خطابا
وهزت ثورة التحرير شعبا ... فهب الشعب ينصب إنصبابا
تنزل وحها من كل أمر ... بأحرار الجزائر قد أهابا
وبرزت الكواعب قاصرات ... فرحن يخضن للموت بابا

وللشعر صالح خرفي ديوان عنوانه « أطلس المعجزات » جعله سجلا لأحداث الثورة ومناقبها مأثرها، فالشاعر يقتنص كل مناسبة إما لاثارة الحماس والتحريض على الكفاح أو لاشادة الانتصارات والتضحيات.

لدينا قصيدة « نوفمبر » يتغنى فيها الشاعر بهذا الشهر المبارك فهو شهر البطولة والمعجزات.

وهذه القصيدة تزخر بالمواقف البطولية، أنها مواقف تشف عن حب عميق لهذا الوطن ودفاع مستميت عنه.

يتحول الشاعر هنا إلى إمام في منبره يزكي شعور الجماهير الصاخبة، فيقول (1).

بايعت من بين الشهور (نوفمبرا) ... ورفعت منه لصوت شعبي منبرا
شهر المواقف والبطولة قف بنا ... في مسمع الدنيا وسجل للورى
فلانت مطلع فجرنا وزناد بركا ... ن أثرت كمينه فتفجرا
دوت بمطلعك الخضيب رصاصة ... فاهتزت البيضاء، وانتشت الذرا
وانداح نجرك عن مصب من دم ... الأحرار، فانتعش الجديب وأزهرا
خبأت معجزة تمخض ليلك الدا ... جي بها، والأرض في سنة الكرى
ياوثبة الأحرار منايا (نوفمبر) ... لم تزل علما لقافلة السرى
قدست فيك النار، تلتهم الدجى ... فتحيل ظلمته لهيبا أحمرا
قدست فيك الدمع، جف بمقلة ... أغفت لتكتحل الصباح المسفرا
واللفظة الخرساء يخنقها الصدى ... والجوع، في شفة المطوح في العرا
قدست فيك الموت، مفتخرا بمن ... يعلوا المقاصل كي يتيه ويفخرا
والصمت في شفة الممزق لحمه ... أربا، يناجي ربه مستبشرا
والفقر أغرته المطامع، فانزوى ... صلفا ولوحت المنية فانبرا
والشيب خضب بالدماء، فما احتفى ... بالمعمر صوح نبته أمرا زهرا
والطفل يلفظ بالطوى أنفاسه ... ثدياه خيطا بالرصاص ومادرى
قدست فيك الشاهقات ثلوجها ... وصخورها، وأقمت منه المشعرا

ومن الشعراء الذين أشادوا بمواقف المجاهدين والمجاهدات، نذكر محمد الأخضر السائحي، ومحمد الهادي السنوسي والحفناوي هالي محمد الصالح باوية وأبو القاسم سعد الله وصالح خباشة، وأحمد معاش وغيرهم.

(1) خرفي صالح، أطلس المعجزات، ديوان الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 169.

حاول الشعراء أن يعبرو عن أحداث شعبهم ويسايروا وثباته الجريئة ويتغنوا بأمجاده ويسجلوا مراحل كفاحه. نختار هذه القصيدة لمحمد صالح باوية يدعو فيها أخته إلى الكفاح فلا يرضيه أن تبقى جامدة في البيت وإنما يرضيه أن تكون مجاهدة تدافع عن وطنها.

يقول الشاعر محمد صالح باويه (1)

دمدم الرعد وهزتنا الرياح
حطمي الأغلال وامضي للسلاح
حطميها واهتفي ملء الأثير ياطغاة أشهدوا اليوم الأخير
حطميها لم تعودي قطعة من أدواتي أو رؤى حلم ثقيل
حطميها لم تعودي عبد خلخال وسوط ودموع وعويل
لم تعودي خمرة للظلم، أختي لم تعودي زفرة الكوخ الذليل

ولدينا قصائد مؤثرة لشعراء خاضوا معارك الثورة وشهدوا إخوانهم يسقطون في ميدان الشرف، نذكر منهم أحمد معاش الذي خلد في قصيدة معبرة شهداءنا الأبرار فصور شجاعة الأبطال أثر معركة « تارشوين » في قصيدة عنوانها « دمعة على شهدائها الأبطال » (2) فيقول :

خلدي المجد واحفظي الشهداء ... واذكري النار والردى والدماء
شهداء هنا بحر دماها ... تسطر المجد وتكسوه رواء
أنست البؤس بالنضال وأحيت ... أمل الشعب واستعارت رجاء
هاهنا نستقر منا رفات ... ليبنينا بها سفلى البناء
هاهنا العطر من دما شهدائنا ... عمر السفح والربا والفضاء
لاترى في الوهاد والسفح إلا ... صفحات مملوءة أنباء
سطرتها أيدي الزمان حياري ... فروت معجزات الحمراء

سنكتفي بهذا القدر من الشعر الذي أصبح صوت الجماهير المتحدة في الثورة ضد العدو المعتدي الظالم، أنها أغاني مليئة بحب الوطن وعامرة بالتضامن مع الأحرار المحبين للسلام.

ويحسن بنا أن نشير أن هناك تفاوت في المستوى الفني لشعر النضال، يوجد شعراء يمتازون بقوة التعبير وجودة الأسلوب وهناك شعراء نلمس في قصائدهم ضعفا في اللغة والأسلوب وقد تصاب عملية الابداع الفني بشلل وقتي يخلقه الواقع الثوري المضطرب الذي يعاني منه الأدباء، بحيث أنهم ساهموا في مختلف ميادين الكفاح وكانوا عرضة للقمع والتعذيب والسجن واستشهد العديد منهم في ساحة القتال.

ومما يجب ذكره أن جل الشعراء المناضلين كانوا ذوي ثقافة أدبية ودينية قامت على أسس عربية لم تمازجها أية ثقافة فلسفية عميقة، ومن هنا نلتمس في شعرهم إتجاهات فكرية ولم

(1) باويه محمد الصالح أغنيات نضالية، ص 31
(2) مؤيد، صالح الثورة في الأدب الجزائر. ص 166

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

يتأثر بحركات التجديد لأنهم كانوا في شبه عزلة، فالاتجهات الأدبية التي وجدت في شعر النضال عفوية، نابعة من أعماق الشاعر. ليس هناك عمق في الأفكار ولاغوص في المعاني ولا إيحاء في الخيال. وشعر النضال لايتطلب هذ العمق لأنه يتجه إلى العاطفة والشعور والقلب لا إلى العقل. ونجد بعض التجديد في الاطار الشعري عند بعض الشعراء الذين ظهر أغلبهم أثناء الثورة التحريرية. ومن الانصاف لابد أن نقول إن شعر النضال قام بدوره أحسن قيام، وإن كانت تنقصه الخبرة الفنية. فإنه تميز بالثورية وبتكيف كامل مع الأحداث وسيبقى وثيقة تاريخية أدانت الاستعمار وحركت الناس الخيرين ضده. أن الموت لاتدرك الأثار الأدبية القيمة التي تحيل الكلمات إلى رصاص في صدر الأعداء.

ولأن سنتناول ألوانا أدبية أخرى أسهمت في النضال كالقصة القصيرة والمقالة الصحفية والمعرض والمسرح. كانت الصحافة مشعلا من مشاعل النهضة القومية، فأيقظت المقالات الصحفية الوعي القومي بالدعوة إلى الجهاد وتنوير الأذهان وتنبيه الرآى العام على فضائح العدو.

ولاشك أن الشيخ البشير الابراهيمي هو أبرز شخصية أدبية ساهمت في الصحافة طيلة هذه لفترة.

وظهرت أثناء الثورة القصص الواقعية التي تعالج قضايا الساعة وتلتزم بمشاكل الانسان البسيط وهمومه ومطامحه فاستمدت القصة موضوعاتها من الواقع الثوري، فأصبح التفكير الجماعي والنضال الجماعي وروح الاخوة والتظامن من سمات القصة. عالج كتاب القصة القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية، فصوروا الواقع المر وانتقدوا العادات والتقاليد البالية والاستعمار البغيض ومخالفته ويرجع الفضل إلى الكاتب الشهير أحمد رضا حوحو الذي أرسى بجهوده المتعددة القواعد الأولى لهذا الفن.

وأثناء هذه المرحلة تطورت القصة وخطت خطوة جديدة واقتربت من النضج. فأصبحت تميل إلى الايحاء وإن لم تتخلص من الأسلوب الخطابي نهائيا، فوجدت نماذج جيدة للقصة وإلى جانبها وجدت نماذج تنقصها الخبرة الفنية لكنها تزخر بالتجارب الحية، ومن كتاب القصة القصيرة نذكر عبد الحميد بن هدوقة وأحمد بن عشور وعبد المجيد الشافعي وعثمان سعدي وأبو العيد دودو. ومن الفنون الأدبية التي لعبت دورا حاسما في هذه الفترة نذكر المسرح الذي يشكل ركنا أساسيا من الثقافة الوطنية من حيث إرتباطه بمسيرة المجتمع من خلال القضايا التي يعالجها.

مر المسرح الجزائري بمراحل عديدة عاش خلالها فترات إزدهار وفترات ركود رغم العراقيل التي يجابهها، إستطاع أن يثبت وجوده مسايرا الأحداث والتغيرات التي عاشها المجتمع الجزائري.

وجدت قبل الثورة التحريرية بعض المسرحيات التاريخية والاجتماعية ذات إتجاه تهذيبي وتثقيفي وإبان الثورة ظهرت مسرحيات تعبر عن نضال الشعب، فكانت سلاحا من الأسلحة التي إستعملها الأدباء لأثارة الحماس في نفوس الجماهير وللتعريف بالقضية الجزائرية وتنبيه الرأي العام العالمي.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

لقد دعت جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة المسلحة إلى تشكيل فرقة فنية أسندت لها مهام بتقديم عروض هي عبارة عن لوحات من كفاح الشعب البطل، فقامت هذه الفرقة بجولات زارت خلالها الدول الشقيقة والصديقة قدمت فيها عروضا حول مايجري في الجزائر من أحداث ثورية، فنالت إقبالا كبيرا وأطلعت الرأي العام العالمي على القضية الجزائرية العادلة من أجل الحرية والكرامة رغم قلة المسرحيات ورغم العقبات التي يواجهها المسرح فقد أدى هذا الفن الحي دورا محسوسا على الصعيد الثقافي. وقف بصمود إلى جانب المعركة التي كان يخوضها المجاهد، مبرهنا على وجود الكيان الوطني ومدافعا عن الشخصية الوطنية العربية الاسلامية ومحاربا الظواهر السلبية التي تتنافى مع مصالح المجتمع.

سيبقى المسرح وسيلة لمحاربة الفساد الاجتماعي والحفاظ عن الشخصية الوطنية وسيكون خادما للحقيقة.

وهكذا نستخلص أن أدب النضال شعرا ونثرا ساهم مساهمة إيجابية وفعالة في الدعوة إلى الثورة التحريرية، إلى الايمان بالشخصية الوطنية والدعوة إلى إصلاح المجتمع، فاحتضن نتاج الأدباء القضية الجزائرية العادلة إحتضانا كاملا واكتسب الأدب من هذا الجو الثوري طاقة جديدة وعرف تنوعا في الانتاج والانشاط.

فأصبحت الثورة التحريرية تعيش وحدة عمل ثوري ووحدة فكر ثوري يعطي للقضية بعدا عالميا يحقق وجودها الفعلي بين القضايا الانسانية الكبرى.

ومما لاشك فيه أن أدب النضال أثر في توجيه الثقافة الجزائرية في عهد الاستقلال فأصبحت هذه الثقافة عربية ثورية وشعبية تسهم في ترقية الانسان ثقافيا وفكريا وحضاريا.

الجانب المادي البحت والجانب الروحي المخص .. كما أننا نحاول عبثا بعث أمجادنا الثورية إذا

محمد زرال

رأى في جمع ماد تاريخ الثورة

لئن جوزت قدري في محاولة الكتابة عن الثرة الجزائرية فعذري في ذلك أني واحد من ابناء هذه لثورة الذين يواصلون رحلتها تحت شمسها المشرقة .

لقد كان لفراغ المكتبة العربية من المصادر الصحيحة التي تمثل وجهة النظر الوطنية عن بعض الفزات الحاسمة من تاريخ شعبنا أثره اسيء على بحوث ودراسات مؤرخينا الذين لايستوفي لواحد منهم أي دراسة حقها من البحث والتحليل والوصول للذروة في النتائج المرجوة ويزي ذلك لندرة المراجع المحلية التي تمثل أمام الدارس عقبة كبيرة في تكثيف المادة العلمية وتطوير الأفكار التاريخية والرجوع بها لأسبابها الحقيقية وانطلاقا من هذا الأساس فإن جوانب كثيرة من تاريخنا الحديث لاتزال مادة خاما تنتظر نزاهة العلماء الباحثين وعمل الرجال المخلصين.

لقد ظهرت بعض الكتابات الأجنبية المعرضة عن الثورة تستهدف كلها التقليل من شأنها ومحاولة إفراغها من محتواها الوطني الأصيل، بل أن هذه الكتابات ترمي لأن تجعل من الثورة تجارة كاسدة غير رابحة وعظة غير متداولة على مر العصور وأخشى ما أخشاه أن ينقرض جيل الثورة هذا ولايترك شيئا ذا بال عن هذه الثورة تعتمد عليه أجيالنا القادمة في كتابة تاريخها الحافل بالأمجاد والبطولات عندئذ سيحكم علينا التاريخ ويحاسبنا حسابا غير يسير.

إن تدوين المجاهدين في صفوف الجيش والمناضلين في صفوف الحزب للحوادث التي صنعوها بأيديهم هو ركن من الأركان الأساسية التي ستعتمد عليها الأجيال القادمة في كتابة تاريخ الثورة وإخراجه في ثوبة القشيب. فإذا قام كل واحد منا بكتابة أو إملاء أو تسجيل على الشريط لكل معلوماته عن الثورة فإننا نكون قد أدينا بحق بعض ما علينا نحو المستقبل بل نحو العدل والانصاف لهذه الثورة في إطار تاريخها المحيط الذي يجب أن يكتب من زاوية وطنية تأخذ هذه الفكرة بعين الاعتبار وهي أن إسدال ستار النسيان والطمس المتعمد للحقائق الصارخة لتاريخنا الطويل كانا هما (الطابع العام) الذي يغلب على بعض الكتاب الأجانب (وهم أسياد في هذه البلاد) أفلا يحق لنا (ونحن اليوم أسياد في هذا البلاد كذلك) أن نهيء الأرضية الصحيحة لكتابة أصح وأشمل لتاريخ الثورة فنقوم بعملية جمع دقيق لكل المعلومات التي تتعلق بها. أن من قريب أو من بعيد، إذ ليس أشد إيلاما لنفس المناضل الحر ولا أدعي الغضبه من أن يرى القنابل الموقوتة تنسف الأثار الحية لشهداء شعبه وأمجاد بلاده .

إن محاولات كبيرة قد ظهرت متفاوتة في الزمان تستهدف كلها جمع المعطيات الثورية العامة من الوثائق والمعلومات وكاسلة [illegible] وغرافية واللوحات الزيتية ما كان أحداها وأنفعها لو أنها جعلت من الاستمرارية شعارا لها ومن تحقيق أطيب النتائج مبدأ لها .

إننا نبارك كل مبادرة تستهدف الحفاظ على، الثروة الثرية للثورة في إطاريها الكبيرين :

Créé avec nitroPDF professional
Téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

لم نعتمد في ذلك على تصحيح شامل للوقائع الحية للثور
في مستقبل الأيام قاعدة صلبة لكتابة أكثر منهجية وادق
الشمس. إننا نحذر من أن تقع أجيالنا القادمة في أخط
من يتحمل وزرها وينوء بثقل عبئها .

إن مسؤوليتنا ـ كما كانت عظيمة في تحرير البلاد ـ ستك
بالخبر اليقين والنباء العظيم الذي بشأنه سيتسألون . وع
أوكد الواجبات علينا أن نترك للجيل القادم مادة خصبة
الأبعاد الانسانية للثورة ذلك أن فهما عميقا لأهداف ومب
الدراسة والتحليل لشخصية أولئك الذين صنعوها وأفنو
لها والأعداد لتفجيرها .

الطريقة العملية في الجمع :

والسبب الذي حملني على تسجيل هذه الخواطر هو أن
عن الطريقة الصحيحة لجمع مادة تاريخ الثورة قد طال
إيمانا بفعالية وجدوى هذه الطريقة العلمية والعملية في
تتكون هيئة وطنية خاصة بجمع مادة تاريخ الثورة يعهد
الفرنسية اليومية التي كانت تصدر بالجزائر وذلك من أول
مثل جريدة ألجي روبيليكان وليكود ألجي ، ولاديبش دي
من هذه العملية تأتي المرحلة الثانية وهي فرز هذه الج
القديمة ثم ترسل حزم من هذه الجرائد إلى إتحاديات
الفعلي عليها وذلك بأن تقوم بتحقيق ميداني عن مدى ص
في التوضيح فإننا نسوق هذا المثل : أوردت جريدة .

ليكود ألجي بتاريخ 1955/01/01م أن معركة مس
الفرنسي في مكان ما من ولاية عنابة وقد كانت خسائر
وعشرة أسرى أما الجانب الفرنسي فلم يخسر سوى قتيلين

هذه هي المعركة وهذه هي نتائجها . كما تثبت ذلك
الرسمية في هذه المعركة وفي غيرها من المعارك الأخرى و
سلطاتها المحلية فإننا نجمع المجاهدين والمناضلين وكل
كانوا ممن يعملون في صفوف العدو ونطلب منهم أن يد
والظروف العامة التي إكتنفتها وأحاطت بها كعدد من
مشاركة الشعب فيها إلى جانب المجاهدين ومدى الا
العزل، وبالتالي تأثيراتها البالغة على كامل تلك المنطقة
وبعد الانتهاء من هذا التحقيق الكامل للمعركة فإن
أولئك الشهود أو البعض منهم نيابة عنهم ـ أن كان عددهم
المحلية كذلك ثم يرفق ذلك التقرير الذي يمثل وجهة

اليوم إنهاكانت تستهدف رفع الروح المعنوية لعدو وإثباط عزيمة الثورة ولذلك تحكمت العواطف في كتابات جرائد العدو التي جاءت مالة للتزوير هادفة للتضرير. وليس يفوتنا في هذا العد أن نشير إلى ظاهرة هامة وهي أن هاه الجرائد لم تكن تنشر كل ما كان يقع من أعمال حرية وخاصة مايتعلق منها بالأعمال الانتقمية، فهل كانت تذيع في الناس مثلا ماكان يأتي به جيشها الأثم من مناكر وفضائح في حق الأهالي العزل كانتهاك الحرمات، والأعدامات الجماعية للشعب، ومصادرة الأملاك والأرزاق، وتدمير القرى والمداشر، وإحراق الأرض والغابات؟ أم أنها كانت تنشر تلك الخسائر النكراء لبعض معاركها مع المجاهدين ؟ تلك المعارك الي كانت تدور رحاها طاحنة بعيدا عن الأعلام ؟ ومن هنا فإننا نؤكد على القول أن السلطات العسكرية الفرنسية في كتابتها للتقارير الرسمية عن الثورة شيء وفي إذاعتها لأخبار هذه الثورة في الجماهير شيء آخر.

ومن منا فإننا نجلب إنتباه كل من يهمهم الأمر إلى الأهمية البالغة لمحاضر إجتماعات السلطة لفرنسية في جميع مستوياتها وذلك في مناقشتها ودراستها للأوضاع الاستثنائية التي كانت البلاد تعيشها، خاصة مايتناول الجانب العسكري منها، وذلك لأن الحقيقة الناصعة لهذه الأوصاع إنما تتجلى في تلك المحاضر والاجتماعات والمداولات كما لايفوتنا أن ننبه كذلك لأهمية محاضر الشرطة الفرنسية في استنطاق المسجونين من المناضلين، وأخيرا فليس يغيب عن الأذهان سماع شهادة كل من يرغب في الادلاء بشهادته من أحرار الفرنسين أنفسهم عن الثورة بل واستضافة البعض من هؤلاء ليزودونا بما يثري تاريخ الثورة من معلومات قد نكون في أمس الحاجة إليها.

إننا بقيامنا بهذه التحقيقات التاريخية الكبرى نكون قد أسهمنا إسهاما علميا وعمليا في تهيئة التربة الصالحة التي ستكون منطلقا صحيحا، ودعامة أساسية من دعائم التاريخ العام للبلاد، بل في كتابة ركن من أهم أركانه إلا وهو كتابة تاريخ الثورة التحريرية الكبرى التي بلغت ذراها السامقة وغاياتها البعيدة.

إن عظمة الثورة الجزائرية مستوحاة من عظمة شعبها الموغل في القدم، الضارب في إعماق التاريخ، الصانع للأمجاد والبطولات، وإنطلاقا من هذا فإننا نقول : إن هذه الثورة كبيرة جدا على الدارسين والباحثين والمؤرخين نعم هي كبيرة بمعاركها العظمي، واشتباكاتها الكبرى وكمائنها الكثيرة، كبيرة بأعمالها في الفداء وكبيرة أخيرا بطرقها المحكمة في تنظيمها السياسي والعسكري. والدبلوماسي، بحيث سيطرت على كل فكر في هذه البلاد، تركت أثرا لها في كل جبل وفي كل واد، كانت في البحر كما كانت في الصحراء كانت في الأرض كما كانت في السماء، وإذا كانت الثورة الجزائرية بمثل ما ذكرنا من شمولية واحتواء واقتدار على الاتيان ببعظائم الأمور. فهل يمكن للاخوان المجاهدين والمناضلين ـ الذين صنعوها بأيديهم ـ أن يقدموا لنا اليوم وللأجيال القادمة بصفة خاصة حقائق بشأنها غاية في الضبط والدقة دون الاعتماد في ذلك على أثر مكتوب ينفون أويثبتون بعض ما جاء فيه ؟ أني أبادر إلى القول بالنفي القاطع لذلك، لأنهم إن ذكروا الكثير عن الثورة سينسون الأكثر، وأن تحدثوا عن شيء يتعلق بها غابت عنهم أشياء، ويعزى ذلك لسببين إثنين : يتمثل أولهما في كثافة مادة تاريخ الثورة أي في تعدد جوانبها، وتشعب نواحيها سواء أكان ذلك في الأعمال الحربية كالأشتباكات، والمعارك والكمائن، والحصارات، العسكرية وغيرها أو في القتل، والتعذيب،

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

والسلب، والنهب، والتدمير، والاحراق، أما السبب الثاني فيتمثل في البعد الزمني الذي أصبح يفصل بين ذلك العهد البطولي وبين المجاهدين اليوم وماينتج عن ذلك من نسيان بسبب ضعف ذاكرة البعض.

مزايا هذه الطريقة :

ولئلا نقع في مثل هذه الظاهرة ذات النتائج السلبية فإن إيجابية هذه الطريقة العملية في الجمع تبرز مزاياها في النقاط الست عشرة الأتية :

1 ـ التعبير الحر والنزيه عن وجهة النظر الوطنية في تلك المعارك.

2 ـ الضبط المحكم لتاريخ معاركنا مع العدو بل تحديد المكان واليوم والساعة التي دارت فيها تلك المعارك.

3 ـ الاحصاء الدقيق لكل المعارك والاشتباكات والكمائن، والحصارات العسكرية التي خاضها المجاهدون أو وقعوا فيها وذلك لأننا لانستطيع حصر كل هذه الأعمال المسلحة، إذا لم نتتبعها يوما فيوما ولن يأتي لنا ذلك إلا من خلال أثر مكتوب، ويكاد لايكون بين أيدينا اليوم شيء من ذلك إلا جرائد العدو اليومية. فهي التي واكبتها بإذاعة أخبارها من أول يوم إندلعت فيه الثورة إلى اليوم الذي وقع الجنوح فيه للسلم، وليس جمع عدد من المجاهدين في مناسبات خاصة ـ مهما كان عددهم غفيرا ـ يفي بهذا الغرض لا لشيء إلا لأنهم أي المجاهدين أن ذكروا معركة غابت عنهم معارك، وأن قادهم الحديث لتسليط الأضواء على حصار عسكري بعينه أنساهم ذلك حصارات أخرى وكمائن غيرها يطوي صفحتها النسيان.

والسبب واضح جدا، هو أن الثورة كبيرة كما قلنا بأعمالها البطولية، كبيرة كبر هذه الأرض الشاسعة الأطراف الممتدة الغور.

4 ـ الكشف عن بعض المعارك التي لم تنشرها الجرائد الفرنسية

5 ـ الكشف عن الاعدامات الجماعية للشعب وغيرها من نفي وتشريد.

6 ـ الكشف عن أعمال السلب كمصادرة الحيوانات من أغنام وأبقار وغيرها.

7 ـ إحصاء لكل ماتم تدميره من مساكن ومحلات تجارية وإحراق للأرض والغابات.

8 ـ معرفة النسبة المئوية للذين أعدموا رميا بالرصاص بالنسبة للذين شنقوا أو استشهدوا تحت التعذيب، أو رموا في الأبار وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ـ وأخيرا معرفة النسبة المئوية للحيوانات المصادرة والأملاك المدمرة والأرض والغابات المحروقة.

9 ـ التعرف التام على الحياة اليومية للمناضلين المسجونين أو المعتقلين في سجون ومحتشدات العدو فهؤلاء قد يزودوننا بحكايات طريفة وأقاصيص لطيفة تصور حياتهم تلك في تراحمهم وتوادهم، وتصلح في الوقت ذاته لأن تكون منطلقا لأعمال آدبية رائعة يستلهم من وحيها الدفاق ذلك القلم السيال لهذا الأديب الألمعي، أو ذاك الشاعر الفحل الصنديد أو الكاتب المسرحي المنشيء.

10 ـ التعرف الدقيق على مدى التلاحم التلقائي الذي أحكمت يد الله صنعه بين صفوف الشعب المتراصة وقوافل المجاهدين على أرض المعركة.

11- إستخراج الفكاهة الجادة والهادفة وهذ لعمرى جانب غزير المادة من أهم جوانب الثورة فهوقد عبر بصدق وحرارة عن الحياة اليوميةللمجاهدين والمسجونين والمعتقلين من المناضلين في ماهدتهم ومعاندتهم، ومكابرتهم للعدو حينا، وفي أملهم البراق ويأسهم القانط حينا آخر.

12- جمع الأشعار الشعبية التي تغني بها الماضلون إبان إشتداد محنتهم الوطنية.

13- تدوين للأقوال المأثورة والكلمات الخالدة للشهداء وتسجيل وصاياهم عن الثورة والوطن.

14- جمع الألفاظ التي إستحدثتها الثورة تعبر بها عن مدى إنتشارها في كل مجالات حياتها اليمية.

15- وضع قاموس مفهرس بأسماء الشهداء.

16- وضع قاموس مفهرس بأسماء الجبال وغيرها من الأماكن التي دارت فيها المعارك.

الطريقة النظرية في الجمع :

قد يقول قائل أن هذه الطريقة هي رجوع بالتاريخ لمفاهيمه القديمة، لأنها لاتعدو أن تكون مجرد مرد للحوادث وتتبع لها والثورة الجزائرية تفتقر إلى التحليل العلمي الدقيق والنعرف التام على الأسباب والمسببات - وللرد على هذا الرأي فإننا نقول : أن هذه الطريقة هي قبل كل شيء عبارة عن دراسة ميدانية أو بعبارة أدق وأشمل للمعنى هي تحقيق علمي وعملي في الوقت ذاته هدفها الغربلة، والبحث، والتدقيق، وطريقتها الاتصال المباشر بأماكن الحوادث، وإجراء حوادث عملية مع أولئك الذين صنعوا هذه الحوادث. وهي بالتالي تصحيح وطني لمفاهيم زيفها العدو وتعبير حر عن رأينا في تلك الوقائع التي ستستخدمها أجيالنا القادمة مادة حية في تصوراتها العامة لجيل ثورة 1954 وهو يكابد العدو ويجاهده، يكر عليه ويفر يقبل عليه ويدبر - أني أوكد أن الأجيال المتعاقبة سوف تكون في حيرة من أمرها إذا لم نقدم لها شهادات صادقة تكون سلاحها الحاد في دحض تلك الحجج الواهية التي إمتلأت بها جرائد العدو والتي صورتنا بأبشع الصور وقدمتنا لهذا العالم ولمن سيأتون بعدنا على أننا مجرموا حرب غير جديرين بالحياة نسينا التاريخ فلم يذكرنا بحضارة أقمناها أو مجد صنعناه أو إسهام في تطور وتقدم الانسان كان لنا فيه باع. قلت : إن هذه الطريقة هي تحقيق علمي وعملي تساير الثورة في جانب من أهم جوانبها إلا وهو الجانب العسكري وما تفرع عنه، وتواكبها في سنواتها السبع الشداد باليوم والشهر والحول، فهي بهذا تقويم معنوى وعددي لمعاركها الحربية مع العدو هذا بإختصار عن الجانب العملي في الثورة أما عن الجانب النظري لها فيمكن تقسيمه إلى الفروع الآتية :

1 - الجانب التنظيمي ويشمل :

أ - الوضع السياسي العام في الجزائر قبل االثورة.
ب - فشل الأحزاب السياسية في تفجير الثورة.
ج - الحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية للشعب قبل إندلاع الثورة.
د - إجتماع المسؤولين 22.
هـ - التحضير السياسي والعسكري للثورة.
و - إندلاع الثورة في أول 1954.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

2 - الجانب العسكري ويشتمل على :

أ - المعارك الكبرى والحاسمة فقط.
ب - التنظيم السياسي والعسكري في صفوف الشعب ووحدات المجاهدين.
ج - التسليح والتموين في الثورة.
د - التكوين السياسي والعسكري للمجاهدين.

3 - الجانب السياسي ويشمل :

أ - النشاطات السياسية للثورة داخل الجزائر وخارجها.
ب - المؤسسات الوطنية للثورة كالمجلس الوطني للثورة، والحكومة المؤقتة وغيرها.

4 - الجانب الدبلوماسي ويشمل :

القضية الجزائرية في الأمم المتحدة وغيرها من المحافل الدولية. نعم أن الثورة تملك وثائق كثيرة عن هذه الجوانب كلها وهي وثائق ثرية وغنية بالمعلومات ولكنها معلومات عامة. والذي نريده في هذه العجالة هو تحليل ضاف وشرح واف لتلك المعلومات التي أذيعت في الناس مقتضية كما أقتضت ذلك الظروف الخاصة والمصلحة العامة للثورة - فمن منا لايعرف القليل أو الكثير عن المؤامرات الخطيرة والدسائس المسمومة التي حيكت على هذه الثورة ؟ أولا يتذكر تلك العواطف العاتية الهوجاء والهزات العنيفة التي كادت تميد بأرضية الثورة لولا شفاعة دماء الشهداء فيها عند الله ولولا وضوح مبادئها النبيلة وتفاني رجالاتها في الدفاع عنها ؟ وأخيرا هل ننسي تلك المساومات السياسية للأستعمار وحلفائه والضغوط الدبلوماسية التي تعرضت لها الثورة ؟ أن هذه كلها وتلك جديرة بالدرس والتحليل، لأنها ستفجر الثورة عظمة وجلال وتزيدها أبهة وإكبارا.

إن التشريح العضوي للثورة والسير البعيد لأغوارها سيرنا - كما سترى الأجيال القادمة - حقيقتها الكامنة في نفسها ويبهرنا ويسحرنا بما كانت الأيام تخبئه لهذا الجيل العظيم. . . جيل الثورة نوفمبر 1954 وأن لنا لأمثلة كثيرة في التاريخ الاسلامي من هذه الأعاصير والمصاعب أفلم ينهزم المسلمون في غزوة أحد ؟ ألم تقع ردة في الاسلام في عهد أبي بكر ؟ ألم يهاجر المسلمون من مكة إلى المدينة هروبا يدينهم بعد أن اشتد عليهم أذى قريش ؟ ألم يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته عاما سماه المؤرخون (عام الحزن) ؟.

إن الكشف عن هذه المصاعب والأهوال لم يزد الدعوة الاسلامية إلا خلودا وبقاء في التاريخ. بل أنه على العكس من ذلك قد برهن على قدرة هذه الدعوة في التغلب على الصعوبات والمعوقات وإذا كان لابد مما ليس منه يد فإننا نقول : إن الأجيال القادمة سوف تصوغ منظورها للثورة إنطلاقا من أرضيتها التي تصارع عليها الحق والباطل. وتقديمنا لهذه الثوة بكل تفاصيلها وإشكالاتها بل ومتاهاتها من شأنه أن يساعد هذه الأجيال على تفهم أعمق وتقبل أشد لها وصياغتها أخيرا في قوالب أن إختلفت في الأشكال ستلتقي حتما في حظ هذه الثورة المتفرد من العلو والشموخ. ولذلك فإننا نقترح تشكيل هيئة وطنية عليا من بعض الاخوان الذين سايروا القضية الوطنية في أعلى مستوياتها وتكون المهمة المتوخاة من هذه الهيئة هو جمع المعلومات التي لم تنشر ولم تذع في الناس عن الجوانب المذكورة للثورة. ويكون ذلك

بتنظيم ملتقيات دورية تلقى فيها محاضرات بمسامرات كتابة وتسجيلا على شريط كما تنشر مقالات في الجرائد والمجلات - إن أمكن ذلك - وإذا استعصى هذا الرأي على التنفيذ بهذه الصورة، فأي شيء يمنع كل من كانوا مسؤولين في الهرم الأعلى للثورة أن يكتبوا ويدونوا مذكراتهم الخاصة ؟ أن الحسابات شيء وكتابة حقائق الثورة شيء أخر - ولسنا نرى بأسا في لم شتات التراث الثقافي للثورة الذي ظل موزعا هنا وهناك تخزنة الصدور أناس معرضين للانقراض بين الحظة والأخرى، أن الهدف من هذه الملتقيات - التي قد تكون في إطار ضيق وعلى ستوى الاطارات فقط - هو كشف النقاب عن زوايا بقيت خفية في الثورة وليس علينا حرج ي الابانة عليها اليوم لأنها ستغمر الثورة بضوء كاشف جديد وتضفي عليها هالة من الأكبار والأجلال - وتطبعها بطابع الخلود وترسم لها لوحة فنية تتربع بها على كرسي التاريخ، وتحتل مكانها المرموق في دنيا الثورات وعلم التحفظات بل عالم الطموحات لحياة فضلي ومستقبل أسعد لحياة الناس كل الناس.

إنا نكون قد أدينا خدمة جليلة للثورة لو أننا أدخلنا في برنامج تعليم الثانويات العامة والجامعات وما يعادل هذين المستويين مادة حديدة سميناها (جمع مادة تاريخ الثورة) هدفها الكبير هو الحصول على معلومات عن الثورة من أصحابها الأصليين ذلك أن عددا كبيرا من هؤلاء المجاهدين والمناضلين يقومون بأعمال مختلفة في هذه المؤسسات ذاتها. فلم لا يتصل بهم الطلبة ليزودوهم بدقائق وتفاصيل عن هذه الثورة التي بقيت معالم كبيرة منها مجهولة لدى عامة الناس والمحققين منهم بصفة خاصة ؟ أفلا يكون إلزام المنتسبين للمؤسسات المذكورة بتقديم دراسات ميدانية عن الثورة ضربا من ضروب التطوع، ورمزا من رموز تمتين وشائج القربى، وإحياء صلة الرحم التي تشد هؤلاء الطلبة شدا عنيفا إلى صفوف الجماهير المتراصة ؟ إن دور الطلبة عظيم في هذا الميدان ولا أخا لهم إلا لم يتفطنوا إليه فهو وثيق الصلة برسالتهم العلمية لأنه إنماء لمعلوماتهم، وتفتح لأفكارهم عن عالم يزخر بمواضيع إنسانية في محتواها دينية في معتقدها، سياسية في مبادئها دبلوماسية في طرقها ووسائلها. وفي إعتقادنا فإن تنسيق العمل بين لجنة التطوع الوطنية وبين وزارتي هؤلاء الطلبة سيقضي إلى أطيب النتائج ويشق بهذه المهمة النبيلة طريقها إلى النجاح رغم ماسيعترضها من صعوبات حادة سرعان ماتتذلل.
وفي رأينا كذلك فإن التعجيل بسن قانون خاص بجمع المعطيات الثورية يقع التنصيص فيه على تقديم (جائزة الثورة) لمن يقدم معلومات أكثر شمولية، وأكثر دقة. وتحديد الزمان والمكان لهذا الغرض هما أمران لاينبغي أن ينتطح فيهما كبشان ولا يتراهن بشأنهما فرسان ذلك أن الاسراع بسن هذا القانون من شأنه أن يجعل المواطنين مطمئنين على مصير الأشياء التي يهدونها إلى الجهة المختصة متى تطلب منهم ذلك. أن كل مواطن وخاصة كل مجاهد ومناضل مطالب بأن يقدم كل مالديه من معلومات يختزنها في صدره، وكل مايملك في حوزته من معطليات عامة عن الثورة متى دعاه إلى ذلك داعي الوطن وأن ترك الباب مفتوحا لكل المبادرات الشخصية هو جانب اخر مكمل لهذه العملية الوطنية - بل أننا نهيب بكل المناضلين الذين لايحسنون القراءة والكتابة أن يتولوا إملاء كل مايعرفون من حقائق تتصل بالثورة على بعض معارفهم أو أقارهم من الشباب المثقف الذي أصبح لاتخلوا منه أية أسرة في أي جهة من جهات البلاد.

كما أننا نكون قد أدينا بعض ماعلينا في جمع مادة تاريخ الثورة لو أن رؤساء المجالس الشعبية البلدية قاموا كلهم بتقديم وثيقة ومعلوماتها شاملة في أخبارها عن ذلك

العدد الهائل من الشهداء الذين تحمل المدن والقرى والساحات العامة والشوارع والانهج والمؤسسات العامة والخاصة أسماءهم، ذلك أن النهوض بهذا العمل الوطني العظيم سيسهم هو الأخر إسهاما كبيرا في إثراء مادة تاريخ الثورة بما يقدمه لها من معلومات تكشف عن بعض الخبايا وتمد بعض الفجوات، فهي بذلك ستكون أداة مساعدة في كتابة تاريخ الثورة وصيانته صيانة علمية لاتهمل كل ما من شأنه أن يسجل الحقيقة ويعمل على تعريتها وتقديمها عنصرا مكملا لفكرة وعاملا من عوامل شرح وتعليل وتحليل ولعل أكبر مايجب التركيز عليه أكثر من غيره في تكوين تلك الملفات هو تسجيل الأفكار الشخصية عن الثورة لبعض الشهداء وذلك من خلال أقوالهم المأثورة وكلماتهم الخالدة ومواقفهم التي إنفردوا والتي سيذكرها لهم التاريخ. فأضفت على شخصيتهم هالة من الأكبار والأجلال سواء أكان ذلك في ثباتهم أمام العدو أو الزحف عليه، أو في محاولة السلطات الاستعمارية إستنطاق لهم، والتفنن في تعذيبهم، فإذا كنا نقرأ في سير الصحابة وأتباعهم كلمات مضيئة عن الاسلام تصور عمق إيمانهم به، وسمو تفكيرهم فيه، فأي شيء نعرف من مثل هذه الأقوال عن عظماء شهداء ثورتنا في التعريف بهذه الثورة والأعداد لها وفي أثناء إشتدادها على المستعمرين ؟ أننا لانكاد نعرف شيئا عن أقوالهم هذه، وأقوال الناس فيهم إلا النزر اليسير الذي لايكاد يفي بالهدف أو يعبر عن الغرض، ولذلك فإن جمع الأقوال، ولم شتات تلك، الكلمات الخالدة من شأنه أن يساعد الدارس والباحث، والقارىء وكل مهتم بأخبار الثورة على تشريح الشخصية الحقيقية لأولئك الشهداء وغيرهم ممن صنعوا هذه الثورة أولئك الذين عبروا بجمال الكلمة وسحرها بل وجزالتها عن أصالة الثورة قبل أن يعبروا عنها بحد السلاح.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

النشاط العلمي
لأساتذة معهد التاريخ ـ جامعة الجزائر
السنة الجامعية 1992/1993

خلال السنة الجامعية الفارطة : 1992 / 1993 قامت ثلة من أساتذة معهد التاريخ بنشاط علمي في داخل الوطن وخارجه. ولئن تندرج هذه المبادرات في شيء، فإنما تندرج في الكفاح الثقافي الذي يخوضه كل أستاذ واعي بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، وإيصال أفكاره، مهما كان نوعها إلى من هم حوله شبابا، وشابات، كهولا، وشيوخا.

وإليكم أسماء هؤلاء مرتبة حسب حروف المنجد :

ـ **أحمد مريوش، أستاذ مساعد معهد التاريخ** : شارك في الملتقى المغاربي حول مصادر ومراجع تاريخ الجزائر، الفترة المعاصرة، بمحاضرة عنوانها : « الاصلاح في الجزائر، مصادره ومراجعه العربية ما بين (1930 ـ 1950) ».

شرك في الأيام الثقافية لأحياء الذكرى الثالثة والثلاثين لوفاة الطيب العقبي، ببسكرة، مابين 26/28 ماي 1993 بمحاضرة عنوانها : « خلاصة وإستنتاجات من مسيرة الشيخ الطيب العقبي الاصلاحية ».

ـ **د/ فنان جمال** : ندوة حول ثورة نوفمبر، بمناسبة الذكرى الثامنة والثلاثين لأندلاع ثورة نوفبر 1954 بتاريخ 31.10.1993

شارك في الملتقى حول 8 ماي 1945، الذي نظم تحت إشراف جمعية 8 ماي 1945، في سعيدة، بتاريخ 8 ماي 1993، بمحاضرة تحت عنوان : « نظام عالمي جديد أم سيطرة إستعمارية جديدة ».

ألقى محاضرة تحت عنوان : « ثورة نوفبر 1954 إنطلاقة جديدة لحركة التحرر الوطني، يوم 28/10/1993 بالمدرسة العليا للأساتذة الخروبة.

ألقى محاضرة تحت رعاية جامعة الجزائر بمناسبة الذكرى التاسعة والثلاثين لثورة نوفبر تحت عنوان : « جذور الفاتح من نوفبر 1954، بالنفق الجامعي ».

د/ عمار هلال : نشط ونظم الملتقى المغاربي الأول، حول المصادر والمراجع العربية لتاريخ الجزائر (1830 ـ 1962). وفي إطار وحدة البحث التي يشرف عليها، تحت نفس العنوان، وذلك في فترة الممتدة مابين 28/29 ديسمبر 1992.

شارك في ندوة الأندلس « الأندلس ذكرى وعبرة » التي نظمها المعهد، بتاريخ 19 ماي 1993، بجامعة بوزريعة، بمحاضرة عنوانها : « العلماء الجزائريون في الأندلس، فيمابين القرنين الرابع والثامن الهجريين، العاشر واللرابع عشر الميلاديين ».

نشط وشارك في مائدة مستديرة متلفزة حول إضراب الطلبة الجزائريين في 19 ماي 1956، التى بثت على الشاشة الصغيرة يوم الجمعة 23 من نفس الشهر على 20، 11 سا.

شارك في ندوة 17 أكتوبر « يوم الهجرة » التي نظمها المركز الثقافي الاسلامي، بالجزائر العاصمة، في نفس اليوم المذكور، بمحاضرة عنوانها « الهجرة هجرتان : هجرة نحو فرنسا وهجرة نحو بلاد الشام فأيهما أفضل هذا اليوم ؟ ولماذا هذه الذات ؟ »

شارك في الملتقى الدولي، الذي انعقد في فاس بالمغرب، بين 28/30 أكتوبر 1993، بمحاضرة عنوانها : « العلماء الجزائريون في المغرب الأقصى، فيما بين القرنين الرابع والرابع عشر الميلاديين، العاشر والعشرين الميلاديين »

شارك في الملتقى الدولي للمقاومة التونسية خلال القرنين 19 و 20 الميلاديين، الذي إنعقد بتونس، تحت إشراف المعهد العالي للحركة الوطنية التونسية، فيما بين 18/20 نوفمبر 1993، بمحاضرة عنوانها : « بعض أوجه التشابه والاختلاف بين المقاومتين المسلحتين الجزائرية والتونسية خلال القرن الماضي ».

شارك في إحياء مظاهرات 11 ديسمبر 1960، التي نظمتها جامعة الجزائر، بتاريخ 11 ديسمبر 1992، بالنفق الجامعي، بمحاضرة عنوانها : « مظاهرات 11 ديسمبر 1960، تطوراتها ونتائجها ».

شارك في الندوة الفكرية السادسة لمحمد الأمين العمودي، الوادي 29/30 أفريل و1ماي 1993، بمحاضرة عنوانها : « الشيخ عبد العزيز بلهاشمي ومواقفه السياسية والاصلاحية ».

Created with nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

بين فاس وتونس
(حول الملتقيين الدوليين الذين انعقدا بكل من فاس وتونس)

نظمت كلية الأداب فاس ـ سايس، بلتعاون مع معهد الدراسات الافريقية، ملتقى دولي، تحت عنوان فاس وإفريقيا، في الفترةالممتدة مابين 28 و 30 أكتوبر 1993.

قد خصصت الصبيحة الأولى تقريبا للأفتتاح الرسمي للملتقى، عدا محاضرة د. عمر كان التي برمجت في نهايتها، التي دارت حول مكانة الطائفة التجانيه بالسينغال، وعلاقتها بزاوية الشيخ أحمد التجاني بفاس. ولقد أعتمد المحاضر على ملاحظاته الشخصية أكثر منه علىمصادر أخرى مكتوبة أو شفوية، ولأن لكلمة من مواضيع الساعة، لاحظنا من خلالها الاشارة، والاشادة، بالتجانية ومريديها في كل من السنغال وفاس، قديما وحديثا. وقد تم الافتاح هذا، بقاعة فخمة، جميلة، بدار لعمالة في فاس، أشرف عليه وزير الدولة، أحمد العلوي، الذي ركز مطولا على العلاقات القديمة والحديثة التي ربطت بين كل من فاس وإفريقيا. وفي هذا المجال، ذكر أحد المتدخلين، من على المنصة الرسمية، مؤكدا على إرتباط المغرب بإفريقيا، إن جلالة الملك الحسن الثاني، قد صرح في إحدى المناسبات أن : « المغرب كالشجرة جذورها في إفريقيا، وأغصانها في أوربا. . . » وهو مايؤكد قطعا إهتمام المغرب بإفريقيا، إقتصاديا، وثقافيا، وروحيا ومن أجل بلوغ هذا الهدف، أوجد المغرب معهدا للدراسات الافريقية، من جملة مايحتوي عليه مكتبة ضخمة، تهتم بجمع كل مايتعلق بإفريقيا قديما وحديثا. وتحتوي هذه المكتبة على قسم للمخطوطات، قد تكون أهميتها متفاوتة، ولكن تواجدها نفسه وإحتضان هذا المعهد لها، له أكثر من دلالة. وللمعهد حسب ماقيل لنا، إمكانيات مادية هامة، فأين نحن من كل هذا ؟

في وقت ما، وبالضبط في نهاية السبعينيات، دار الحديث حول إنشاء « مركز الدراسات الافريقية »، ووضع مشروع لهذا الغرض. وبعد ذلك سمعنا كلاما عن إنشاء « مركز الدراسات المغاربية الافريقية »، ثم « مركز الدراسات المغاربية »، في المرحلة الأخيرة للاتحاد المغاربي، الذي نقرأ، ونسمع عنه الكثير، ولا نلمس منه شيئا محسوسا، يستجيب وتطلاعات الشعب المغاربي. . . ونحن نعتقد، أن الوقت قد حان للتفكير جيدا، في ربط علاقات جدية بين كل من إفريقيا والبلدان المغاربية، إنطلاقا من معطيات تاريخية علمية قد يكون وضع هذه المؤسسات التي أشرنا إليها بمثابة حجر الزاوية ومرجع ثقافي وروحي، ومعنوي، أساسي يكون حاضرا لأبداء رأيه كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

أأما عن الملتقى نفسه، فلقد تواصلت أعماله زوالا بجامعة فاس ـ سايس. ومعنى ذلك، أن هنالك في فاس نفسها، كليتان للأداب، القديمة، والتي توجد بقلب المدينة، وفاس ـ سايس، أي الجديدة، التي توجد في أحواز المدينة، على بضع كيلوميترات منها. وتبدو هذه الأخيرة، بفضل إطاراتها الشابة، من أنشط الجامعات المغربية، علما أن عدد كليات الأداب والعلوم الانسانية قد يتجاوز 10 كليات، كلها يدرس فيها التاريخ في مرحلتي التدرج وما بعده. وهذه الجامعات هي : جامعة محمد الأول وعبد الملك السعدي، تطوان، وسيدي محمد بن عبد الله ومولاي [illegible]، وابن طفيل، بالقنيطرة،

nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ومحمد الخامس، بالرباط، والحسن الثاني، بالدار البيضاء، والتي تضم المحمدية، وعين الشق، وابن مسيك، وشعيب الدكالي، بالجديدة، والقاضي عياض، بمراكش، وإبن زهر، بأغادير، وفاس ـ سايس، المنظمة للملتقى الذي هو محل إهتمامنا.

وفي الجلسة المسائية هذه، دار الحديث والنقاش حول مصادر تاريخ إفريقيا، ومن بين من تدخل في هذه الجلسة الدكتور ديجيبوها ماني، من جامعة نيامي بالنيجر، الذي تطرق إلى « إبن بطوطة مؤرخ بلاد النيجر ». وقد ألقى محاضرته بالفرنسية، وأعطي ملخص منها بالعربية، من قبل الدكتور إبراهيم أبو طالب، أستاذ التاريخ المعاصر، بجامعة الرباط وهو أستاذ قدير، من كبارهم. وقد تشرفنا بلقائه، العام الماضي في الرباط، ولنا مشروع معه، كونه رئيسا « لجمعية المؤرخين المغاربة »، وذلك في إطار التبادل بين جمعيتنا، وهذه الجمعية الأخيرة كما تدخل كل من الأستاذين صادقي حسن (معهد الدراسات الافريقية، الرباط)، وخالد شكراوي (كلية الأداب فاس ـ سايس)، الأول بموضوع حول المخطوطات المغربية، التي تهم إفريقيا، والثاني بموضوع حول المصادر السودانية، التي تهم فاس.

والجدير بالذكر، أن كل المتدخلين، من المغرب، كلهم من الشبان، على أكثر تقدير، من جيل الستينيات، وهي دلالة عاكسة لحاضر ومستقبل الدراسات التاريخية في المغرب.

ولقد كانت مداخلتنا حول « العلماء الجزائريون في فاس، فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين، الرابع والرابع عشر الهجريين ». وهي في الحقيقة، فصل من كتابي : « العلماء الجزائريون في البلدان العربية الاسلامية مغربا ومشرقا والأندلس وتركيا » ـ (تونس ـ المغرب ـ الأندلس ـ مصر ـ سوريا ـ الحجاز ـ العراق ـ ليبيا ـ تركيا) ـ خلال نفس الفترة المحددة سابقا. وإن كان للمداخلة فضل، فإنها على الأقل أثارت نقاشا صريحا حول التواصل الثقافي والبشري بين البلدان المغاربية، الذي هو أساس بناء مغرب الشعوب. وعلى هذا المستوى لايسعني، أن أنوه، بالحفاوة والاستقبال اللائق الذي حظيت به، سواء في المغرب، أو تونس، من قبل العامة، وكذلك بعض وجهاء البلاد في وزان، والرباط، والدار البيضاء، وفاس، وذلك خارج الحرم الجامعي. وفي ذلك دلالة كافية، وتشجيع لي، فيما يخص مساعي الحثيثة، حسب إمكانياتي المتواضعة، للمضي في طرح مشكلة المقاربة بين القضايا التاريخية المغاربية للوصول يوما ما لأقتراب حقيقي وفعلي بين شعوب المنطقة. وفي هذا السياق دارت مداخلتي، في تونس، مؤخرا.

هذا فيما يخص أعمال اليوم الأول. أما أعمال اليوم الثاني، أي الجمعة 29 أكتوبر 1993، فلقد تمحورت أشغالها حول العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية، والثقافية والروحية بين فاس وإفريقيا. وممن تدخل في هذه الجلسة، من الأساتذة المغاربة : عبد العزيز العلوي (كلية الأداب سايس ـ فاس)، والأستاذ دولاي كوناط (من باماكو)، وأحمد الشكري (معهد الدراسات الافريقية بالرباط) وعبد الواحد أكير، من نفس المعهد. ومما جلب إنتباهي في هذه الجلسة تدخل، السيد دولاي كوناط، من باماكو، حول إنتشار الاسلام في غرب إفريقيا، الذي قلل المحاضر كثيرا من شأنه ـ وهي نزعة ليست خاصة به، إنما هي أصلا نزعة المدرسة التاريخية الاستعمارية القديمة والجديدة معا ـ ومن خلال النقاش حاولت أن أقنعه عساه أن يعيد النظر في رأيه، ولكن بدون جدوى، ومما أجابني به « أن قضية نشر الاسلام من قبل

التجر العرب وتأثيرهم في العامة، في بداية عهده، ضرب من ضروب الخيال . . . ».
وبقدر ماكان متصلبا في رأيه إزاء إنتشار الاسلام في إفريقيا، كان صارما في موقفه فيما يتعلق بالعلاقات المغربية المالية على عهد السعديين خصوصا.

أما في الجلسة المسائية لنفس اليوم، والتي دارت أعمالها حول الروابط الثقافية والروحية بين اس وإفريقيا، فمن بين من تدخلو خلالها، د/ جون هانويك (جامعة نورث ويسترن)، (بالانجليزية) ود/ ر.س. أفاهي، (جامعة بيركن، النرويج)، ود/ عزيز بدراه، (جامعة هارود، واشنطن)، والأستذ صابر الشريف خالد (معهد التاريخ، جامعة الجزائر). وأحمد الأزمي (كلية الأداب ـ فس)، والأستاذ محمد أبو طالب (كلية الأداب الرباط).

وما لفت إنتباهي، في هذه المداخلات، بصفة خاصة، مداخلة السيد أوفاهي، التي صدرها بكلمة قال فيها : « أنه مهتم، رفقة أحد الباحثين، بالمصادر العربية لتاريخ إفريقيا، وأنه في طريق إصدار، 6 مجلات، حول هذا الموضوع، وأن ثلاثة منها قد صدرت . . . » فاستحسنت المشروع، واستغربت لماذا لم يطق ولو بكلمة عربية واحدة، فبعد رفع الجلسة إقتربت منه، وسألته : « ماهو مدى إتقانكم للعربية، وأنتم تهتمون بهذا المشروع العلمي العظيم ؟ » فأجابني بكثير من الخجل : « لا أعرف كلمة عربية واحدة . . . ». فاستغربت من أمره، وعدت إليه ثانية خلال المناقشة، ووجهت إليه نفس السؤال، فحاول التملص، ولكن التساؤل فرض نفسه بإلحاح، في القاعة، وفي خارجها.

أما عن اليوم الأخير، لأعمال هذا الملتقى، فلقد دارت أعماله حول مظاهر العلاقات الثقافية، وقد نشطها أساتذة من النرويج، والسنغال، ونيجيريا، والمغرب أما عن الجانب النرويجي، فلقد تدخل د/ كنوت س. فيكور، من (جامعة بركن، بالنرويج) بكلمة حول : « أحمد بن علي السنوسي الفاسي عالم من علماء الصحراء الوسطى »، (بالانجليزية) كما تدخلت، السيدة بيندا أمبو، (دكار)، بموضوع حول أحمد بابا التمبوكتي، (بالفرنسية)، وكان موضوعها شيقا، ولكن أقتصر فقط على الجانب الثقافي كما تدخل د/ حميدو بوبوييي، بموضوع حول الشيخ عبد الله الباروني. ومن جهتها تدخلت السيدة فاطمة الحراق (معهد الدراسات الافريقيا الرباط)، بموضوع حول فاس من خلال بعض الرحلات الحجازية الافريقية، وأخيرا تدخل الأستاذ مغنية، (فاس)، بموضوع حول بعض طقوس كناوة ومدى تأثير روحاني الغابة الثعباني فيها. وعلى العموم، فلقد كانت جلسة شيقة ومفيدة. ومما إسترعى إنتباهي، خاصة، موضوع أحمد بن علي السنوسي، وخاصة ماجاء في عنوان المداخلة « الفاسي » فسألت المتدخل عن ذلك، فقيل لي أن هذه مسألة قد وجد لها حل، وصحح عنوان المحاضرة، على الأصل، على أساس أن أحمد السنوسي « غير فاسي »، فمن هو إذن ؟ من جانب آخر من بين ماجاء في محاضرة، د/ فيكور، أن أحمد بن علي السنوسي، ولد في الضواحي المتاخمة لمستغانم، دون تحديد مضبوط لمكان ولادته، وقد فاتني أن أسأله « أين تقع مستغانم ؟ »، وفي المقابل إنتبهت إلى أأن فيكور، قد أخلط، بين الشريف « الوزاني » والشريف محمد بن عبد الله التلمساني، اللذي فعلا كان معاصرا له وكانت له علاقة معه في الحجاز، أدت به إلى رفع السلاح ضد فرنسا فيما بين سنتي (1852 ـ 1878).

Créé avec nitroPDF professional
téléchargez la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

ومن جانب آخر، جاء في محاضرة الأستاذ النرويجي هذا، أن أحمد السنوسي تلقى تعليمه على يد جدته . . . فلقد حاولت إرجاع بعض الأمور إلى مجراها الطبيعي، ولكن الوقت داهمنا، وعدد المتدخلين كان كبيرا. ومع ذلك فلقد أعجبتني برودة وشجاعة المتدخل الذي إقترب مني بعد رفع الجلسة وسلمني عنوانه وطلب مني تزويده بمالدي من معلومات حول هذه الشخصية الجزائرية الفذة، فوعدته بتزويده بكتابي : « الطرق الصوفية ونشر الثقافة العربية في غرب إفريقيا ». وأرسلته له فعلا بعد رجوعي إلى الجزائر.

ومهما يكن، فلقد نجح الملتقى في ضم باحثين ليس فحسب من إفريقيا، والجزائر، والمغرب، ولكن أيضا من بعض جامعات النرويج وأمريكا، ومايلاحظ هنا غياب الباحثين الفرنسيين والتونسيين. ومحاولة هذا الملتقى طيبة، وجادة، ولها إبعاد، أهمها إعادة الأعتبار للدراسات الافريقية، وربط علاقات علمية مع المختصين في هذه الدراسات عبر العالم. ويمكن القول أن الجهود المادية والبشرية التي بذلت لبلوغ هذا الهدف، لم تذهب هباء، وإن لم تحقق نتائجه كلها، فعلى الأقل إستطاعت جامعة فاس ـ سايس، أن تبلغ رسالتها وتحسس الباحثين والمهتمين بخطورة الدراسات التاريخية الافريقية ومدى تأثيرها حاضرا ومستقبلا على العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية المغاربية ـ الافريقية.

وعندنا اليوم في الجزائر، بين 22 و 23 نوفمبر 1993، تعقد ندوة حول إستراتيجية بلدان الساحل الافريقي، حول التبادل الاقتصادي والتجاري، فعلى أي أساس تعقد ؟ وهل يكفي العامل السياسي وحده، لجعل هذه العلاقات بين الجزائر وهذه الدول علاقات تخرج من الميدان النظري إلى الواقع الملموس ؟ ألا يجب تدعيم هذا العمل السياسي، بشيء آخر، يعرف بالروابط الحضارية والثقافية والروحية، بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء ؟ وما أكثرها، ولايوجد غيرها، وإلى متى تبقى، عندنا، الأمور مسيسة لهذه الدرجة، مع إهمال كلي للعوامل التي ترتكز عليها السياسة الحقيقية الهادفة ؟

ومهما يكن، فلنا بصيص أمل في المستقبل، وفي إنتظار ذلك يمكن للقارىء الكريم، أن يطلع في العدد المقبل، من مجلتنا، على بقية هذا العرض، والذي سنخصصه للملتقى الدولي الذى إنعقد في تونس، فيما بين 18 و 20 نوفمبر 1993، حول المقاومة المسلحة في تونس خلال القرنين 19 و 20 الميلاديين، والذي حضرناه، وسننقل للقارىء الكريم، بعض إنطباعاتنا عنه، وذلك من باب تعميم الفائدة.

الدكتور عما هلال
معهد التاريخ ـ جامعة الجزائر

marchés européens, nous constatons dans l'état de la documentation disponible, trois périodes distinctes ; la première (ottomane) caractérisée par un équilibre dans la stagnation et l'isolement (avant 1791) ; la deuxième (ottomane-précoloniale) connut des désiquilibres, une dépendance accrue vis-à-vis des marchés européens et une désintégration progessive (1792-1830) ; la troisième (coloniale depuis 1930) acheva l'effacement d'un milieu humain et l'introduction d'une économie européenne au détriment d'une organisation socio-économique traditionnelle ; ces étapes nous permettent de mieux comprendre les conjonctures qui ont préparé l'avénement d'une colonisation française intensive ignorant toute préexistence.

Enfin l'étude de l'espace rural algérois dépend de la problématique adéquate et la documentation d'archives locales disponible.

TABLEAU METHODOLOGIQUE

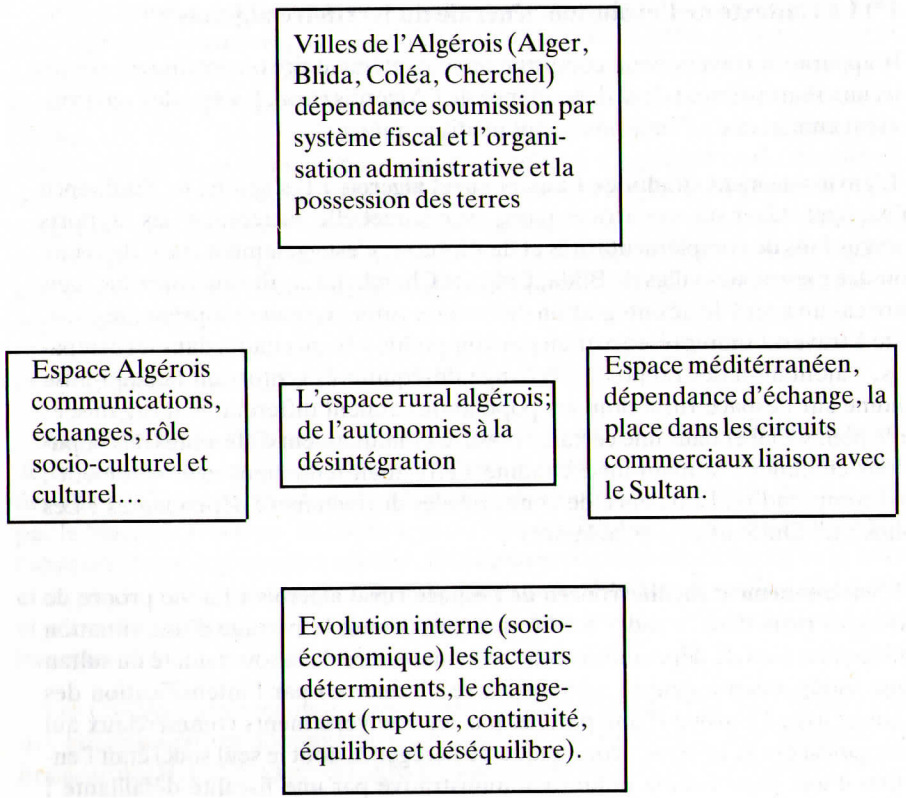

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية بن عكنون
الجزائر

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional
Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Professeur SAIDOUNI Nacer-Eddine

Pour une méthodologie d'approche de l'espace rural algérois à l'époque Ottomane

Mon intervention s'inscrit dans un schéma préliminaire défini par mon travail de thèse et orienté vers l'aspect humain et l'organisation socio-économique relatifs à l'espace rural algérois connu sous le nom de Dar-es-Soltan.

Cette présentation synthétique nécessite néamoins une définition du territoire algérois et l'approche de son évolution interne à travers l'époque ottomane, localement (algérois), régionalement (Algérien) et dans le monde méditérranéen.

(*1*) Le territoire rural algérois :

C'est l'arrière pays algérois (Dar-es-Soltan) caractérisé par des conditions naturelles et une présence humaine propre.

Cet ensemble constitue un type de région close par rapport aux autres provinces de l'Algérie ottomane de par l'existance d'un espace auto-suffisant, dynamique et cohérent. A cet effet les relations socio-culturelles, les moyens de communication et la nature des échanges entre l'Algérois et les autres entités provinciales algériennes (Oranie, Tetteri, Constantinois) devrait montrer dans une étude plus détaillée la faiblesse du maillon constitué par celle-ci. Ce constat confirmerait par ailleurs, d'une part la rupture entre l'espace central et les parties y attenant ; l'espace rural algérois était essentiellement fermé à ses frontières terrestres ; d'autres part, l'unique ouverture à l'échange extérieur était assurée indirectement - grâce aux villes - avec un environnement méditérranéen de plus en plus influent et oppressant.

(*2*) L'aspect humain :

Au point de vue économique, social, et administratif l'Algérois était composé de trois espaces (semi-concentriques autour d'Alger) : les fohos ou les environs des villes (Alger, Blida, Coléa et Cherchel) où s'exerçait l'influence des citadins par le biais des fonctions beylicales, et où les populations étaient éparpillées par l'absence d'une organisation tribale ; les outhans, domaine des haouchs beylicaux et de particuliers (turcs, hadars) dans la plaine de la Mitidja et les collines du Sahel et où vivait les groupes de raya employés comme métayers (Khamas) dans les haouchs.

Les Caidats ou la zone montagneuse de l'Atlas mitidjien, étaient constitués par des circonscriptions administratives basées sur un tribalisme bien structuré et organisé des Beni-Menacer et Righa à l'ouest, aux Beni-Djaad et Zouatna à l'est.

---

* *Communication préliminaire présentée dans les journées d'Etudes sur la composition et structuration des Espaces Economiques en Méditérranée (Régions et frontières) Aix-en Provence 26-27 Mars 1993.*

L'étude des aspects humains rassemblant l'organisation tribale et l'influence beylicale reflètent mieux les rapports de force dans les relations citadins-campagnards, Etat-paysans, villes-souks ruraux, zaouia-fonctionnaires, makhzen-raya production-marchés extérieurs.

(*3*) L'évolution interne du territoire :

On peut la mesurer par l'évolution de l'appareil beylical (administration), du mode de perception, de prélèvement des contributions régulières et des impositions irrégulières, des modalités relatives au statut de la terre, de l'application des divers usages aux types de propriété, de l'utilisation des techniques agricoles (instruments aratoires préparation des terres, et méthodes de production), des échanges locaux dans les souks des villes ou dans les marchés ruraux, et des conjonctures agraires qui constituent les véritables indices de la vie économique (cycle de blé, fluctuation des prix, production et les effets des calamités naturelles).

Cette évolution n'est pas uniquement le fruit d'une évolution sociale et économique mais aussi des conjonctures naturelles particulières (sécheresse...)

(*4*) Le contexte de l'évolution générale du territoire algérois :

Il apparaît à travers deux composantes complémentaires, contribuant toutes deux aux renforcement de la dépendance de l'Algérois rural. Il s'agit de l'environnement citadin et de l'environnement méditerranéen.

1) L'environnement citadin de l'espace rural algérois : Il s'agit ici de l'influence qu'exerçait Alger sur son arrière pays, avec lequel elle entretenait des rapports ambigüs faits de complémentarités et de ruptures, c'est également le cas dans une moindre mesure des villes de Blida, Coléa et Cherchel. La ville qui constitue dans notre cas un agent de désintégration de l'espace rural exerçait sa suprématie croissante à travers l'omniprésence d'un pouvoir politico-fiscal citadin dans les campagnes, s'ajoutant à des rapports d'échange déséquilibrés renforçant la main-mise citadine sur l'espace rural dont les populations étaient différemment organisées sur le plan social et dans une certaine mesure éthniquement différentes des populations citadines ; la main-mise citadine s'effectuait lentement mais sûrement ; ainsi comprend-on l'existence de zones rurales distinctement dépendantes : Les Fohos ; les Outhans et les Caidats.

2) L'environnement méditérranéen de l'espace rural algérois : La vie propre de l'Algérois rural dans le cadre méditerranéen, connut le passage d'une situation d'allégeance-lien de dépendance et de reconnaissance de la souvraineté du sultan à une indépendance (entité administrative autonome) par l'intensification des relations avec l'Europe d'une part, et par les boulversements commerciaux qui désorganisaient le système économique de la régence dont le seul souci était l'entretien d'une organisation militaro-administrative par une fiscalité défaillante ; ces boulversements des échanges résultants des tensions internationales en méditerranée soumettaient l'économie rurale algéroise à des circuits économiques à courtes vues, ce qui faisait de l'Alg[illegible] devenu impuissant et paralys[illegible] propos de la dépendance croissante vis-à-vis des

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

en parfumerie et autres produits ; il représentait notamment une firme belge fabriquant en encaustique vendu sous le nom de "Eclair". Probablement, il choisit cette profession pour lui servir de camouflage, ce qui permettait de circuler librement, et aussi pour gagner sa vie ; parce qu'il n'était pas du tout fortuné.

Bien avant qu'il rentre en Algérie, déjà en Tunisie, en sa qualité de militant du Destour tunisien, il était tenu à l'œil par les autorité coloniales. Rentré en Algérie, il fut de tout temps considéré comme un élément d'obédience subversive et dangereux pour la politique coloniales en Algérie (1). En effet, aussi bien dans le M'zab qu'ailleurs, Zakaria, n'hésitait pas à dénoncer l'oppresseur et ses valets. Au M'zab, à plusieurs reprises, il prit part aux actions dénonçant certains citoyens alliés à l'administration coloniales qui, par leurs agissements parasitaires, portaient préjudices aux masses, tel le tract dirigé contre un entrepreneur de transport à Ghardaîa, intitulé : "Expie les fautes que tu as commises, toi le puissant, l'illustre" (2). Dans ce sens, Zakaria entretenait des relations avec Boudjnah Slimane Ben Yahia, dit Ferqad, un nationaliste de première heure (3), avec lequel il collabora en 1933, pour mettre sur pieds la revenue Al Hayyàt, avec Gherfa Brahim également de même obédience.

Dans l'ancienne imprimerie du journal le Maghreb, située rue de la Lyre à Alger, et annexée à un entrepôt de commerce appartenant à un Italien, Zakaria, à la tête d'un groupe de jeunes nationalistes, imprimaient et faisaient paraître des tracts dénonçant la politique coloniale. Dans ces tracts distribués dans les différents milieux algériens, les éclats, de la poésie de Zakaria retentirent avec force.

Certains poèmes de Moufdi Zakaria sont de véritables cours politiques, comme celui où il dénonce les Partis politiques, "dont les dirigeants n'étaient intéressés que par des situations cossues et des carrières rondelettes, trahissant les espoirs que les masses, lassées par la misère et l'oppression, avaient placés en eux. Il les présente comme des brigands cupides, des charlatans, dont l'héroisme se nourrit dans la luxure et les pots de vin, des chacals avides qui se nourissent du sang du peuple" (4). "le militantisme, dit-il, n'est pas un mur sur lequel on écrit, car le mur, comme le crâne de certains, est fait de pierres".(5)

A propos de la bombe atomique que la France fit exposer en 1960, à Regane, Zakaria, écrivit un long poème intitulé l'aveugle, dont voici un extrait :

(1) En mars 1931, une perquisition de la police opérée à son domicile à Beni-Izghen fit découvrir divers documents établissant qu'il se livrait activement à une propagande nationaliste. IN. (A.O.M. : loc ; cit ;)

(2) A.O.M. : loc ; cit ; Chef de l'annexe au com.milit., 25/9/1936

(3) Arrêté plusieurs fois et placé sous surveillance, notamment à Beni-Abbès et Adrar, pour son activité nationaliste.

(4) Ahmed Ben Alam : Moufdi Zakaria, le souffle d'un verbe, Algérie-Actualité, 5/II juin 1986.

(5) Algérie-Actualité : Ibid

"Qu'a-t-il ? malheur de sa mère et de sa génération.
Pourquoi naît-il l'aveugle à la vie ?
Pourquoi la nature n'a-t-elle pas offerte un sourire à ses yeux ?
Pourquoi traîne-t-il la jambe par terre ?
Qu'a-t-il fait pour que ses mains soient paralysées ?
Pourquoi ses oreilles n'entendent pas les berceuses de sa mère quand elle balance son berceau ?
Pourquoi ne parle-t-il pas et pourquoi ne répond-il pas à sa mère et lui sourit-il pas ?
Est-il seul dans son cas ou bien est-il semblable à beaucoup d'autres ?
La France lui a inculqué un poison quand il n'était qu'un fœtus.
A sa naissance, il n'est qu'un être déformé, une apparence cauchemardesque.
C'est un fantôme, une ombre, que la vie et la mort se rejettent
L'une ne l'espère plus et l'autre ne l'a pas pris." (1)

Le jour de l'exécution du martyre Ahmed Zabana, le 18 juillet 1955, à l'aube, dans sa cellule où il était lui-même détenu, Moufdi Zakaria écrivit un poème, dont voici un petit extrait :

"Il s'est dressé majestueux, comme le Christ.
Avec volupté et sérénité, il a entonné son hymne.
A la bouche un sourire d'ange, le sourire d'un enfant accueillant le [illegible] nouveau.
La tête haute, l'allure solennelle, dialoguant avec la gloire.
Les boulets à ses pieds sont comme des Khalkhals qui poussent des you-you, emplissant de leur concert l'espace lointain : comme Moïse s'adressant à l'être suprême le jour de l'Ascension, il s'élève comme l'esprit la nuit de la Révélation, répétant sur l'univers les lumières de la fête, il gravit les marches de la guillotine avec l'assurance du Prophète s'élevant vers le ciel."(2)

En 1977, Moufdi Zakaria s'éteignit, comme beaucoup de grands hommes, dans l'ombre, complice de ceux qui le jalousaient et l'enviaient qui, pour l'abaisser, eurent recours à la caricature. "Mais que peut-on contre une étoile qui s'éteint, une étoile dont la lumière continue de nous parvenir bien des années-lumières après." (3)

La poésie de Moufdi Zakaria, comme celle de Mohamed Laïd, fut depuis toujours consacrée à un idéal : appel à la résistance et à la mobilisation des masses populaires. En comparant les deux poètes l'un à l'autre, le choix n'est nullement facile.

AMAR HELLAL.

(1) Algérie-Actualité : loc ; cit ;
(2) Algérie-Actualité : Ibid
(3) Algérie-Actualité : Ibid

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Certes sur le monde nous avons régné
Certes un dominateur ne saurait être dominé
Nous nous proposons aujourd'hui de faire revivre
Notre histoire glorieuse du passé
Celui qui se montre ferme dans sa résolution
Atteindra nécessairement son but."(1)

A la suite de la publication du livre de Tewfik El-Madani, "Mohamed Othmane Pacha", Laïd le félicite chaleureusement, par un poème qui parut sur les pages d'Al Baçair, il le termine ainsi :

"Réjouis-toi, frère Tewfik, et continue par l'histoire à relever une civilisation dissimulée aux yeux des revendiquants.
Nous aspirons à la gloire.
Nos détracteurs seront désapointés." (2)

Ainsi, Mohamed Laïd, fut présent partout où il le fallait. Il n'y eut pas d'événements importants, se rattachant à la vie du peuple algérien, dont les échos soient absents de ses poèmes. Enfant du peuple, il vécut pour le peuple. Hors de ceci, rien ne l'intéressait, même pas sa propre personne.

Pendant les dernières années de sa vie, il se replia sur lui-même, retiré de tout le monde, il passa le temps qu'il lui restait à vivre, en se déplaçant entre Biskra et Batna. Il mourut dans cette dernière ville le 1er août 1979.

2. MOUFDI ZAKARIA

Moufdi Zakaria (3) fut militant de la première heure, chantre de la révolution algérienne (1954-1962), penseur émérite, dont la noblesse de la plume et la formidable inspiration ne cessèrent jamais de combattre pour que renaisse l'Algérie libre.

Moufdi Zakaria fit ses premiers pas, dans le domaine culturel et politique, à Tunis, où il fit une période de bouillonnement d'idées et d'effervescence politique. Il découvrit vite le nationalisme. Il suivit attentivement la montée du nationalisme algérien, et le glorifia, comme il glorifia plus tard la guerre de libération nationale. C'est à Mufdi Zakaria qu'on doit le texte de l'hymne national, Kassamène.

Son nom complet est : Moufdi Zakaria Cheikh, né en 1908, à Beni Izguène, dans l'Oued M'zab ; le jeune Zakaria quitta tôt sa ville natale pour se rendre à Annaba (ex-Bône), où son père tenait un commerce. A Annaba, il fréquenta l'école coranique, apprit le Coran, et s'y initia à la langue arabe.

Après avoir terminé ses études primaires, il se rendit à Tunis où l'enseignement était de meilleur qualité. Il s'inscrivit à plusieurs écoles dont Al-Atarine de Tunis,

(1) Al Baçair : 18 septembre 1936
(2) Al Baçair : 13 août 1937
(3) Il n'est pas inséré, ici, pour sa qualité de réformiste, mais surtout pour sa qualité de poète arabophone nationaliste. Il ne fit pas équipe avec les Ulemas, et leur préféra le PPA, mais de loin il approuva amplement leur mouvement.

où il étudia également le français. Ses lectures abondantes dans les deu langues, arabe et française, lui permirent de s'enrichir moralement, dans le sens e s'ouvrir aux grands horizons de la pensée universelle et de la poésie moderne.

Son oncle, Chaykh Salah Ben Yahia, un nationaliste de première heure, consi-dère comme l'un des trois co-fondateurs du Parti Tunisien Destour, chez qui il résidait à Tunis, l'initia au nationalisme.

A Tunis, Moufdi Zakaria, se lia d'amitié avec certaines personnalités de son pays, tels Abou El-Ikdhane, un nationaliste de première heure (1), Ramdane Hamoud (2), poète et écrivain nationaliste, avec qui il fonda l'association culturelle Al Wifaq, - La concorde -. Cette association publia à Tunis, entre 1925 et 1930, une revue, qui fut souvent illustrée des beaux poèmes de Zakaria.

Rentré en Algérie au début des années trente, Moufdi Zakaria fondaune asso-ciation du même nom, que la précédente, - Al Wifaq -, qui publia la revue Al Haiyyàt, en 1933. Elle cessa de paraître après publication de trois de ses numéros.

Bien qu'éprouvant de la sympathie pour le mouvement réformiste des Ulamas, Zakaria n'y adhèra pas, du moins officiellement, et lui préféra le PPA, où selon lui l'action avait la primauté. Il y déploya de grands efforts. Au sein de ce parti, Messali Hadj le découvrit très vite, il en fit son homme de confiance et ami. Ils furent emprisonnés ensemble et partagèrent les mêmes souffrances.

Le mouvement nationaliste algérien eut en Moufdi Zakaria un militant de grand souffle, infatigable, qui mit l'éloquence de sa plume et la fougue de sa jeunesse au service du PPA.

La première fois qu'il fut arrêté par le pouvoir colonial, et emprisonné pour son activité militante au sein du PPA, ce fut en 1935. Ensuite, ses arrestations et emprisonnements devinrent chose courante. Les quelques années de prison que Moufdi Zakaria passa à l'ombre des geôles coloniales furent certainement les plus dure de sa vie, mais en conséquence, elles lui permirent d'écrire les poèmes les plus beaux de sa vie, des hymnes patriotiques qu'il dédia au peuple algérien et à sa lutte, à ses souffrances, à ses aspirations.

Du fonds de ses geôles, pour ne pas s'avouer vaincu, pour porter haut les espoirs de son peuple, Moufdi Zakaria faisait parvenir ses poèmes nationalistes aux quelques journaux tunisiens avec qui il avait des liens solides et qui les faisaient publier tantôt sous le pseudonyme de Al Fata Al Watani, - Le jeune nationaliste -, tantôt sous celui de Abou Firrès, (poète Abasside très réputé).

D'après les renseignements de la police coloniale (3), dès le début de 1934, Moufdi Zakaria quitta le M'zab, et ensuite il n'y aurait fait que de brefs séjours. Il n'aurait pas eu de domicile fixe, se serait déplacé presque continuellement dans le Nord de l'Algérie et en Tunisie, exerçant la profession de représentant de commerce

(1) Voir sa biographie dans ma thèse d'Etat : Les intellectuels arabophones algériens, Nancy II, 1990.
(2) Voir sa présentation : Idem
(3) A.O.M. : 9 H 47, Chef [illegible] annexe de Ouargla au Commandant militaire du territoire de Laghouat, le 3/4/1937.

Créé avec nitroPDF professionnel
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Et demain, par la grâce du Dieu, il quittera sa couche, celui, qui, en toi, ne cesse de se livrer à la paresse."(1)

Sa passion pour la liberté fut telle que ses gémissements sur le sort de son peuple se succèdent indéfiniment dans ses poèmes :

"Ton paradis perdu, il le rendra, celui qui a reculé le soleil pour maintenir son éclat.
Ah ! si après ma mort, je pouvais revenir, alors qu'il aura donné au Ferdous de revenir à toi, et que Dieu aura conduit un peuple qui jamais ne se courbe sous le fouet ou devant la brutalité, qui refuse dans sa marche toute voie autre que l'Islam,
et quelle doit te paraître magnifique cette voie.
Alors je verrai en toi le tyran devenu juste, et je vivrai devant le droit non délaissé.
Je verrai sur le pays ton trône étendant son empire, sous une couronne par les cœurs affermis.
Alors, je guérirai mon âme de l'amertume de son affection, et je reposerai mes yeux de la chaleur de mes larmes."(2)

Simple, modeste, n'ayant jamais prétendu à un moment ou à un autre qu'il était le nombril du monde, Mohamed Laïd s'interrogeait sur ce qu'il pourrait laisser de profitable à sa patrie. Ses chants comparables aux roucoulements des tourterelles lui paraissent de peu de profit, pour son pays :

"J'ai poussé mes espoirs à l'extrême
Et je me suis institué conseil et guide d'homme d'action, alors que j'ai besoin de bon conseil et de guide."(3)

Pour Mohamed Laïd, la parole n'est d'aucune utilité, si elle n'est pas conjuguée avec l'action. L'action sous toutes ses formes est tout pour lui. Il la compare à un trésor inépuisable :

"Et puis, il n'est point de trésor comparable aux actions utiles ;
constitue donc ton trésor à l'aide d'action, sinon renonce.
Et si tu te réclames d'une œuvre louable dans une nation, que ce soit en imitant un artisan prestigieux.
"Combien de gens se sont élevé pour demander leur droit par la parole, qui n'ont essuyé qu'un refus brutal.
Et la virilité commande que tu rassures les gens effrayés, qui t'ont cru le meilleur des refuges pour les gens apeurés."(4)

Sur le plan patriotique, tout ceci n'est, pour Mohamed Laïd, qu'illusion qui ne mène nulle part. Il abandonne l'insinuation et l'allégorie, et interpelle directement la France :

"Ô nation dont les flancs se sont endurcis à notre égard, laisse-toi toucher par nous et renonce à la dureté.

(1) Al Baçair : Ibid
(2) Al Baçair : loc ; cit ;
(3) Al Baçair : loc ; cit ;
(4) Al Baçair : loc ; cit ;

Nous te reprochons un crime, à haute voix ;
L'inégalité entre ceux que tu administres, car, de tous temps nous avons réprouvé l'inégalité." (1)

S'adressant de nouveau au peuple, Mohamed Laïd le met en garde contre ses adversaires qui espèrent le voir s'endormir :

"La sécurité est aux vigilants, suis leur exemple ; agis de tous tes efforts et réponds-leur ; agis...
Ta sœur la Tunisie t'a dépassé, cherche à la rattraper
Elève une clameur pour défendre ton honneur, comparable au bourdonnement des abeilles lorsque la main touche à la ruche.
Le gouvernement des royaumes s'exerce par la justice et le clamentement des sujets et non par l'épée ou le canon.
Qu'ont-ils donc, ceux dont tu attends l'exécution prochaine de leurs engagements, à se dérober, alors qu'il n'y a pas d'échappatoire ?
Celui qui revendique son droit jamais n'échoue quand il réclame avec intelligence et énergie.
La solidarité de ses frères de l'Occident et de l'Orient doit encourager le peuple ;
Attache-toi aux liens de leur fraternité, et ne les laisse pas se rompre

Pour sortir de l'impasse, Laïd interpellait les Ulamas, les engageant à renouveler les hauts vertus des grands hommes de l'Islam, à suivre la voie du Coran et de la mission du Prophète, à relire leur histoire, depuis les temps des Deys et plus loin encore, à enseigner le peuple, les femmes comprises, à construire des mosquées libres, qui ne soient ni sous la dépendance du gouvernement ni d'un hérésiarque, et enfin à aider les œuvres du pays, sous toutes leurs formes, et dans tout les sens. S'adressant encore au peuple, il lui recommande une nouvelle fois l'action :

"Peuple, le monde est ton champ, laboure et sème, le champ de l'univers est le plus fertile des champs.
La terre est à toi, émigre sans esprit de retour, ou bien reste.
Le ciel est à toi :
Prends ton envol définitif, ou bien pose-toi."(3)

A l'usage des Scouts Musulmans Algériens, Laïd écrivit plusieurs Nachi'chid (s), qu'ils chantent juqu'à nos jours. Voici quelques extraits de l'un d'entre eux, qu'il écrivit en 1936 :

"Nous te levons haut par la gloire et la grandeur
Ô terre qui peut narguer le ciel
Nous sommes les Scouts du Radja
Nous sommes la réplique du pays
Pour notre part, nous comptons sur Dieu
En conformité avec notre histoire nous nous préparons

(1) Al Baçair : loc ; cit ;
(2) Al Baçair : loc ; cit ;
(3) Al Baçair : loc ; cit ;

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

"Dans le passé, par l'Islam, Dieu nous a réunis et a unifié nos territoires et un seul pays.
Dans le passé, nous étions solidaires contre l'ennemi, que nous avons humilié,
Et aujourd'hui, nous nous efforçons de reprendre la gloire que nous avons perdue.
Si tu veux être important dans ta destinée, expose toi aux dangers que nécessite l'importance de ton but.
Avance vers la gloire, même si la voie qui t'y fera parvenir est en enfer.
Ô peuple, tu as été ruiné par quelques chefs et tu as éprouvé une peine douloureuse.
Aime l'affranchissement, adore l'Içlah, mais ne désire plus ni charges, ni décorations."(1)

Laïd fut un poète de très grand souffle, régénéré par une passion poétique, qui puise dans les images qui défilent incessamment dans sa mémoire, pour, ensuite, paraître claires et ordonnées, selon le sens qu'il voulait lui donner. Ce qui est remarquable chez Mohamed Laïd est la parfaite maîtrise qu'il exerce sur le sujet qu'il traîte. Souvent, il passe d'une idée à une autre, dans le même poème, pour revenir à l'idée qu'il traitait auparavant, sans que le lecteur sente la moindre secousse, ou un déséquilibre quelconque dans l'enchaînement des idées du poème. Prenons comme exemple, le poème qu'il récita devant l'assemblé générale de l'association des Ulamas, en septembre 1937.

Mohamed Laïd adresse la bienvenue aux Ulamas rassemblés, qu'il compare à des lions rugissants, et félicite leur mère lionne l'Algérie ; mais, dit-il à cette dernière :

"Leur associé en toi a agi avec perfidie à leur égard, et ne leur a pas permis ni l'argument d'une halte reposante ni la douceur d'un lieu où se termine le voyage.
Tu as nourri des gens nombreux, et avec eux les ennemis,
Ne prodigue la nourriture qu'après t'être fait désirer ardemment.
Réserve donc ta nourriture à tes proches." (2)

Revenant aux Ulamas, Laïd leur renouvelle la bienvenue, pour leur dire :

"Reçois les marques de satisfactions, tant que tu rechercheras l'approbation partout où tu iras.
L'Algérie refuse d'étendre ses bienfaits à celui qui ne poursuit pas l'intérêt général dans tout le pays ;
Chacun reçoit selon ses œuvres.
Celui qui a trahi sera trahi et celui qui aura gardé -le troupeau- le sera aussi.
Peut être le terme de la récompense a-t-il été retardé,

(1) En réalité c'est un long poème, que Mohamed Laïd consacre aux rites du pélérinage et à ses buts moraux et religieux, et aussi politiques. Nous en tirons ce qui nous intéresse. In. (Al Baçair : 21 janvier 1938)
(2) (Al Baçair : 30 septembre 1937).

Le besoin de liberté de l'impatient s'en trouve ainsi excité.
J'ai examiné les diverses variétés de Jihàd, je n'en ai pas trouvé de plus difficile, que celui du missionnaire volontaire." (1)

Après quoi, Mohamed Laïd manifeste sa fidèlité, sa soumission à l'idéal de son pays, et lui clame son amour :

"Je jure, que si tu me demandais de choisir un genre de mort,
je ne choisirais que ta voie pour arène.
Interroge, je répondrai, ordonne, j'obèirai.
Appelle, je volerai au secours.
Parle avec clarté, je consentirai
Ecoute je dirai
Conseille, je suivrai tes avis" (2)

Comme dans tous les rassemblements auquel Mohamed Laïd assista, l'idée de l'unité du Maghreb le hantait et ne cessait de faire vibrer toute sa passion. Sportivement, son impulsion lui faisait, à chaque fois qu'il en parle, lui trouver un certain lien avec celui du monde arabe, en premier lieu, pour la mettre ensuite dans un cadre plus vaste encore, qui est celui du monde musulman. Ecoutons-le :

"Les temps ont passé, et tu demeure sauf, depuis l'époque d'Okba et guerriers conquérants.
C'est que la terre bénis est défendue par des vieillards comparables à des anges, et des jeunes pareils à des étoiles brillantes.
Ils ont compris dans leur amour filial tout le Nord de l'Afrique,
et veulent unanimement refaire son unité brisée.
L'Afrique est une maison où des hommes nombreux se sont établis,
et dont des hommes de génie ont hérité les uns après les autres ;
Ifriqiyya sœur du Hidjaz en religion et belle fille de l'inviolable maison sacrée d'Allah.
Arrête-moi auprès d'elle, un moment, que nous lui donnions l'avis sincère de se préparer pour son jour attendu."(3)

Ennemi de l'ignorance, comme tous les réformistes algériens, dans le domaine pratique, Laïd consacra plus de la moitié de sa vie à l'enseignement, dans les médersa(s) libres de l'association des Ulamas. En théorie, l'ignorance, et ses conséquences, furent souvent un sujet, qu'il traita dans ses poèmes, avec amertume :

"Le savoir est le maître de l'univers,
Réfugie-toi en lui, de préférence aux forteresses, car je ne connais aucune citadelle qui soit comparable à une médersa ou à un atelier.
Dis à l'Algérie de construire une université pour effacer l'ignorance de son peuple errant.
Cependant, que cette ignorance mortelle se dissipe, l'aurore se lève ;
réjouis-toi de la lumière auprès des ténèbres qui s'éloignent

(1) Al Baçair : Ibid
(2) Al Baçair : Ibid
(3) Al Baçair : loc ; cit ;

Créé avec nitroPDF professionnel
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Dans la joie comme dans la gaieté, dans la souffrance comme dans le bonheur, Mohamed Laïd partageait les sentiments de son peuple, il gémissait sur sa situation désastreuse. Dans l'un de ses beaux poèmes : Voici la torche y a-t-il un allument ?, il exprime ses sentiments :

"L'esprit absorbé par l'incertitude du lendemain
Il vit dans un demi-jour sombre et décevant
Le désert où il se trouve est l'antichambre de la mort ;
La faim lui ronge les entrailles ; il souffre plus que ne peuvent souffrir les malheureux.
Tel est l'état de l'individu qui appartient à un peuple endormi.
Sanglote sur le sort malheureux d'un peuple dont la gloire ensevelie n'a laissé aucune trace.
Ce peuple n'a pas un chef qui sait gouverner ; au gré des passions ses récoltes sont fauchées en herbe
Son sabre émoussé ne pénètre plus et son cavalier est tombé visage à terre ;
Ce qui doit le relever est murmuré à voix basse et ce qui doit le dénaturer est clamé d'une voix sonore.
Chacune de ces têtes est baissées, tout cœur chez lui est tourmenté par le désespoir.
Son adversaire le mène en le foulant aux pieds, ses enfants sont des frères...
Leurs passions se heurtent ; l'ignorant prime le savant"(1).

Lors de la tenue de l'assemblée générale du Congré Musulman, le 2 août 1937, Mohamed Laïd y était. S'adressant à l'assistance, il lui déclara :

"Dis, enfant du pays, à tout voleur :
le jour s'est levé, le sommeil est écarté,
les Musulmans réclament leurs droits,
que leur reconnaissent les Chrétiens et les Juifs.
Nous Musulmans nous appartenons à la paix et à la guerre,
pour ces deux choses, nous avons sacrifié notre vie,
on ne peut sacrifier plus belle chose.
Pouvons-nous être avilis, cependant, que Dieu est notre maître,
que nous sommes ses armées, et que la victoire lui est acquises ?
Enfant de l'Algérie, engage toi dans la mort ; tu seras protégé ou par nos légions ou par le tombeau.
Ô peuple, ne doute pas de ton succés final ; une branche morte peut devenir un rameau vert.
L'injustice a voulu ta mort, il fut décidé.
Elle est vouée à la mort, tu es prédestiné à l'immortalité.(2)

Hommes sage, pieux, pacifiste, intelligent, d'un autre point de vue, Mohamed Laïd exhorte les Algériens à endurer les effets de l'injustice en silence et avec patience, car d'après lui, à la fin, ils seront récompensés par la victoire :

(1) Al Baçair : 13 novembre 1936
(2) Al Baçair : 16 juillet 1937

"Ô ! Musulmans, respectez l'alliance bien que votre allié vous ait montré la foi punique.
Usez de moyens de paix, aussi bien avec quiconque se montre tyranique par sa mauvaise foi, qu'avec le dépravé.
Car il nous suffit de dire que dans notre Jihad le destin compte parmi nos soldats.
Vous étiez le plus beau peuple que Dieu mit au monde.
Ne soyez ni inquièts ni tourmentés car, à la fin, vous serez récompensés par la victoire."(1)

L'état miséreux du peuple incita Mohamed Laïd à la méditation et à la connaissance de soi. La passion le poussa à la recherche de la vérité. "Sa poésie apparaît ainsi comme l'expression d'évènements isolés et en même temps de vérités communes à tous, une sorte de biographie, une histoire générale du peuple algérien et à la fois l'histoire d'une fraction de l'humanité, et sa pensée, oscillant entre deux pôles de la raison et de la foi, de l'humanité et du divin, trahit un éclat sans fin, un effort continu, une lutte incessante pour dompter les faiblesses du cœur et de l'esprit triompher de l'erreur et parvenir à la certitude de la connaissance". (2) Pour Mohamed Laïd, il semble, que cette vérité tant recherchée n'existe nulle part, que dans la palpitation de la pensée du peuple et son existence, dans [illegible] nuité... En dépit de tout, même dépouillé et asservi. Dans l'un de ses p[illegible], il s'adressait, en ces termes aux jeunes de la médersa Chabiba d'Alger :

"Dieu nous a donné des biens inestimables et gratifié d'un don impérissable.
Dans l'univers, il nous a aménagé une situation qui serait heureuse et éternelle sans l'envahisseur.
Le verger étant chargé de fruits, aucun médisant ne s'est empêché d'en cueillir.
Allons repoussons les intrus qui le ruinent.
Allons chassons les vols de voutours qui s'abattent sur lui.
Les ancêtres étaient aussi braves que les lions, mais les descendants le sont-ils ?
Ô peuple, tourne ton visage vers le droit et tu ne seras point blâmé..." (3)

Mohamed Laïd, poète du peuple, nationaliste, et aussi poète du mouvement de l'Içlàh algérien : en ce sens, ses poèmes résonnent par intermittence comme ceux des poètes de l'âge d'or, de la civilisation arbo-musulmane, ils atteignent parfois la perfection des meilleurs, parmi les anciens et les modernes, mais qu'il l'ait voulu ou non, une doctrine, une ligne de conduite, un état de choses, lui imposèrent certains thèmes, tels la solidarité, l'unité du peuple, l'Içlàh, l'affranchissement, etc... Dans cette optique, Mohamed Laïd disait :

(1) Al Baçair : 17 janvier 1936.
(2) Benchenab : loc, cit ;
(3) Al Baçair : 31 décembre [illegible] Qacida Composée [illegible] Mohamed Laïd au cours d'une soirée organisée par la méde[illegible]bib[illegible]Alger.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

A Biskra, comme tous ses collègues arabophones, il n'avaient d'autre débouché que l'enseignement. Il se fit recruter facilement par la médersa de la ville. Paralèllement à sa fonction d'enseignant, il rédigea différents articles pour le journal de Ben Labed EL-OKBI - Sada Sahra - . Comme aussi il publia d'autres articles dans El-Muntaqid et Al Chihab. Mohamed Laïd participa aussi à la rédaction du journal Al Içlah, de Tayeb EL-OKBI, ainsi qu'à la création de son imprimerie ; après sa suspension, il obtient la direction de la médersa la jeunesse musulmane à Alger. Il resta à sa tête pendant une dizaine d'années. Ce fut à Alger que sa réputation de poète et d'intellectuel capable se répandit parmi ses contemporains.

Quand l'idée de la création de l'association des Ulamas fut lancée, il l'appuya de toute ses forces et participa à sa création. Il publia dans ses différents journaux de multiples poèmes et articles socio-politiques, comme il rédigea d'autres articles pour Sirate et Thabate, tous deux appartenant à Mohamed ABABSA. Au début de la deuxième guerre, il quitta Alger pour se rendre à Biskra où il reprit son ancien métier d'enseignant, mais il n'y resta pas longtemps : il se rendit à Batna où on lui confia la direction de la mèdersa qu'on venait de créer. Il resta quelques temps à sa tête, et on l'appela à Aïn M'lila pour assurer la bonne marche de sa médersa. Il y resta jusqu'au déclenchement de la guerre de libération nationale. Après quelques temps, par la même occasion, fut arrêté et mis en prison, ensuite expulsé à Biskra où il resta sous surveillance jusqu'à la fin de la guerre.

Quand à sa formation intellectuelle, son ami intime, Malek BENNABI, nous apprend qu'à son retour de Tunis il étudia, sous la direction de BEN-BADIS, tout ce qui se rapportait à la littérature arabe, tout en accordant un intérêt particulier à la littérature universelle. Dans les rangs des Ulamas réformistes, Mohamed Laïd se déplaçait dans le pays, d'un point à un autre, pour expliquer aux populations les buts de l'association des Ulamas et les principes de la Salafiyya. Il clôturait presque toujours les réunions que tenait l'association des Ulamas par un de ses poèmes reflétant la circonstance. Il n'y avait pas de circonstance importante où l'on n'entendît pas de lui un poème relatant l'évènement. C'est ainsi que, pendant une certaine étape de sa vie, il fut le poète de l'association des Ulamas pour être ensuite celui de l'association et du peuple en même temps. Dans les années cinquante il était tenu pour le poête de tous les peuples oprimés. Sa vie durant, il appela sans cesse au réformisme Salafy. Il s'opposa énergiquement, pendant les années trente, à l'élite francophone assimilationiste, il la discrédita et aida à mettre en échec ses projets.

Comme tant d'autres, Mohamed Laïd avait lu les œuvres maîtresses de la littérature arabe : le livre des chansons, le livre de la poésie et des poètes, les divans d'Imroul-qais, Mutahaby, Abu-TammaM, Buh'tury, et des dizaines de poètes anciens et modernes ; mais au lieu de réveiller en lui de banals et simples échos, ces lectures mirent le branle à son âme et la révélèrent à elle-même. A ce propos BENCHENAB signale :

"...C'est pourquoi l'on ne rencontre pas chez lui les reminiscences conscientes ou inconscientes, si fréquentes dans les premières œuvres de tout poète ; et si Mohamed Laïd ressentit l'ascendant d'écrivains, anciens ou contemporains, s'il suivit certains courants, s'il fut esclave

d'une langue et d'un art poétique, ses œuvres ne portent nullement trace d'imitation. Il fut du premier coup lui-même. La raison en est dans son tempérament. Conscient de sa personnalité, farouchement épris de liberté, il ne pouvait, sans nier sa propre existence, s'astreindre à être l'émule de qui que ce fût. On chercherait en vain chez lui une poésie descriptive, un chant d'amour, un éloge, une élégie, un poème philosophique. Aucun de ces genres n'est présent d'une manière distincte, et tous existent à la fois. Mohamed Laïd, en gros, est le champ clos où le sensible et l'intelligible s'affrontent, où l'essence sacrée de l'humanité s'efforce de triompher du mal, et c'est ce combat douloureux, comme la naissance et comme la mort, qui confère à sa poésie un accent de profonde sincérité et un caractère puissament dramatique." (1)

La revue Al Chihab, en son temps, a fait connaître ses œuvres dans le Maghreb tout entier, et au delà, jusqu'en Orient, où plusieurs critiques littéraires les tiennent en haute estime. Dans le Maghreb, Mohamed Laïd forma une école de jeunes poètes qui lui durent leur vocation et le proclamèrent leur maître. Ce qui attirait, peut-être, le plus l'attention vers lui, était le fait que ses problèmes personnels n'avaient pas de place dans sa poésie. Et pourtant il en avait... Quelques années avant sa disparition, il habitait un "logement de fonction", de l'école camp, située dans un quartier populaire de la ville de Batna. Il ne nous est jamais arrivé, à un moment ou un autre, de l'apercevoir dehors. C'est tout ce que les autorités locales de la ville de Batna daignèrent lui offrir. Mohamed Laïd vécut pour tous, il quitta ce monde, oublié même de ceux qui étaient proches.

Bien avant que l'idée afro-asiatique ait pu mûrir dans la pensée des hommes de ces deux continents, Mohamed Laïd l'invoqua dans certains de ses poèmes. Avant même la tenue du Congrés de Bandung il faisait allusion dans ses poèmes à un événement similaire.

Quand Mussolini envahit l'Ethiopie, Mohamed Laïd manifesta sa solidarité avec le peuple éthiopien et regretta que l'Algérie ne puisse rien faire pour le sauver du joug du fascisme. Dans cette optique, sous la rubrique : "Dans l'intérêt de la vérité et de l'histoire", du journal Al Baçair, Mohamed Laïd, fit publier un poème intitulé : Orient! prends tes précautions (2). Dans ce poème, l'auteur juge sévèrement l'occupation de l'Ethiopie par l'Italie et blâme l'attitude du pape et du clergé Italien, qui approuvèrent cette occupation. S'adressant à l'Orient, il lui recommanda de se méfier de l'Europe et des Européens qui, dit-il, "sont plus féroces que les bêtes fauves", il gémit ensuite sur le sort des Ethiopiens et leur rappele que malgré la distance qui les sépare des Algériens, ils sont frères.

D'autres évènements, comme celui, tragique, d'Hirochima en 1945 ou ceux de l'Egypte, en 1956, furent aussi l'objet des poèmes de Mohamed Laïd.

---

(1) Benchenab : Documents A[illegible] n° [illegible] PP.273-274.
(2) Al Baçair : 29 mai 1936.

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Professeur Amar HELLAL
Institut d'Histoire
Université d'Alger

Deux illustres poètes algériens contemporains : Mohamed Laïd AL-KHALIFA et Mufdi ZAKARIA

En nous limitant seulement aux deux biographies de Mohamed Laïd et Mufdi ZAKARIA, c'est un simple échantillon qu'on donne à propos des poètes réformistes, car, en somme, dans leur majorité, les intellectuels de l'époque, avant d'être quoi que ce soit, furent des poètes. Etre poète fut presque un critère et une ligne de séparation entre le savant et le non savant. Cela ne veut en aucun cas dire qu'ils furent tous de bons poètes. Mais la poésie fut pour la plupart d'entre eux un domaine linguistique et littéraire très riche, aussi bien en expression qu'en expérience. Mohamed Laïd, poète réformiste, sans conteste, et Mufdi ZAKARIA, quoi que nationaliste plutôt que réformiste, se hissèrent au premier rang, non seulement des poètes algériens de leur temps, mais encore leur poésie acquit une place non négligeable au niveau maghrébin et arabe.

I. - Mohamed Laïd EL-KHALIFA

Originaire d'une tribu bédouine, Ouled Séoud, ses ancêtres étaient fixés dans la région d'Oued Souf, plus exactement, dans un petit village appelé Kouinine. Sa famille quitta la région, pour se fixer définitivement à Ain- Beïda (dans l'Est Algérien), où naquit Mohamed Laïd le, 28 Août 1904. Né dans une famille d'origine rurale, fortement religieuse et conservatrice, il fit ses études primaires à l'école coranique d'Ain-Beïda. Il eut la chance de trouver sur place une médersa libre qui fonctionnait. Il la rejoignit pour y poursuivre ses études sous la direction de deux professeurs capables, Chaykh Mohamed El-Kamel BEN-AZOUZ et Chaykh Ahmed BEN-NADJI. En 1981, sa famille quitta Ain-Beïda pour se fixer à Biskra. Là, il eut, encore une fois, le privilège d'y trouver de bons professeurs, tels qu'EL-OKBI, Ben Mokhtar EL-ILLAOUI et Mekki EL-DJOUNEIDI. (I)

Au début des années vingt, l'influence des étudiants revenus de la Zaytuna commença à se faire sentir à Biskra. Ces revenants incitèrent beaucoup d'étudiants de la région à se rendre à Tunis pour étudier dans sa célèbre université arabe. Mohamed Laïd ne fit pas exception à la règle ; il quitta Biskra en direction de la Tunisie, où il étudia près de deux années consécutives, mais pour des raisons familiales, il fut contraint d'interrompre ses études pour retourner chez lui. Ce qui ne l'empêcha pas de se consacrer à l'étude et aux recherches. En fait, il se forma par lui-même. Tout jeune, il fut épris de poésie. A l'âge de 20 ans, il écrit son premier poème, par lequel il saluait la naissance du journal tunisien Al Açr. Celui-çi l'imprima fièrement sur sa première page.

(I) Pour de plus amples renseignements sur Mohamed Laïd, voir ; Saâdallah (A.E.Q) : Mohamed Laïd EL-KHALIFA p[illegible]rs de la poésie algérienne contemporaine, 2ème édition, le Caire, 1976.

Créé avec nitroPDF professionnel
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Université d'Alger
Institut d'Histoire

MAJALAT ED'DIRASSAT TARIKHIA

Direction : BENAMIRA Mohamed

Rédacteur en Chef : Amar HELLAL

Commission de Lecture :

- A.E.Q. SAADALLAH
- Abdelhamid ZOUZOU
- Nacer-Eddine SAIDOUNI
- Djamel GANANE
- M.E.H. HARRECHE

Adresse de correspondance : Institut d'Histoire, rue El-Afghani, Bouzaréah - ALGER
Tél : (02) 94.10.18 C.C.P. Alger : 5216-12

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

Université d'Alger
Institut d'Histoire

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

MAJALAT ED'DIRASSAT TARIKHIA

(Revue d'Etudes Historiques)

Créé avec nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

N° 8 - Année 1993/1994 Prix : 50 DA.